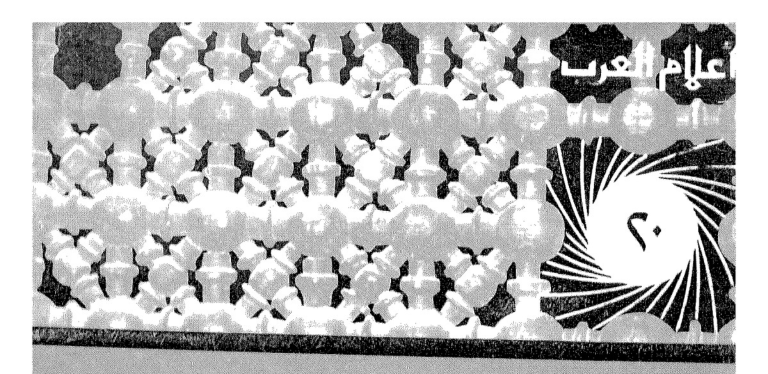


قاسم امين

تأليف
الدكتور ماهر حسن فهمى

رة الثقافة والإرشاد القومى
ؤسسة المصرية العامة
ين والترجمة والطباعة والنشر

اهداءات ٢٠٠٢
الشيخ/ عبد العزيز توفيق جاويد
شيخ المترجمين- القاهرة

أعلام العرب

٢٠



تأليف

الدكتور ماهر حسن فهمي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

مقدمة

من أعسر الأمور على كاتب الترجمة لعلم من أعلام القرن الماضى وأوائل هذا القرن — أن يجد مادة كافية ، الا أن يكون المترجم له ممن تتبعت الصحف أخبارهم ، فسجلتها صفحات الدوريات القديمة ، أو يكون من القلة التى سجلت حياتها فى تراجم ذاتية . لأن من عاصروهم قد فارقوا الحياة منذ حين ، ونحن لم نهتم بعد بتراجم أعلامنا . ولولا سلسلة أعلام الاسلام التى صدرت منذ سنوات ، وسلسلة أعلام العرب التى تصدر الآن ، ولولا اهتمام بعض المفكرين بتراجم أعلام ممن عاشوا فى تلك الفترة ، لما تيسر للأجيال القادمة أن تعرف شيئا عن حياة رواد من صانعى نهضتنا المعاصرة .

من أجل هذا كان لابد أن أجمع بعض مادة هذا الكتاب — عن قاسم أمين — من أحفاده وأقربائه الذين وجدت لديهم استعدادا لمعاونتى . على أن كل ماجمعته من مادة لم أسجله فى هذه الترجمة فبعضه لم يثبت للنقد والتمحيص ، وانما قيدت ما تثبت من صحته ، فقد كان له أساتذة وأصدقاء درست حياتهم دراسة علمية ، ودراسة التاريخ السياسى والاجتماعى لهذه الفترة التى عاشها قاسم ، ودراسة تراجم الأعلام الذين عاصروه وكانت

له بهم صلات ، تعين الباحث على نقد المرويات . فعنـــدما نسمع قصة طريفة عن بداية صلة سعد بقاســـم ، فى يوم كان قاســـم — وكيل النائب العام — يركب عربته التى تجرها الخيول ، وكان سعد يشترك فى احدى مظاهرات الطلبة ، ثم احتك المتظاهرون بقاسم وتدخل سعد لفض النزاع ، ينبغى أن نأخذ هذه القصـــة وأمثالها بحذر شديد . فقاسم وسعد زغلول كانا من تلاميذ الأستاذ محمد عبده وأصدقائه المقربين ، وعندما كان قاسم وكيلا للنائب العام كان سعد زغلول محاميا معروفا . فمن الممكن أن يكـــون العمل وسيلة التعارف أو تكون حلقة محمد عبده هى الوسيلة ، لأن سعدا لم يكن طالبا عندما كان قاسم موظفـــا ، بل كان أكبر من قاسم سنا ، ومن هنـــا نقف من مثـــل هـــذه الرواية موقف الحذر .

وقد آثرت أثناء العرض والتحليل أن أربط حياة قاسم بحياة المجتمع كلما استدعى الموقف ذلك لأستجلى الصـــورة العـــامة للعصر ، تلك التى كان لها تأثيرها المباشر فى تفكير قاسم باعتباره يمثل طبقة من المصلحين فى جيل معين ، وآثرت أيضـــا أن يكون الاطار لتلك الترجمة الأدبية اطاراً تاريخيا لا يخلو من روح روائية فى بعض الأحيان ليطابق قصة الحياة التى عاشها صاحب الترجمة. ومن هنا لم أقف موقف المدافع عن كل تفكير قاسم وأعماله ، كما يدافع الذين اعتادوا أن يقدموا مثلاً أعلى للناس وان تعارض مع الحقيقة العلمية . وانما أردت أن أحلل الدوافع التى حركت هذا المصلح الاجتماعى الذى قام بعبء دعوته فى جو لم يكن مهيأ لها

فى ذلك الوقت ، واحتمل من الاتهامات الباطلة مالا نزال نردد بعضها الى اليوم .

وكلنا يعرف أن قاسم أمين هو محرر المرأة ، ولكن مَنْ منا يعرف أسرار حياته حين كان فى فرنسا واتصاله بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وانضمامه الى جمعية العروة الوثقى ؟ ومن منا يعرف قاسما من أقضيته وكيف كانت أحكامه ، وصور كثيرة من هذه الأحكام ما تزال محفوظة تلقى الضوء على تفكير هذا المصلح الاجتماعى . بل من منا يعرف شيئا عن حياته العائلية وكيف كانت عاداته ، ومتى كان يكتب ، وكيف كان يقضى أوقاته ، ثم كيف كانت صلاته بأصدقائه وبالناس ؟ ومن المؤكد أن بعض انتاجنا هو انعكاس لقراءاتنا وتجاربنا وظروف حياتنا .

ان الجيل الذى عاصر قاسما هو وحده الذى يعرف ضروب وطنيته ، وهو وحده الذى يعرف أن قاسما لم تقتصر جهوده على تحرير المرأة ، وأن له جهودا أخرى فى انشاء الجمعيات الخيرية ، وأن الجامعة ثمرة من ثمرات جهوده وجهود بعض زملائه ، بل هو وحده الذى يذكر لقاسم جولات مع ممثلى الاستعمار فى مصر وربما مع القصر أيضا .

واذا كنا نعرف أن قاسما هو صاحب « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » فان كثيرين منا يجهلون المعركة التى قامت حول هذين الكتابين والعناء الذى لاقاه قاسم حين اتهمه بعض الناس بالتفرنج وبزيف الوطنية والبعد عن تعاليم الدين ، بل اتهم بأن كتاب « تحرير المرأة » نفسه ليس من أسلوبه ولا من تأليفه.

وانتقلت المعركة الى الوطن العربى واشتعلت اشتعالا فى العـراق وفى الشام على وجه الخصوص ، ولكن هذه المعركة أغرته بالثبات، وأمدته بطاقة جديدة لمواصلة الكفاح .

وكثيرون من الناس قد قرءوا له « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » ولكن كثيرين أيضا لم يقرءوا كتابه فى الرد على الدوق داركور وكتابه « أسباب ونتائج » ومذكراته المطبوعة بعنـوان « كلمات » . وقد كان قاسم يرى أن اللذة التى تجعل للحياة قيمة ، ليست حيازة الذهب ولاشرف النسب ولا علو المنصب ولا شيئا من الأشياء التى يجرى وراءها الناس عادة ، وانما هى أن يكـون الانسان قوة عاملة ذات أثر فى المجتمع . ومن المؤكد أنه قد أثر تأثيرا خالدا فى الوطن العربى .

دكتور : ماهر حسن فهمى

الفصل الأول

أحداث العصر

كان قاسم أمين ابن عصره ، صنعته أحداث العصر ، ومثل فصلا هاما على مسرح حياته . وقصة السنوات المئة الماضية بأحداثها وأبطالها من أروع القصص فى تاريخنا على الاطلاق . نبدؤها منذ بدأت الأحداث تجرى مسرعة عجلة مع بداية النصف الثانى من القرن الماضى . وكان الوعى السياسى قد بدأ يساير تلك الأحداث فى العالم الاسلامى كله . وكان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى بعض الأبطال فى تلك القصة الطويلة ، ولكنهم لم يكونوا وحدهم صانعى الأحداث .

تخيل الكواكبى — فى كتابه أم القرى — مؤتمرا فى مكة يجمع ممثلين من مختلف الأقطار الاسلامية ، يبحثون فيه حالة الأمة ، ويرسمون سبل الاصلاح ، ويهزون هذا العالم الاسلامى لتسرى فيه رعشة الحياة . وبدأت مناقشة المؤتمر حول حالة الفتور العام التى تعترى المسلمين كافة ، فقال رئيس المؤتمر : ان المسلمين فى جميع الحواضر متميزون عن غيرهم من جيرانهم فى المزايا الخلقية ، مثل الأمانة والشجاعة والسخاء ، الا أنهم أقل نشاطا

وانتظاما ، حتى توهم كثير من الحكماء أن الاسلام والنظام لا يجتمعان ، فما هو السبب ؟

قال التترى : السبب عندى فقدان القادة والزعماء ، فلا أمير حازم يسوق الأمة طوعا أو كرها الى الرشاد ، ولا زعيم مخلص تنقاد له الأمراء والناس ولا رأى عام يجمع الناس . وهنا وقف النجدى قائلا : ان سبب فتور المسلمين ، الدين الحاضر نفسه ، بدليل التلازم . ؟ فالدين الحاضر ليس دين السلف ، ان الدين الحاضر ترك اعداد القوة بالعلم والمال والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واقامة الحدود وايتاء الزكاة .

واحتدت المناقشة حول الأسباب الدينية والسياسية ، ولم يرض المؤتمر بالاكتفاء بالبحث فى الأمراض وعلاجها ، بل اقترح انشاء جمعية دائمة تعنى باصلاح المسلمين ، وتشرف على تنفيذ برنامجها فى الاصلاح . وقد اتفقوا على أن يكون مركز الجمعية المؤقت هو مصر ، لتقدمها فى العلم والحرية ، ولأنها أسبق الأمم الاسلامية الى ذلك .

ونفس هذه الصيحة كان يرددها محمد عبده فى جريدة العروة الوثقى ، وظل يرددها طيلة حياته ، فيتردد صداها فى أسماع الناس . كان يتجه الى العلماء قائلا : « اختلت الشئون ، وفسدت الملكات والظنون ، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم

الحاجة ، وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث فى أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم علل ما صرتم وصار الناس اليه ؟ قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا ، وانما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا — وان يفعلوا — فذلك لأنه آخر الزمان ، وقد ورد فى الأخبار ما يدل على أنه كائن لامحالة، وأن الاسلام لابد أن يرفع من الأرض ، ولا تقوم القيامة الا على لكع بن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الأمل ، ولاتدع فى نفس حركة الى عمل . » (١) ولكن محمد عبده لم ييأس ، وليس هنا مجال الحديث عن دوره .

ولم يكن البحث فى سبب انهيار البناء الاسلامى مقصوراً على العلماء وحدهم فقد سلّط كثير من الأضواء على هذا الجسم المريض ، فالداعون الى الاصلاح لا يفتأون يتداولون الأمر والشعب قد بدأ يشارك برأيه . وعلى مسرح المجتمع يظهر التاجر والموظف وأفراد الطبقة الوسطى — فى رواية (السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين) التى ألفها محمد كاظم التاجر بالاسكندرية — يتداولون فى أسباب التفكك الموجود بين المسلمين ، وفى البدع المنتشرة ، وفى الاعراض عن تعاليم الدين ، وفى الفهم الخاطىء لكثير من تعاليمه . ولكن السؤال الذى كان يجول بالخواطر فى ذلك الوقت ، هو الوسيلة التى يلتئم بها

(١) الاسلام بين العلم والمدنية (كتاب الهلال سنة ١٩٦٠) ص ١٦٢/١٦٣ .

الشمل ، وهل نستطيع فى سهولة ويسر أن ننقى الدين من شوائبه، وأن نكتل الناس حول قيم جديدة ؟

سار الاتجاهان جنبا الى جنب ، محمد عبده ينتقل من بلد الى بلد ، يحاول اصلاح الدين ، ورجال آخرون يحاولون الاصلاح السياسى عن طريق الدين كالكواكبى وغيره ، وكان الاتجاهان فى الواقع من وحى جمال الدين الأفغانى ، ذلك الرجل الذى لم تدرس حياته الى اليوم دراسة تزيل جوانب الغموض التى اكتنفتها ، فقيل انه منشىء الماسونية فى مصر والشرق ، وقيل انه دافع الثورات وقيل انه المصلح الدينى ، ولكنه بلا شك قد وجه جيلا بأكمله .

كان الموقف بعد منتصف القرن التاسع عشر قد حرك الجموع فى الوطن العربى ، فثارت تحمل راية الدعوات الفكرية الدينية وتسير جميعا الى هدف واحد هو التحرر من ضروب الاستبداد.

وهذا هو طابع الثورة العرابية فى مصر وهدفها ، وثورة المهدى بالسودان ، وثورة الوهابيين بالحجاز ، وثورة السنوسى بليبيا . واصطبغت أرض الوطن العربى بالدماء ، ولم تفلح هذه الثورات جميعا فى تحقيق أهدافها فقد أعوزتها القوة المادية وتطهير قواعدها من العناصر الضعيفة والبطل الذى يفهم نفسية الثورة .

وكان الأوربيون قد بدءوا يتطلعون الى الدول الاسلامية فيسيل لعابهم ، ثم تبدأ أنيابهم تنهش هذا الجسد الواهى عضوا عضوا . فالفرنسيون يستولون على الجزائر ثم تونس ، وروسيا

تضم القوقاز ، وانجلترا تسيطر على الهند ثم على مصر ، وهولندة على أندونيسيا . ومن هنا جاء التفكير فى التكتل لصد هذا التيار الأوربى ، وفى بث الوعى لتتفتح العيون ، وفى الاصلاح الشامل من أجل البقاء .

والواقع أنه منذ بداية القرن الماضى كان الوضع فى مصر قد بدأ يتغير ، فقد تهيأت لها من الأسباب ما جعلهـا تقوى على أن تفتح نوافذها المغلقة ، فيقبل نسيم يزيح هذا الجو الخانق وتتثاءب مصر لتطرح عنها خمار نوم طويل . أكانت الحملة الفرنسيـة هى بداية النهضة كما يرى « جب » ، أو عصر محمد على كمـا يرى ساطع الحصرى ؟ الحقيقة أن بداية الاحساس بالحاجة الى التطور ، يبدأ منذ جاءت الحملة الفرنسية ، حين نقرأ قول الشيخ حسن العطار : « وان بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من العلوم والمعارف ما ليس فيها . » (١)

جاء نابليون الى مصر بأسطوله وجيوشه ، وأذاع المنشورات على الشعب ، ولكن الشعب لم يهدأ أبدا ، وأخيرا فضّل نابليون ألا يقامر بمستقبله فى وادى النيل ، ورحلت الحملة الفرنسيـة . وظهر على مسرح العصر محمد على بعد أن اختاره الشعب . وبعد مذبحة القلعة المشهورة فكر محمد على ، ولكن فكره كان محصورا فى بناء جيش يوطد به الأمن فى الداخل ، ويكون وسيلة الى تحقيق مآربه فى الخارج . ومن هنا أنشئت المدرسـة الحربية ومدارس

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٣٨ .

الطب والصيدلة والهندسة . ولكن المصريين لا يستطيعون تدريس تلك العلوم ، والطب عندهم يحتكره المشعوذون ، والصناعات متأخرة حتى لاتستطيع مصر أن تصلح ساعة سائح أجنبي ، تعطلت ساعته وهو يجوب الدلتا ، فكان لابد من استقدام الأساتذة الأجانب والاستعانة بالتراجمة ، ثم ارسال البعثات .

فسافر رفاعة الطهطاوى وسافر على مبارك وسافر غيرهما الى أوربا ، وهناك تفتحت عيونهم وعقولهم على مشاهد لم يألفوا لها مثيلا فى بلادهم . رأوا فى البلاد الأوربية دساتير تنظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، ونشاطا فى كل ألوان الحياة ، وتقدما علميا وماديا غريبا عليهم . والتفت معظم المبعوثين الى تيار العلم المتدفق وكلهم حماسة لنهضة بلدهم .

وعاد هؤلاء المبعوثون — فكانوا أول صلة حقيقية بين مصر وبين الثقافة الأوربية فى العصر الحديث . رأوا بلادهم فى أول الطريق لبناء النهضة ، فعملوا على السير بها شوطا طويلا فى ذلك الطريق. واذا بهم يصبحون قدوة للشباب ، فتزداد الرغبة فى التعلم وتتسع ميزانية التعليم مع توالى الأعوام فى سيرها السريع بعد أن أتم النصف الأول من القرن الماضى دورته . ثم ينتشر التعليم على نطاق شعبى فى القرى ، ويتكون « اتحاد الشبيبة المصرية » الذى يدعو الأفراد الى فتح المدارس والتوسع فى التعليم الحر تخفيفا للعبء الملقى على الميزانية ، وسعيا وراء نشر الثقافة بين أبناء البلاد على نطاق واسع ، وتكثر المدارس الأجنبية كثرة لم تعرفها مصر من قبل ، وتجتذب نفرا كبيرا من أبناء المصريين الراغبين فى

تعلم اللغات الأجنبية التى أصبح لها شأن أى شأن . وتنداح دائرة النهضة فى الناحيتين الثقافية والاجتماعية ، وذلك عن طريق انتشار الصحف والجمعيات العلمية والمطابع ودور الكتب وغيرها من عوامل الرقى .

كان رفاعة الطهطاوى يعجب لانتشار الجرائد — الجورنو كما كان يسميها — وتلهف الناس على قراءتها فى باريس ، ويحلم باليوم الذى تنتشر فيه بمصر فتصل الثقافة الى الناس جميعا . ويصبح الحلم حقيقة ، فتنهض الوقائع المصرية حين يسند تحريرها الى أحمد فارس الشدياق ، وهو صحفى مثقف وأديب كبير من أدباء القرن الماضى — وتطالع الوقائع المصرية الناس بمقالاته العميقة . ثم تظهر صحف رسمية أخرى كالجريدة العسكرية المصرية ، واليعسوب الطبية وروضة المدارس . وأهم هذه الدوريات هى « روضة المدارس » التى ظهرت عام ١٨٧٠ وكانت تهتم بالاجتماع والتاريخ والأدب . وقد أفسحت صدرها للطلبة ، فكتب فيها يومئذ الشاعر اسماعيل صبرى بعض قصائده ، وكان مايزال تلميذا صغيرا ، وكانت تنشر الى جانب الأخبار والمقالات، بعض كتب مشاهير المؤلفين فى سلاسل متتابعة « كحقائق الأخبار » لعلى مبارك ، و « آثار الأفكار ومنثور الأزهار » لعبد الله فكرى، « والنكات وباب التياترات » لمحمد عثمان جلال ، و « القول السديد فى الاجتهاد والتجديد » لرفاعة الطهطاوى .

أما الصحف الشعبية فقد طالع الناس منها صحيفة وادى النيل ونزهة الأفكار وأبو نظارة والوطن وغيرها . والى جانب هذه

الصحف المصرية ، كانت ترد الى مصر بعض الصحف الشرقية كالجوائب التى كانت تصدر فى الآستانة ، وكانت تنشر للأدباء المصريين . وفى هذه الفترة الخصبة ، وفد كثير من السوريين الى مصر ، عندما عرفوا انفساح المجال أمام الأدباء والصحفيين . وقد أقام أكثرهم فى الاسكندرية ، وأصدروا عدة صحف هامة، أقدمها « الكوكب الشرقى » ثم الأهرام ومصر والتجارة ، حتى أصبح عدد الصحف العربية أكثر من عشرين صحيفة . وأما الصحف الأجنبية ، فقد انتشرت انتشاراً كبيرا حتى زادت على الصحف العربية . (١) أليس ذلك دليلا على انتشار عدد القراء ، وبالتالى بداية انتشار ثقافة العصر ؟ كذلك نهضت الطباعة ، وتبع ازدياد عدد المطابع والرغبة الأكيدة فى طلب المعرفة أن ظهرت حركة احياء القديم ، فطبع كثير من أمهات كتب الأدب والتراجم والتاريخ والمعاجم . وقد كان لهذا كله أثره فى تطور الحركة العقلية ، فنشطت حركة التأليف ، وأصبحنا نجد المصريين يؤلفون فى شتى فروع المعرفة . كما نشطت حركة الترجمة خاصة بعد أن صدر الأمر « بلزوم جمع صور الأوامر واللوائح وكل ما سبق صدوره من الاجراءات ، من زمان تولية ساكن الجنان المرحوم محمد على باشا جد الجناب العالى ، لغاية مدة المرحوم سعيد باشا ... فما كان عربيا يطبع كما هو ، وما كان تركيا تطبع معه ترجمته بالعربية . » (٢) وكان تغلغل نفوذ الأجانب فى مصر ، من العوامل

---

(١) تطور الصحافة لابراهيم عبده ص ٣٣١ ، ٣٤٧ .

(٢) تاريخ الحركة القومية ج ٣ ص ٥١٠ .

التى ساعدت على ازدياد نشاط حركة الترجمة حتى قيل ان تلاميذ رفاعة الطهطاوى قد عربوا نحو ألفى رسالة وكتاب .

ولم يقتصر النشاط الفكرى على هذا ، بل ألفت الجمعيـات العلمية التى لاتعتمد على معونة الحكومة فى تأدية رسالتها ، وذلك دليل آخر على انتشـار الوعى بين الناس . فتألفت جمعية المعارف لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر سنة ١٨٦٨ ، وقد نمت نموا سريعا حتى بلغ عدد أعضائها ستين وستمائة عضـو . كذلك أسست الجمعية الجغرافية للعناية بالأبحاث الجغرافية ولها مجلة دورية . والى جانب الجمعيات التى أخذت على عاتقها التوسع فى نشر الثقافة بجميع الطرق ، كانت هناك محاضرات عامة يلقيها مشاهير الأساتذة « بمدرج المحاضرات بالجماميز » وتتناول فروع المعرفة ، ويحضرها كبار الرجال والطلبة وكثير من المثقفين .

وقد يعجب القارىء حين يعلم أن دار الأوبرا قد بنيت فى ذلك الوقت ، وأن نهضة مسرحية تكاد تبلغ الذروة كانت فى تلك الأيام ، فتتعدد المسارح وتؤلف الروايات وتعرب التمثيليات حتى لقد ألف يعقوب صنوع وعرب وحده نحو أربعين مسرحية ، كما كان لمحمد عثمان جلال الأديب المصرى أثر واضح فى ترجمـة المسرحيـات الفرنسية وتمصيرها لتلائم الذوق الشرقى .

وفى الربع الأخير من القرن المـاضى ظهرت الدعوة الى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وكان أصحابها ممن جذبتهم مظـاهر الحياة فى أوربا واقترن فى أذهانهم حاضر الشرق الضعيف بتقاليده الموروثة . وطبيعى أن ينقسم المجتمع أمام تلك الدعوة ، وطبيعى

أيضا أن نجد فريقا كبيرا يخشى خطرها فيزداد تمسكا بتقاليده ودينه ومثله الشرقية . يقول (لوثروب ستودارد) — فى كتابه حاضر العالم الاسلامى — : « أما الشرق فهو فى كثير من مواضع الانقلاب يطفر فى تحوله طفورا ، اذ آن ما يأخذه عنا ويقتبسه منا دفعة واحدة قد تقضت على تكامله عندنا الأجيال والقرون فكانت النتيجة أن غلبت صفة الطفرة لاصفة النشوء المترقى على تطور الشرق ، هذا التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى وغير ذلك . فاختلطت الجواهر بالأعراض وتناقضت البواطن والظواهر وبدت أمور وشئون بعضها قبل أوانه وبعضها الآخر بعد أوانه ، وفى مدة قليلة طفقت شقة التباين العقلى والخلقى تمتد وتتسع بين أبناء الجيل الواحد ... وربما قام الفرد على نفسه ، فقاتلت سجيته سجيته وخلقه خلقه »(١) .

على أن هذا الاختلاف بين الفريقين ، وهذا النقاش الحاد الذى ضمته صفحات الجرائد والمجلات قد أوجد وعيا اجتماعيا لا شك فيه ، وجعل الناس يوازنون بين الأمور موازنة ناضجة ، فكان كل هذا أشبه بالشك الذى يلد اليقين . هذا التناقض فى تقبل الحضارة الغربية بما فيها من حسنات وسيئات نجده مصورا تصويرا قويا فى « حديث عيسى بن هشام » لمحمد المويلحى . والكتاب محاولة قصصية تصور حياتين ، حياة جيل عاش فى النصف الأول من القرن الماضى ، وجيل عاش فى النصف الثانى

---

(١) حاضر العالم الاسلامى ج ٢ ص ٥ .

من ذلك القرن وفى أوائل القرن العشرين . وتعرض القصة لفكرة المساواة فى الحقوق والواجبات ، وهى الفكرة التى لم يعرفها أبناء الجيل الأول ، فقد عهدوا السلطة كلها مركزة فى يد الوالى ، وأن طبقة « الباشوات » لها من الحقوق ما ليس لغيرها ، وعليها من الواجبات أقل من غيرها بحكم الاقطاعيات التى تملكها ، أو الألقاب التى تحملها ، ولكن أبناء الجيل الجديد ، الذين تأثروا بالمفاهيم الغربية ، يعرفون المساواة أمام القانون . ويصدم الباشا — وهو بطل القصة ومن الجيل الماضى الذى قدر له أن يشهد الحياة الجديدة التى تبدل فيها كل شىء — حين يرى أنه لا يختلف أمام القانون عن أى صغير . ثم ينتقل الحديث الى التقدم العلمى وخاصة فى الطب — وهو مثل من أمثلة الرقى — حين أصيبت البلاد بالوباء ويعجب الباشا لهذا التقدم العلمى الكبير . ويستمر فى مسيره مع عيسى بن هشام ، فينتقل الى جانب آخر من المجتمع تتركز فيه سيئات المدنية ، طبقة ارتمت فى المباذل التى حملتها الينا الحياة الغربية مع ماحملت ، ولم يقتصر الأمر على سكان المدن ، بل إن بعض أهل الريف الموسرين ، الذين عرفوا طريقهم الى المدن الكبيرة كالقاهرة ، كانوا يأتون للهو والمجون . وتتتبع القصة شخصية « العمدة » عند حضوره من الريف وكيف وقع فى أحابيل الخلعاء وكيف عرف الساقطات وشرب الخمر وارتمى فى أحضان الرذيلة بكل حرمانه القديم ، لا يردعه دين ، ولا يرده عن فنون الخلاعة رادّ ، ولا يحسب حسابا للمال الذى ينفقه عن يمين وعن شمال .

ثم يختتم المويلحى قصته بعد أن صور حسنات المدنية الغربية

الغازية وسيئاتها ، يختتمها بما على الشرق أمام هـذا كله ، من اقتداء بالغربيين فى تقدمهم المـادى ، مع التمسك بروحانية الشرق الخصـبة .

وكانت جماهير الشعب كما رأينا تشارك فى دراسة أمورهـا السياسية وكانت تسعى الى تثقيف نفسهـا ، وكان هنـاك قادة ومصلحون . سلسلة من الأعلام على رأس كل فصل من فصـول قصة القرن المـاضى تخاطر بأرواحها من أجل حياة أفضل . كان هناك جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى ورفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وغيرهم . وانى لأتصور جمال الدين فى مجلسه الوقور فى بيته ، أمامه تلاميذه ، وهو بينهم ربعـة فى طوله ، وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه ، عصبى فى مزاجه ، عظيم الرأس فى اعتدال ، عريض الجبهة فى تناسب ، واسـع العينين ، ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل المنظر ، يقول بصوته المتزن العميق : « ان الاسلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها ، وأثبت لكل نفس الحق فى السمو ، ومحق امتياز الأجناس ، وتفاضـل الأصناف ، وقدم الناس بالكمال العقلى والنفسى ، فالناس انما يتفاضلون بالعقل والفضيلة لا بأى شىء آخر ... ان الاسـلام أوجب تعليم سائر الأمة وتنوير عقولها بالمعارف والعلوم . » (١)

فاذا آنس منهم تطلعاً لمزيد احتدت نبراته وهو يقول : « ماذا تنفع الحكومة الصالحة اذا كان الشعب غير صـالح ؟ لقد علمنا

---

(١) زعماء الاصلاح لأحمد أمين ص ٧٩ .

التـــاريخ أن الحـــكومة لا تستقيم الا اذا كان فى الأمر رأى عام يخيفها ، ويلزمها أداء واجباتها ، والوقوف عند حدها ، فاذا لم يكن ذلك ، فالطبيعة البشرية تملى على الحــكام أن يســتأثروا بالمنافع ، وغاية ما يتوقع من الحكومة الصالحة غير المؤسسة على قوة الأمة ويقظتها أن تكون موقوتة بوقتها ، فاذا زالت حل محلها من لا يصلح ، اذ لا شأن للأمة فى اختيارها ولا رقابة لهـــا على أعمالها ...

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ، فهى شاهــدة بمنعــة آبائكــم وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء » (١) .

ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية ، فاذا ما نفى من مصر ، ذهب اليه بعض خلصائه بالسويس ، يعرضون عليه المال يستعين به على الحياة ، فيبتسم قائلا : « الأسد لا يعدم فريسته حيثما ذهب » . ويذهب الى الهند وايران وتركيا ، يواصل بث دعوته الى الوحدة الاسلامية الشاملة التى يكون دستورها الدين بعد تنقيته من شوائب عصور الضعف ، ويترك فى كل مكان حل به أثرا أى أثر . ولكن السؤال الذى عرضنا له فى أول الفصل ما زال قائما . فلم أنشأ جمال الدين الأفغانى محفلا ماسونيا تابعا للشرق الفرنسى ؟ الأنه كان قد تأثر بشعارات الثورة الفرنسية عن الحرية والاخاء والمساواة ؟ .

---

(١) نفس المرجع ص ٥٩ ، ٧٣ .

ان كتاب « خاطرات جمال الدين الأفغانى » يجيب عن هـذا السؤال حين يقول جمال الدين : « اذا لم تدخل المـاسونية فى سياسة الكون — وفيها كل بناء حر ، واذا آلات البناء التى بيدها لم تستعمل لهدم القديم ولتشييد معالم حرية صحيحة واخـاء ومساواة ، وتدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة حجارة ، ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة » .

فشعارات الثـورة الفرنسـية اذن — تلك التى حمـلتها الماسونية — هى التى شوقته وهو يسعى لدك صروح الظلم . ومن المؤكد أنه اختار باريس وما وراءها من تقاليد الثورة ، جـوا يستأنس به ليصدر مع تلميذه الشيخ محمد عبده مجلتهما « العروة الوثقى » لتأثره بشعاراتها . وربما كانت فكرة المساواة هذه ، هى التى ساوت عنده بين المرأة والرجل فى أحاديثه التى كان يلقيها.

ولا يغيب عن سماء مصر رائد ، الا ولها من بعده رواد . كان رفاعة الطهطاوى من قبل وكان أديب اسحق من بعد ممن تأثروا تأثرا كبيرا بمبادىء الثورة الفرنسية . وربما كانت مصر من أكثر الشعوب الشرقية تأثرا بتلك المبادىء عن طريق الحملة الفرنسية وعن طريق البعثات . ولكن من أكثر رواد القـرن الماضى تأثرا بها هو عبد الرحمن الكواكبى . وقد عرض فى كتـابه « طبـائع الاستبداد » لذكر السببين الرئيسيين من سبل الاصلاح فى نظره . فكان أولهما سبيل النبيين وثانيهما سبيل الفئة التى اتبعت أثرهم، وضرب مثلا لهذه الفئة فذكر « مؤسسى جمهورية الفرنسيس » .

ويعرض لأثر الاستبداد فى افساد الأخلاق مبينا أن الانسـان

يمتاز بالارادة والاستبداد يفقده الارادة ، ويبين الحكمة فى احتمال ما فى الحرية من مضار فيرجع تلك الحكمة الى حرية النقد وهو فى عهد الاستبداد غير مقدور عليه . ثم عرض لأثر الاستبداد فى افساد الدين من زاوية الأخلاق فيصبح الدين عبادات مجردة عن معانيها ونظريات بعيدة عن التطبيق ، ومن هنا كان أثره واضحا فى افساد التربية أيضا ، ومنعكسا على كل عمال الدولة وموظفيها . والأغنياء هم دعائم المستبد ، أما الفقراء فيخافهم خوف النعجة من الذئاب ، وهم يخافونه أيضا خوف الطيور الصغيرة من النسر . وهكـذا تعمق الكواكبى نفسيات المستبدين ونفسيات الرعية محللا مدققا ، لينتهى آخر الأمر الى أن كل عللنا يمكن أن ترد الى الاستبداد . وأن الذين يظنون أن تأخرنا يرجع الى الجهل أو الى الفقر أو الى ترك الدين هم بين مخطىء وبين عارف يمنعه الاستبداد أن يقول ما يعرفه . وانتهى الكواكبى فى آخر كتابه الى تقديم مجموعة من المشاكل وضعها بين أيدى المفكرين ودعاهم الى بحثها . وختـم هذه المشاكل بالمشكلة الكبرى وهى كيف نتخلص من الاستبداد؟ وتناول هذا السؤال وحده بالتعليق فقال : « ان الأمة التى ضربت عليها الذلة والمسكنة لا تسأل عن الحرية قط . وقد تنقم على المستبد ، ولكن طلبا للانتقام من شخصه لا طلبـا للخـلاص من الاستبداد فلا تستفيد شيئا . انما تستبدل مرضا بمرض . وقـد تقاوم المستبد بسوق مستبد آخر ... ان الوسيلة الوحيدة لقطع دابر الاستبداد هى ترقية الأمة فى الادراك والاحسـاس وهـذا

لا يتأتى الا بالتعليم والتحميس كما أن اقناع الفكر العام واذعانه الى غير مألوفه لا يتأتى الا فى زمن طويل ... » .

« والحاصل أن من الضرورى تقرير شكل الحكومة التى يراد اقامتها ويمكن أن يستبدل بها الاستبداد وليس هذا بالأمر الهين الذى تكفيه فكرة ساعات أو فطنة آحاد . وهذاالاستعداد الفكرى النظرى لا يكفى أن يكون مقصورا على الخواص ، بل لابد من تعميمه . » (١)

ولنلتفت الى زاوية أخرى ، زاوية الاصلاح الدينى والاجتماعى، فنجد هناك علما ملأ الأسماع وهو الشيخ محمد عبده تلميذ جمال الدين الأفغانى . كان جمال الدين نارى الطبع ثوريا ، وكان محمد عبده هادىء الطبع . وكان للاتجاهين أتباع ، فريق يرى الثورة وسيلة للاصلاح السياسى ، والاصلاح السياسى والحكم الديمقراطى هما السبيل الى تطور الحياة كلها ومن هذا الفريق عبد الرحمن الكواكبى وأديب اسحق ومصطفى كامل ، وفريق آخر لم يخلق ثوريا ، وانما وجد السبيل المترقى أفضل من الطفرة ، والاصلاح الاجتماعى والثقافى هما السبيل الى الاصلاح السياسى ، بعد أن يدرك الشعب المثقف الواعى حقوقه . وكان على رأس هذا الفريق الشيخ محمد عبده وعلى مبارك وأحمد لطفى السيد وغيرهم .

اكتوى محمد عبده بنار السياسة بعد اشتراكه فى الثورة

---

(١) طبائع الاستبداد ص ٩٩/١٠٢ .

العرابية وتفيه . فلما عاد فضل الميادين التى خلق لها . عمل على اصلاح الأزهر بادخال العلوم الحديثة وتطوير برامجه ولقى المتاعب من أولى الأمر ومن شيوخ الأزهر أنفسهم . وعمل وهو فى منصب الافتاء على فتح باب الاجتهاد بحيث يكون التطابق بين التفسير للنصوص الدينية وبين روح العصر الحديث ، وتلك أيضا أثارت عليه ثائرة الجامدين .

كان يعقد ندوات لمريديه وتلاميذه مثلما كان يفعل أستاذه جمال الدين وكان يتحدث عن الاصلاح الدينى ووجوب التحرر من الجمود ، وكان يتحدث عن الاصلاح الاجتماعى وأهمية الثقافة وخاصة بالنسبة للنساء بعد أن ضرب بينهن وبين العلم بستار لا يدرى أحد متى يرفع عنهن . وكان يتحدث عن الاصلاح اللغوى ، وهو نفسه قد تطور فى أسلوبه من السجع الى الترسل، مع تصحيح الخطأ المشهور من أخطاء النحو والصرف التى كانت تتخلل الكتابة فى عصره . وكان يقول انه لا خير فى المبالغة « فانما يأتى بالمبالغة من كان مجازفا فى رأيه ، والعقل السليم لا يتعدى الصدق » . وكان الى جانب ذلك كله يؤلف فى التفسير وفى التوحيد ويكتب المقالات الاجتماعية التى استطاع بها تلميذه رشيد رضا أن يؤلف الجزءين الضخمين من كتابه عن تاريخ الأستاذ الامام .

كان محمد عبده يلقى دروسه وهو جالس بطلعته الوسيمة المهيبة ، تتوقد فيها عينان نفاذتان ، على قامة معتدلة لا الى البدانة ولا الى النحول ، أبيض اللون الى سمرة ، شائع الشيب فى رأسه

ولحيته قبل أوان المشيب ، سليم الجسد مكين البنيان ، رزين الصوت . « وأكبر ما استفاده العقل السليم المستنير من فكرة الأستاذ الامام فى الاصلاح والحرية الانسانية ، أنه أعاد اليه الثقة بعقيدته فى هذا العصر الحديث ، ورفع من طريقه الى العمل عقبات الجمود والخرافة والتقليد ، لأنه زوده على قواعد دينه بفلسفة الحياة التى يقابل بها فلسفات الغرب المتسلطة عليه من جهة السطوة أو من جهة الايمان بالعقائد والآراء . » [1]

وقد سرت روح محمد عبده فى معاصريه وفى الذين خلفوه على دعوته من تلاميذه وأتباعه . فأخذ عبد الله النديم يوالى نشر مقالاته فى مجلة الأستاذ فى سنتى ١٨٩٢ ، ١٨٩٣ داعيا الى اقامة نهضتنا على أساس الاسلام . وأخذ يهاجم الجـامدين من رجال الدين والجهال من خطباء المساجد الذين يدعون الناس للزهد فى الدنيا. وطلع عبد الله النديم على الناس بآراء طريفة كان فيها سابقا لعصره فى بعض الأحيان . مثل دعوته لتكوين مجمع للغة العربية ، وندائه بضرورة توحيد التعليم ، ومزج الدينى منه بالمدنى ، حتى يكـون رجل الدين واحدا من الناس ، ولكى يخرج عما أخلد اليـه من الانكماش والتحاشى عن خوض السياسة لجهله بأدواتها [2] .

وتابع عبد العزيز جاويش أستاذه الشيخ محمد عبده فى منهجه الاصلاحى ، فأنشأ مجلة « الهداية » وأخذ يفسر فيها القرآن على أسلوب شيخه ، مستمدا منه العبرة والعظة بما ينفع النـاس فى

---

(١) محمد عبده للعقاد ص ٢٥٧ .
(٢) راجع الأستاذ أعداد أكتوبر سنة ١٨٩٢ .

حياتهم ، رابطا بينه وبين الظروف والملابسات التى يعيشون فيها. وفسح من صفحات مجلته لنقل النافع من العلوم والمعــارف فى علم النفس والتربية والاجتماع والأدب العربى شعره ونثره . وخطا خطوات جريئة فى طريق الاصلاح الدينى الذى بدأه أستاذه ، بما كان ينشر من مقالات للكتــاب المتحررين ، الذين يوفقــون بين الدين والمدنية ، وبين الدين وحاجات الحياة .

ويقول كرومر عن محمد عبده : « لقد عرف ضرورة المساعدة الأوربية فى عمل الاصلاح : ولكنه لم يكن ينتمى الى نفس طبقة المتفرنجين المصريين ، الذين كان ينظر اليهم كنسخة رديئــة من الأصل ... وأهمية حياة محمد عبده السياسية تتلخص فى حقيقة ما يمكن أن يقال عنه : من أنه مؤسس مدرسة للفكر فى مصر شديدة الشبه بتلك التى كونها فى الهند سيد أحمد . » (١)

كان هناك كفاح بين كتاب من الغرب وآخرين من الشرق . رد محمد عبده على هانوتو ، ومن قبل رد جمال الدين الأفغــانى على رينان . فقد ألقى « رينان » فى السربون محاضرة عن الاسلام والعلم سلب فيها العرب والاسلام كل ميزة علمية . فقــد زعم أن العلماء الذين نبغوا أكثرهم من غير العرب — من الفرس أو من النصارى النسطوريين والحرانيين كالفارابى وابن سينا وابن رشد. والاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحــر ، بل هو عائق لها بما فيه من اعتقاد فى الغيبيات وخوارق العادات والايمان التام بالقضاء والقدر . ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد

(١) Modern Egypt vol. 2 p. 598-599.

أو أحرقت كتبه . وقد رد جمال الدين الأفغانى على رينان وفند آراءه وتساءل : أصدرُ الشر عن الديانة الاسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التى انتشرت بها الديانة الاسلامية فى العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التى اعتنقت الاسلام أو حملت عليه ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هى جميعا مصدر ذلك ؟ ان ما وقع للمسلمين وقع مثله فى الأديان الأخرى ، فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية مازالوا يحاربون العلم والفلسفة .

لقد تمكن الشعب العربى بسرعة من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية فتقدمت تقدما مدهشا بين العرب . وقد كان الفرنسيون والانجليز والألمان لايبعدون عن رومة وبيزنطة بعدالعرب عنهما. وقد كان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا . أما ابن رشد وابن باجة وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندى بدعوى أنهم لم يولدوا فى جزيرة العرب والا لاعتبرنا نابليون لاينتمى الى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو انجلترا أن تدعى كلتاهما الحق فى العلماء الذين استوطنوهما بعد أن رحل أصولهم من بلدان أخرى (١) . وكان النقاش بين محمد عبده وهانوتو حول ذات الله والقضاء والقدر . فقد نشر هانوتو مقالا عن الاسلام تعرض فيه للمقارنة بين المدنية النصرانية والاسلامية . فرأى أن اعتقاد النصارى فى التثليث ، وتصورهم للاله الانسان ، جعلهم يرفعون مرتبة الانسان ويخولونه حق القرب من الذات الالهية ، على حين أن العقيدة الاسلامية

(١) زعماء الاصلاح ص ٩١/٨٦ .

بدعوتها الى التوحيد وتنزيه الله عن البشرية ، حملت الانسان على الضعف . أما عقدة المسلمين فى القضاء والقدر فحملتهم على الجمود والعقيدة المسيحية القائلة بحرية الانسان وإرادته دفعته إلى العمل والجد .

ونشرت ترجمة هذا المقال فى المؤيد ، فلم ينم الشيخ محمد عبده ليلته حتى كتب الرد عليه ، وظهرت أول مقالة له فى ثانى يوم ، ثم تتابعت مقالاته التى بين فيها فضل الاسلام ، وأن عقيدة التوحيد أسمى فكرة ، وأن الاسلام لم يدع الى الجبرية بالمعنى الذى فهمه هانوتو ، وأن فى القرآن أربعا وستين آية تثبت حرية الارادة [١] . وكان من نتائج هذا كتابه المشهور « الاسلام بين العلم والمدنية . »

وألف دوق داركور كتابه عن مصر والمصريين الذى ملأه بالمطاعن على الاسلام والمسلمين ، ورد عليه قاسم أمين فى كتابه الذى ألفه بالفرنسية عن المصريين ورد فيه على كل هذه المطاعن . وهكذا امتلأت قصة العصر بالأحداث ، أحداث الثورة وأحداث الاصلاح ، وكانت تتتابع فصول القصة وعلى رؤوس بعض فصولها أسماء جمال الدين المصلح السياسى والاجتماعى ، ومحمد عبده المصلح الدينى وعبد الله النديم البطل الذى لم تنل منه الشدائد والكواكبى المصلح السياسى ، وأديب اسحق صاحب الدعوة لمجانية لتعليم [٢] وعاشق الحرية ، ولكن الفصل الأخير من تلك القصة بقى حتى كتبه قاسم أمين محرر المرأة عام ١٨٩٩ .

(١) الاسلام بين العلم والمدنية ص ٢٧ – ١١٣ .
(٢) انظر الدرر ص ١٠٤ .

الفصل الثانى

مرحلة من حياته

كانت السفينة الشراعية تجرى على صفحة اليم فى البحر المتوسط مولية ظهرها لتركيا ، وهى تتجه صوب عروس البحر المتوسط — الاسكندرية . وكان بين ركاب السفينة رجل غرق فى تأملاته ، راح يذكر أسرته التركية العريقة المتوسطة الثراء ، التى امتاز أفرادها بطيبة القلب ، رغم عناد ظاهر فى كثير من الأحيان. ويذكر كيف ولى بعض أفراد أسرته السليمانية من أعمال العراق ، وبقاء الأسرة ردحا من الزمن تقوم بهذه الولاية حتى ظن أنها كردية [1] . .

وتتتابع المشاهد أمام ناظريه فى صور من الذكريات تعود به الى يوم مولده فى السليمانية ، ويتمه بعد أن مات والده وهو طفل صغير . ما أشق اليتم على كل طفل ، انه يملأ القلوب الصغيرة بالأحزان قبل أوانها ، ولكن الأحزان تنقى القلوب وتصفيها ، وتورث المرء الانطواء والوحدة والتفرد . ويعود يذكر كفالة

---

(١) حسب جورجى زيدان أن الأسرة كردية ، فى كتابه « تراجم مشاهير الشرق » ، وقد صحح ذلك أحمد خاكى .

خاله وحضانة جدته لأمه له ؛ ثم تسير الحياة به على هذا النحـو عاما بعد عام حتى يبلغ الخامسة عشرة ، واذ ذاك تضطره الظروف أن يغير مجرى حيـاته كله . كان ابن عمـه الوالى قد عزل ، واستقر رأيه على أن يرحـل الى الآستانة ، وخرج هو أيضا فى ركاب الوالى المعزول . واستقر به المقـام فى الآسـتانة فترة من الزمان ، ولا يلبث أن ينشأ بينه وبين ابن عمه خـلاف ، لايذكر سببه الآن ، ولكنه يذكر أنه قد فرق بينهما فراقا أبديا .

وعاش وحيدا فى قلب المدينـة الكبيرة ، ولكنه استطاع أن يملأ وحدته بالانكباب على دراسة القانون ، وكان يحلم دائما بأن يحكم اقليما من الأقاليم العديدة التابعة لتركيا مثل ابن عمـه . وتدور الأيام مسرعة عجلة ، لايكاد يذكر منها الا يوم ولى على كردستان ، وكيف عاهد نفسه ذلك اليوم أن يكون دائما رحب الصدر عطوفا عادلا ، ثم كيف استقبله الناس بالترحاب هناك . يذكر كل ذلك ، ولكن حادثا واحـدا أحب أن يستبقيـه أمامه أطـول فترة ممكنـة ، يوم أراد أن يزور مصر ، فانتقـل من الاسكندرية الى القاهرة ، ثم عرج على الصعيد فى تنقلاته ، وهناك وجد الكرم العربى الأصيل فى أسرة خطـاب قريبـة عامر التى استضافته . (١) وأحب أن يصهر الى احـدى بناتهـا ، وكانت المصاهرة التى عوضت كل خسائره فى حياته السابقة .

كان يشعر ببعض الأسى من أجل زوجته التركيـة الأولى ،

(١) كثيرون من عائلة عامر قد دفنوا بمدافن قاسم أمين نتيجة لهذا النسب .

ولكنها كانت عقيما ، وأما هو فكان يتمنى اليوم الذى يصبح فيه أبا . وحين وصلت به الذكرى الى الأبوة ، ابتسم ابتسامة هادئة ، والتفت الى زوجته المصرية التى معه فى السفينة ، والتى تنتظر مولودهما الأول بين لحظة وأخرى . وانتشله من ذكرياته ضجيج الركاب ، فقد وصلت السفينة الى الاسكندرية . جاء الى مصر ليزور أسرة زوجته بالصعيد ، ولكن زوجته الآن لاتستطيع السفر ، فليبق اذن بضعة أيام بالاسكندرية ريثما تضع فيها زوجته مولودها .

كان شتاء الاسكندرية عاصفا ، فقد كان ذلك هو اليوم الأول من ديسمبر عام ١٨٦٣ ، وأقبل الليل والمطر لايكاد ينقطع، وصراخ زوجته لاينقطع كذلك من الحجرة المجاورة وكان يحاول جاهدا أن يجمع شتات ذهنه ليختار للمولود اسما . وبعد لحظات سمع بكاء الطفل ، وكان قد اختار له اسم قاسم -- قاسم محمد أمين . أتراه كان يفكر فى أن ولده سوف يقسم بين الحق والباطل بعد حين ؟

ونظر الى ولده فوجده شبيها به ، نفس الوجه المليح القسمات، والأنف المستقيم ، والعيون السوداء الواسعة ، حتى الحاجب الكثيف والشفتين الرقيقتين ، اللهم الا السمرة المصرية . ولكنه يبدو عصبيا بعض الشيء ، فهو لا يكاد يكف عن البكاء والحركة. ومرت أيام على ميلاد الطفل، رحل بعدها الأب ليزور أسرة زوجته، ولم يلبث أن عاد الى كردستان بعد ذلك . ومضى عامان ولد له بعدهما ولده ابراهيم من زوجته المصرية الطيبة ، التى حرصت كل

الحرص على سعادة زوجها فعاملت زوجته الأخرى معاملة الأخت الكريمة . ويبلغ كرمها حد عمل « الوصفات البلدية المصرية » لها لتنجب هى الأخرى .

وأراد محمد بك أمين أن يزور تركيا بلده فرحل اليها مع زوجتيه وابنيه ، وهناك طالت اقامته بعض الشيء ، وحدث ما لم يكن فى الحسبان . ثارت كردستان ، وكانت ثورة عنيفة أريقت فيها دماء كثيرة ، ولكن كردستان استطاعت فى النهاية أن تستقل . وسمع الفتى قاسم أن تصميم الشعوب ، بل تصميم الأفراد لا بد أن يكلل بالنجاح مادام مبنيا على الحق والاقتناع . ولما وصلت أنباء الثورة الى محمد بك أمين علا وجهه الأسى ، وقال بعض جلسائه : لو كنت هناك ما قامت ثورتهم ، وفيهم من يحبونك ويجلونك . وبقى الأب فى تركيا بعض الوقت ، وكان مر السنين قد أحاله شيخا وابناه ما يزالان صغيرين أكبرهما قاسم فى الثامنة من عمره ، والآخر لم يكن قد تجاوز السادسة وكرمت الرجل بلدته فمنحته بعض الاقطاعيات فى مصر — وكانت فى نواحى دمنهور حسب العقود التى تذكرها الأسرة — فرحل الى مصر ليقيم بها نهائيا .

عاد قاسم الى أحضان الشاطىء الصخوب الذى ولد على ضفافه . عاد وهو فى الثامنة من عمره هادئا هدأة البحر فى ظاهره صخوبا صخوبه فى المخبر ، مستمدا من جماله الاعجاب بالجمال . كانت أسرة الصبى على حظ كبير من النعمة ، ترفرف عليها السعادة ممثلة فى الحياة الوادعة ، وكان الأب عطوفا على هذا الصبى

الحساس .[1] واذا أسعفتنا قوانين الوراثة قلنا ان الهدوء ورثة من أمه المصرية ، وان سرعة الانفعال مما ورثه عن أبيه التركى .
واختار له أبوه أشهر مدرسة ابتدائية فى ذلك الوقت بالاسكندرية وهى مدرسة رأس التين . وكانت تقع بحى رأس التين الى جوار السراى ، وبها أبناء الأتراك وأثرياء المصريين . ولم يكد يتم دراسته بها ، حتى انتقل به أبوه الى القاهرة فقد استقر رأيه على الاقامة بها نهائيا ، واختار سكنا بالحلمية ، وهى اذ ذاك حى أرستقراطى .
والتحق قاسم أمين بالمدرسة التجهيزية — الخديوية الآن .. وفضل قاسم أن يلتحق بالقسم الفرنسى .

كان الفتى يعود الى بيته فيوزع جهوده بين دروسه وبين قراءة كتب الأدب الفرنسى والاجتماع والتاريخ فيحصل ضعف مايحصله زملاؤه فى المعارف العامة . لم يتاق العلم المدرسى كأنه أول العلم ومنتهاه ، ولم يجلس الى أساتذته ليتلقى المناهج التى يستظهرها الطلبة من أجل الامتحان ويقتصرون عليها ، بل كان واسع الاطلاع : جذبه الأدب لأن فى أعماقه نفسا شاعرة ، وجذبه التاريخ ليعرف ماضى بلده وحاضره ، وجذبته كتب الدين لأنه عاش فى عصر الجامعة الاسلامية ، وجذبه القانون وكتبه التى وجدها فى مكتبة أبيه ، ولكن العجيب أن تجذبه كتب الاجتماع فى ذلك الوقت المبكر .

كان قاسم مفرط الذكاء ، ولكنه لم يكن من المتفوقين فى حياته

---

(١) تراجم مصرية وغربية لهيكل ص ١٦٥ .

الدراسية هذه ، وكان بعض أساتذته وزملائه يعجبون من ذلك . ولكنه لم يكن يستطيع أن يقاوم رغبة ملحة فى توسيع دائرة ثقافته ، بالرغم من قسوة بعض أساتذته عليه ، فقد ذاق من عصيهم ما نفره منهم ، فكتب بعد حين يقول : « من مروري فى المدارس والمكاتب أحفظ تذكارا ثابتا لايزول أبدا — وهو الخوف من الضرب — فى الكتاب ضرب بالعصى على الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أى مكان آخر من الجسم ، وفى المدارس بالنيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام — كنت أذهب الى محل التعليم مصحوبا باضطراب فى العقل وخفقان فى القلب وارتعاش فى الجسم . » كان والده وحده الذى يشجعه على هذا الاتجاه ، وكأنما كان يلمح فى ولده دلائل نبوغ ففهمه أكثر مما فهمه أساتذته . حتى اذا انتهى من المرحلة الثانوية ، واتجه اتجاه والده القانونى ، وأوفت سنوات دراسته على الانتهاء ، ركز كل جهده لمحاضراته ، وتقدم لنيل اجازة الحقوق ، فكان أول الناجحين فى شهادة الليسانس عام ١٨٨١ . وتلك سن مبكرة فى ذلك الوقت .

لم يتحير الفتى بعد أن نال اجازة الحقوق ، فقد بعث اليه والده ، وعرض عليه أن يعمل بمكتب صديقه التركى مصطفى فهمى المحامى ، وكان قد حدثه فى ذلك من قبل . وقبل الفتى رغم علمه بجبروت مصطفى فهمى وقسوته المتناهية على كل المحيطين به ، وكراهيته لطغيانه ، واختلافه معه فى كثير من الأمور التى تتعلق بتدخل الأجانب فى شئون مصر . وأحب مصطفى فهمى الفتى الذكى قاسما ، وكان لايكاد يفارقه فى روحاته وغدواته حتى

حسبه الناس سكرتيره الخاص . ولكن فتانا لم يكن يبادله نفس الحب ، كان يحترمه لصلته بوالده ولعلمه ، ولكنه كان يبغض فيه قسوته ووطنيته الزائفة . وكان الفتى وطنيا متحمسا شأن الشباب المثقف فى ذلك الوقت . وقد كان واحدا من تلك الحلقة الذهبية التى أحاطت بجمال الدين الأفغانى ، وهناك التقى بمحمد عبده وسعد زغلول ومحمد فتحى زغلول وعبد الله النديم وأديب اسحق وغيرهم [1] . واستمع الطالب الفتى لأستاذه الشيخ يتحدث عن الوطنية وعن الجامعة الاسلامية وعن تنقية الدين من المفتريات، وتحمس لكل ذلك شأن تلاميذ جمال الدين — على صغر سنه بالنسبة لهم فى ذلك الوقت ، ولكنه أشرب تعاليمه واستقى من نفس الكأس التى شرب منها كل أعلام عصره . وكان العصر هو عصر اسماعيل ، وكان الجشع وجنون العظمة اللذان أصيب بهما اسماعيل تدع الذين حوله من بطانة يفكرون فى مصادر لاثرائه على حساب الشعب الجائع . واذا عرفنا أنه أنفق الملايين الضخمة من الجنيهات المصرية على ملذاته ، أدركنا حالة الشعب وبؤسه . وكان جمال الدين الأفغانى وتلاميذه يحملون المعاول لهدم طغيانه. يقول قاسم عن تلك الأيام السود : « فى عهد الاستبداد ، فى الوقت الذى كانت فيه كلمة من محمد على أو اسماعيل تكفى لاعدام من يغضب عليه أو ارساله الى البحر الأبيض ، فى تلك الأيام السود

(١) خاكى ص ٤٥ .

التى كانت فيها حياة الانسان وحريته وأمواله مهـددة بأنواع الخطر ، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه فى الوجود ضمانة تحميه ، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم الى صد ارادة الحاكم والتصريح بآرائهم » (١) . ولكن الغشاوة كانت قد بدأت تنقشع عن العيون يوم تدخلت المراقبة الثنائية فى شـئون مصر ، ويوم استبد الوزيران الأجنبيان فى شئون الدولة ، ويوم أخذ جمـال الدين وأتباعه يخطبون ويكتبون ، وفجـأة اكتشف الشعب نفسه وأحس ما فيه من قوة تستطيع أن توقف الظلـم وتطالب بالحقوق ، واستطاع أن يجبر اسماعيل على التنـازل فى يونيو عام ١٨٧٩ . وفرح الناس بتولية توفيق ، وتفتحت آمالهم فى حياة أفضل واصلاح جذرى لأمورهم ، فقد كان قبل توليتـه الخديوية يتودد الى جمال الدين ويؤكد له أنه كل آمله فى مصر لتحقيق برامج الاصلاح . ولكنه لم يكد يعتلى العرش حتى وجد نفسه بين قوتين متضاربتين تشده كل منهما اليهـا . قوة حـزب الاصلاح ، وعلى رأسه جمال الدين ، وقد أخذ أعضاؤه يحثون توفيق على الوفاء بعهوده الدستورية . وقوة القناصل الأوربيين تلك التى منعته من أن يتنـازل عن شىء من سلطته التى يريدون استغلالها باسمه . وأذعن توفيق آخر الأمر للقناصل ونقض عهده، ورفض أن يوقع قائمة الاصلاح التى تقدم بهـا رئيس الوزراء شريف باشا فلم يكن أمامه سوى الاستقالة . وأدخل القنصلان

---

(١) كلمات ص ٤٨ .

فى روع الخديوى أن حزب الاصلاح يمثل مصدر خطر عليه ، واتفقا معه على التخلص من رئيسه جمال الدين ، فقبض عليه فى أغسطس عام ١٨٧٩ ، ونفى من البلاد .

واهتاج الرأى العام بسبب نفى جمال الدين واستقالة شريف وتدخل القنصلين ، وتولية مصطفى رياض الوزارة ولا سيما بعد أن بدأ يحكم حكما استبداديا ويملأ السجون والمعتقلات بالوطنيين وفى الوقت نفسه يمثل دور الحمل الوديع أمام أصحاب النفوذ الأجنبى .

ووقفت مصر تحاول المقاومة من جديد . وبرز الجيش على مسرح الحياة ومن خلفه وقفت الأمة ، فكانت حركة أول فبراير عام١٨٨١ . وأحست الطبقات المتعلمة المتطلعة الىالحياة الدستورية أنها بجيشها قوية تستطيع بتوحيد الجهود أن تضع حدا عاجلا لشقاء البلاد . وأشار عبد الله النديم على عرابى أن يجمع تأييد الشعب فى صورة توكيل من الأمة له فى مطالبها . [(١)]

فطبع منشورا يقول فيه : « ان الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ، ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيها ، بما هو جار من بيع أراض كثيرة للأجانب ، ووجود كثير منهم فى ادارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة ، والسعى فى رفع الأحجار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الاسكندرية . وان سكوتنا واضرابنا

---

(١) عبد الله النديم لعلى الحديدى ص ١٤٠ ــ ١٤١ .

عن ذلك يعد من العجز والجبن والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا .
فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى ، وعزموا على منع كل مامن شأنه الاجحاف بحقوقكم ، وذلك لايتم الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ، ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة.
فالمطلوب منكم أن توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم فى ضمن هذه النشرة . والكتابة المقصودة بها أن أكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد — أحمد عرابى . » [1]

وجاءت الى القاهرة من كل ناحية وفود الأعيان والمشايخ والفلاحين ليبايعوا هذا الزعيم الفلاح الذى ظهر على مسرح السياسة ، وصدر نفسه للقيام بعمل بطولى كى يخلصهم من الظلم والاستبداد الذى أتلف حياتهم . وأصبح عرابى زعيم الأمة ، وانضم اليه الزعماء السياسيون وتلاقت الأهداف ، ووحد الأهالى والعسكريون كلمتهم فكونوا حزبا واحدا أطلق عليه اسم «الحزب الوطنى» . وكثيرا ما أطلق عليه اسم « حزب الفلاحين » .

وأحس الخديو ورياض رئيس الوزراء والأجانب خطر هذا الاتفاق . فبدأ كل منهم يفكر فى طريقة للخلاص من عرابى ورفاقه، ليقضى على الحركة الوطنية التى أخذت تنتشر بين أبناء البلاد ويتعالى هديرها حينا بعد حين . ولكن المؤامرات أخذت تنكشف واحدة بعد الأخرى فكانت تلهب مشاعر الوطنيين جميعا . وكان

---

(١) مصر للمصريين لسليم خليل نقاش ج ٤ ص ٩٠ .

عرابى قد قرر أن يسير على رأس الجيش الى قصر عابدين مطالبا بالاصلاح السياسى .

ولم تطل اقامة قاسم أمين بمصر ليشهد تطور المعركة التى أسرعت بها الأيام ، فقد آن له أن يرحل عن مصر الى فرنسا ليتم تثقيفه فى بعثة من تلك البعثات التى أثرت فى حياتنا وأخصبتها .

وفى فرنسا تفتحت عيناه على روعة مناظرها ونشاط حركتها وحياتها الاجتماعية . كانت أوربا فى ذلك الوقت مثلا أعلى لكل شرقى يسمع عن جهودها العلمية وحياتها الراقية وقوتها المادية. وكان قاسم يود أن يتعرف على الحياة فى فرنسا من قريب ، فقرر أن يزور المتاحف والآثار أول ما يزور ، يدفعه وجدانه المصرى ، ويفكر فى أعاجيب آثارنا الماضية ، فماذا بقى لنا فى حاضرنا ؟

يزور قصر ڤرساى مع أصدقائه ، فيتوه ناظراه بين مجموعة من القصور مشيدة وسط حدائق مترامية الأطراف ، مزينة بمجموعة ضخمة من التماثيل . ويرى لقصر ڤرساى واجهتين ، احداهما تطل على حديقة ، وأمامها فراغ مملوء بالأزهار والشجيرات والماء . ويسير برواق المرايا الذى يعد من روائع « لى بران » فيرى رسوم السقف تحكى فى أسلوب ملحمى سنوات الانتصار أيام لويس الرابع عشر .

ويزور بعد ذلك متحف اللوڤر ، فيتجول فى غرفة مشدوها ويستمع لشرح الدليل بشوق الملهوف واحساس الفنان ، ويعود ليكتب بعد ذلك فى مذكراته : « دخلنا قصر اللوڤر وكنا أربعة من المصريين ، لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى

العالم ، فبعد أن تجولنا فى غرفتين ، جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلا ، أنا اكتفيت بما رأيت وها أنا منتظركم هنا ، وقال الثانى أتبعكما لأنى أحب المشى وأعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى وسار معنا شاخصا أمامه لايلتفت الى اليمين ولا الى اليسار ، وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة المصاغ والحلى وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح (هذا ألطف مافى هذه الدار). وصلنا الى تمثال الهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع ، فسألت دليلنا ماذا تساوى هذه الصورة اذا عرضت للبيع . فقال : انها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم ، تساوى كل ما يملكه الانسان، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنا لها اذ لا حد لقيمتها . » (١)

ولم تكن تمر هذه المشاهد دون أن تترك أثرها فى هذه النفس المنفعلة ، فهو يرى رقيا فى كل الفنون من موسيقى وعمارة ونحت وتصوير ، ورأى تذوق الناس هناك للفن ، فعاد يقرن بين حب الفن وبين حب النظام والتنسيق والجمال كله بوجه عام . وارتد بطرفه الى مصر بلده الذى لم يغب عنه فى غربته ، فرأى تأخرا فى الفنون واعراضا عنها ، ورأى انحطاطا عاما ، فراح يقرن مرة أخرى بين الفن والرقى . « لعل أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية ، تأخرها فى الفنون الجميلة التمثيل والتصوير والموسيقى هذه الفنون ترمى جميعها على اختلاف موضوعها الى غاية واحدة،

---

(١) كلمات ٢٤/٢٥ .

هى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، فاهمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور . » (١)

ويعود قاسم الى قاعة المحاضرات بجامعة مونبلييه ، وهو أشد رغبة فى تعرف المزيد عن الحياة فى أوربا ، وهناك يجد زميلتــه « سلافا » تنظر الى قامته المعتدلة ، وسمرته الشرقية ، وملامحــه الجذابة ، وشاربه الأسود الكثيف ، وشعره الناعم المرســل . . نظرات اعجاب ، فلا يتردد فى سؤالها أن تصحبه الى المجتمعــات الفرنسية ، وتقبل هى فى سرور باد . وصحبته فتاته الى كثــير من الحفلات وتعرف الى كثير من الأسر ، فوجد حياة اجتماعية تختلف عن الحياة فى مصر ، وجد السفور بدل الحجاب ، والاختــلاط بدل العزلة ، والثقافة بدل الجهالة . ووجد الأسرة هناك تقــوم على أساس الاحساس والعاطفة لا على أساس الروابط الطبيعية من أبوة وبنوة (٢) . ولم يعجبه بتفكيره الشرقى فكرة الاختلاط وان سرته الحياة الأسرية ، واستوعبت ذاكرته ذلك كله .

أحب قاســم زميلتــه ما فى ذلك شك ، وامتــلأت مذكراته بأحاديث الحب وسيطرته على القلوب . وقاسم فتى فنــان ، اذا أحب فلابد أن يكون حبه رومانسيا يستأثر بقلبه وعقله جميعا . يخفق قلبه ويشرد ذهنه ، ولكنه ســعيد ، يحس أنه يســير فى طريق مفروش بالورود كما يقول « أكثر الناس لا يفهمون من الحب الا أنه تمتع يشبه أكلة لذيذة اذا حضرت أكلوها هنيئا واذا غابت

(١) كلمات ص ٢٤ .
(٢) فى أوقات الفراغ (راجع ترجمة قاسم أمين) .

استعاضوها بغيرها . والحقيقة أنه احساس عميق يستولى على النفس كلها ويجعلها محتاجة الى الاختلاط بنفس أخرى احتياجا ضروريا كاحتياج العليل الى الشمس ، والغريق الى الهواء . نار تلهب القلب لا يطفيها البعد ولا يبردها القرب بل يزيدهااشتعالا. ومرض يقاسى فيه العاشق عذابا يظهر باحتقان فى مخه وخفقان فى قلبه واضطراب فى أعصابه واختلال فى نظام حياته ، يظهر على الأخص فى الأكل وفى النوم وفى الشغل . ويجعله غير صالح لشيء سوى أنه يقضى أوقاته شاخصا الى صورة محبوبة مستغرقا فى عبادتها ، ذاكرا أوصافها وحركاتها واشارتها وكلماتها . نظرة فى عيون محبوبته تملأ قلبه فرحا ، وتجعله يتخيل أنه ماش فى طريق مفروش بالورد أو راكب سحابة وطائر فى المرتفعات العالية فوق قريب السماء . فى هذه اللحظة يكون سعيدا أسعد من أكبر ملوك الأرض ، فاذا انقضت عاد الى ما كان فيه من العذاب والألم .»[١]

وجد قاسم متنفسا لعواطفه السامية المكبوتة فى هذا الحب ، فسعد به . كانا يلتقيان فيسعده اللقاء حتى يحسد نفسه على هناءته ، ويفترقان فيحس لذة رومانسية ذاقها من قبله لامارتين الشاعر الذى أحبه قاسم . كان يقرأ فى مصر مقدمة ابن خلدون واحياء العلوم للغزالى والأغانى ، واليوم يقرأ مع زميلته حكم لارشفوكو وشعر لامارتين وفلسفة فنلون ورينان وأعمال ڤولتير وروسو وسبنسر وغيرهم ، ويتمنى لو تترجم أعمالهم الى العربية،

---

(١) كلمات ص ٥٦/٥٧ .

وأن تقوم بمصر حركة ترجمة هائلة تخصص لها الدولة اعتمادا [1].

ويتطلع قاسم أمين الى الحياة من حوله فيجد تقدما رائعا فى العلوم الرياضية والطبيعية ، والحركة الصناعية فى تطور هائل . وفكرة الحرية السياسية التى أتت بها الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر قد تطورت الى أيديولوچية جديدة يعتنقها المجتمع ، فأصبحت حرية اجتماعية ، حرية فى الصحافة ، وحقوقا للعامل ، والغاء للرق ، وانطلاقا للمرأة . وكان قد استقر رأى المفكرين والفلاسفة على أن لكل فرد شخصية خاصة يجب أن يحتفظ بها ، وان لكل فرد أن يحكم عقله ونفسه فيما يلقاه من نظم ومشاكل . وشاعت هذه الفردية فى أوربا وأمريكا منذ أوائل القرن الماضى .

وكانت محاولة الاشتراكيين منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، تهدف الى ادراك المساواة الاجتماعية والاقتصادية الى جانب المساواة السياسية التى اعترف بها القانون . فى سنة ١٨٢١ دافع سان سيمون عن حقوق العمال . وفى سنة ١٨٤٠ كتب پرودن كتابه « ما هى الملكية ؟ هى السرقة » وفى سنة ١٨٦٧ كتب كارل ماركس كتابه « رأس المال » . وهذه السلسلة من رجال الثورة الاشتراكية هى التى أظهرت الطبقة العاملة ، وحاولت أن تخلص أفرادها من براثن الرأسمالية الخبيثة . وانتهت أيضا بأن ألغى الرق ، وأصبح العبيد ينعمون بما ينعم به الأحرار . كشفت

---

(١) أسباب ونتائج ص ٤١ .

الطبقة العاملة خلال القرن التاسع عشر كما كشفت حقوق العبيد. وقد كشفت أيضا حقوق المرأة . فقد كانت هناك حركة نسائية فى فرنسا ، وكانت هناك حركة نسائية أخرى فى انجلترا وأمريكا ، وكانت بعض ولايات أمريكا تقوم بتجربة جديدة فى ذلك الوقت هى منح الحرية السياسية للنساء .

وكان « دارون » قد كتب « أصل الأنواع » ١٨٥٩ وتناول فيه تطور العضويات فى سلسلة تسير من جيل الى جيل ومن زمن الى زمن فى طريق الرقى المتدرج . وفكرة التطور هذه شغلت العلماء فى أوربا ، واعتنقها المثقفون فى النصف الثانى من القرن الماضى . عالج الأدباء نظرية الأنواع الأدبية وتطور فروع الأدب وعالج علماء الاجتماع التطور الاجتماعى بعد دراسة القبائل البدائية ومقارنتها بتطور الشعوب المترقية فى سلم المدنية (١) .

واستكشف الفلاسفة أن للانسان ارادة فى حياته ، وكل شئون الحياة بدأت ناقصة لكنها اكتملت بالارادة ، فاذا سلمت ارادة الانسان من آسر الشهوات فلابد من التطور الى الدرجة المرجوة من الكمال . كل هذه الأفكار تأثر بها مصرى يعيش فى قلب باريس ، فى قلب هذه النظريات . « الانسان أسير الشهوات ما دام حيا ، وانما تختلف شهواته باختلاف سنه ، فشهوة اللعب عند الطفل وشهوة الحب عند الشاب وشهوة الطمع عند رجل الأربعين ، وشهوة السلطة عند شيخ الستين جميعها شهوات تعرض صاحبها

---

(١) خاكى ص ٤٩ ــ ٥٢ .

للهفوات واقتراف الخطايا . متى وقع فيها أحدنا يجب عليـه أن لايترك نفسه الى تصرفها ولا يستصعب الخلاص منها ، ولا ييأس من نفسه بل عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض علته . عليـه أن يوجه ارادته الى مصارعتها والتغلب عليها . عليه أن يحول فكره عن الأمس الذى كان فيه قبيحا ، وينظر الى غده الذى يكون فيه جميلاً . لا يطلب الكمال من المرء وانما يطلب منه أن يكون فى كل يوم أحسن منه فى اليوم الذى مضى . » [١] وقد ترددت كلمـة الكمال هذه عشرات المرات فيما كتبه قاسم أمين .

وعاد قاسم بذاكرته الى مصر التى لم يغفل عنها أبدا ، فتذكر الفقر والظلم والاستبداد هنا ، وارتد الى واقعه فى فرنسا فوجد الغنى والعدالة والحرية . « الاسـتبداد أصـل كل فسـاد فى الأخلاق » هو الذى حرمنا ما يتمتع به الانسان فى الغرب . لقد كان يعتقد حينما كان فى مصر أن بلده لابأس به من حيث الغنى ، وكان يسمع العامة فى مصر يقولون (مصر أم الدنيا) فلا يعترض ، أما اليوم « فاذا قورن بينها وبين مدن الدول الأخرى مثل لندن وباريس وهامبرج وبروكسل وأمثالها فالأصح أن تسمى (خادمة الدنيا) لأنها لو وضعت فى جانب هاته المدن لظهرت فى حالة فقر محزنة كما لو وضعت سائلة مكدية ذات أطمار بالية قذرة فى جانب عروس متحلية بأفخر الملابس وأثمن الحلى وأبهاها . وفى الحقيقة ان مصر بلاد فقيرة جدا نصف أهلها وهم الفلاحون يعيشون بالشىء

---

(١) كلمات ص ١٦/١٧ .

التافه الذى يقى الحى من الموت جوعا . والنصف الآخر ينقسم قسمين . الأول يشمل التجار والصناع وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه انه مالى ملىّ . والآخر يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار نوعا ما فى معيشتهم. ولكن أغلبهم ان حيل بينهم وبين مرتب المعاش شهرا واحدا وقعوا فى المعسرة والضنك الشديد . أما أرباب الأطيان من الذوات والعمد والمشايخ والأعيان فى البلاد فحالهم كحال (رابيل) المؤلف الفرنساوى المشهور اذ قال فى وصيته : انى لا أملك شيئا وعلىّ ديون كثيرة وأوصى ببقية ما أملك للفقراء » [1] .

ومن هنا ترددت كلمة الحرية فى كتاباته مرات فهى عنده « قاعدة ترقى النوع الانسانى ومعراجه الى السعادة . »

فى هذا الوسط اضطرب قاسم المسلم الشرقى، ولكنه بعد حين استروح نفحة من آى الذكر الحكيم وقرأ قوله تعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فأحس راحة نفسية عميقة ، وهو يوفق بين دينه وبين ما اعتنقه من نظريات فلسفية واجتماعية . وعلق على الآية قائلا : « لم يعتقد المسلم أن عوائده لا تتغير ولا تتبدل ، وأنه يلزمه أن يحافظ عليها الى الأبد ؟ ولم يجر على هذا الاعتقاد فى عمله مع انه هو وعوائده جزء من الكون الواقع تحت حكم التغيير والتبديل فى كل آن ؟ أيقدر المسلم على مخالفة سنة الله فى خلقه اذ جعل التغيير شرط الحياة والتقدم، والوقفة والجمود مقترنين بالموت والتأخر ؟ . »

---

(١) أسباب ونتائج ص ٢١/٢٢ .

كانت أفكار الحرية والعدالة والمساواة والتقدم تعيش داخل أوربا ، فهى بضاعة محلية لا تصدر الى الخارج أبدا . ففى الخارج التكالب على منابع الثروة وارسال الجيوش للابادة . استولت فرنسا على تونس عام ١٨٨١ ، وها هى ذى انجلترا تقاتل لتنشب أنيابها المسعورة فى جسم مصر . ويتتبع قاسم أنباء القتال الدائرة فى بلده . يقرأ فى الصحف الفرنسية عن مذبحة الاسكندرية ، وعن انسحاب الأسطول الفرنسى من مياه الاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ . ثم يعود فيقرأ أن المسيو فريسنيه قد طلب الى مجلس النواب اعتمادا ماليا لحماية قناة السويس فأبى المجلس أن يصغى لأدلته واستقال فى أول أغسطس من نفس السنة تحت تأثير الرأى العام .[1] وتتتابع الأنباء عن مقاومة جيش عرابى وهزيمة الانجليز فى كفر الدوار وانضمام المصريين جميعا لجيش المقاومة فيطمئن قلبه ، ولكن الأسى يستبد به بعد حين ، حين يرفض عرابى سد قناة السويس مقتنعا برأى ديلسبس ، فقد بدأ الانجليز هجومهم من الشرق . ثم يقرأ عن خديعة بريطانيا للسلطان العثمانى ، وظفرها بمنشوره عن عصيان عرابى . وتتوالى الأنباء مسرعة عجلة عن خيانات بعض العربان بل بعض باشوات مصر ، وارتمائهم فى أحضان الاستعمار وبيعهم ذممهم بثمن بخس . وأخيرا تنتهى موقعة التل الكبير بانتصار سهل لم تكن تحلم به بريطانيا ، انتصار الخيانة على الشجاعة ، وانتصار الظلم على الحق . وهو فى الوقت

---

(١) تاريخ المسألة المصرية ص ٢٣٤ .

نفسه انتصار للحضارة الغربية على المدنية الشرقية الموروثة . كان موقفه عسيرا هناك ، فما الذى يستطيعه قاسم ؟ لقد ضربت انجلترا عرض الحائط بالقانون الدولى ، فهل يستطيع القانون وحده أن يصد غاصبا أو يرد حقا ؟ وهل تستطيع العدالة أن تقيم نفسها دون سند من بناء قوى مترابط ؟

ولم يطل تفكيره سنين طويلة ، فقد اقتلعته الأحداث نفسها ، ووجهته الى الطريق . كان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده قد تواعدا على أن يلتقيا فى باريس ، لمواصلة جهودهما من أجل تكتل المسلمين ، ومن أجل محاربة الاستعمار فى مصر . ولم يضيعا وقتا ، فبدأ تأليف جمعية العروة الوثقى السياسية . والتقى قاسم أمين بهما فى فرنسا ، واتخذه محمد عبده مترجما له على أن يعلمه اللغة الفرنسية بعد ذلك . وانضم قاسم أمين الى جمعية العروة الوثقى ، ورأى فيها متنفسا لأشجانه وآماله .

نصت اللائحة السرية لجمعية العروة الوثقى على أكثر من ثلاثين بندا (١) كان أهمها البنود الثلاثة الآتية :

١ — النظر فى حال المسلمين لهذا الوقت أخذاً من أقوالهم وأعمالهم للوقوف على احساسهم الدينى ومقدار الداعية الاعتقادية ، ليعلم الداء ويعالج بالدواء اللائق به .

٢ — العمل على الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) .

٣ — فى كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط

---

(١) تاريخ الشيخ محمد عبده ج ١ ص ٢٨٤/٢٨٧ .

حتى يكون عند كل واحد أن مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساويا . العمل بذل المال والروح ، والأول أقرب الدليلين .

وكان عليه أن يقسم قسما قبل ارتباطه بالجمعية يقـول فيه : « أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم الا ما قدمه الدين ، ولا أؤخر الا ما أخره الدين ، ولا آسعى قدما واحدة أتوهم فيها ضررا يعود على الدين جزئيا كان أو كليا ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه ، وعلىّ عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الاسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمـه من العارفين ، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه امكانى الوجودى . وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الأمل ، وتأييـد القائم بأمره ، والناشر لواء دينه ، آمين »[1] .

وفى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ صدر العدد الأول من جريدة العروة الوثقى ، وكانت الأفكار كلها للسيد جمـال الدين الأفغـانى ، والأسلوب للشيخ محمد عبده . وتحدث العدد الأول عن ضعف المسـلمين لافتراق الكلمة ، وعن امتصـاص الدول الأجنبيـة والمستبدين لأموال الشعوب واستنزاف ثرواتهم مثلما حدث فى مصر ، وهنا فكر المسلمون والمثقفون منهم فى اصـدار هـذه الصحيفة بمدينة باريس .

---

(١) تاريخ الشيخ محمد عبده جـ ١ ص ٢٨٧ .

وتتحدث الصحيفة بعد ذلك عن وجوب التكتل لدفع الشر وكبت الأطماع وتصفية كل قاعدة أجنبية . وتتتابع الأعداد تتحدث عن عصبية الافرنج لدينهم في الوقت الذى يتخذون فيه عصبية المسلمين الدينية حجة للتدخل الأجنبى والاعتداء الغاشم ، وتناولت الصراع القائم بين الدول الغربية من أجل تلك الوليمة الدسمة وهى الشرق الاسلامى ، ونحن عن كل ذلك فى غفلة . ثم تناولت الجريدة بعد ذلك فى أعداد أخرى سياسة الانجليز فى مصر والسودان لاحراج حكومتهم وتبصرة المسلمين والمهتمين بشئون الشرق . وتناولت الجريدة فى أعداد تالية ماضى المسلمين المجيد وحاضرهم التعس وأهابت بهم ألا يقفوا مكتوفى الأيدى أمام الأحداث الجارية .

قرأ قاسم أمين كل أعداد العروة الوثقى وتأثر بها تأثرا بالغا، دفعه الى أن يكتب بعد حين بمثل هذه الروح الدفاقة وهو ينظر الى مصر فيجدها ساكنة هادئة كأنها عالم من كوكب آخر كما يقول:

« وجهت كل أمم أوربا التفاتها الى المسائل الاقتصادية واعتناءها بها كل الاعتناء . فأنشأت نظارة للتجارة وللصناعة وللمستعمرات وأكثرت من انشاء المدارس التجارية والصناعية وتهافتت على وسائل الاستعمار . وصارت كل أمة تزاحم الأخرى فى هذا السبيل . والتنافس بينها فيه شديد بالغ حد الكفاح والجهاد ... ونحن معاشر المصريين لاشغل لنا تلقاء كل ذلك الا الاشراف على ميدان هذا التنافس للتفرج على المتنافسين والاعجاب بهذه الأمة والاستهزاء بتلك ، كأننا عالم كوكب آخر

حضرنا الى هذه الدنيا للتفرج على أهليها أياما معدودة ثم العودة الى أوطاننا بعد ذلك بسلام . والحقيقة أننا نحن موضوع تنازعهن وسبب مشاكلهن . نحن اللقمة الدسمة التى يريد كل منهـا أن يبتلعها فى جوفه . » (١)

وتستبد بقاسم عصبيته الاسلامية ، وهو يرى الناس أمامه يكبرون دينهم ويعتقدون أنه أساس مدنيتهم وعنوانهـا ، ونحن مجردون عن كل الأحاسيس الرفيعة التى تحلى بها ديننا القيم ، حتى رجال الدين قد يحفظون نصوصـا ومتونا ولا يطبقـون تعاليمها تطبيقا عمليا فى حياتهم وحياتنا . ويتأثر بمقالات العـروة الوثقى عن الروح الصليبية التى يعامل بهـا الغـرب الشرق ، فيسجل أحاسيسه الفياضة بالأسى التى ستكون بعـد ذلك مادة لمقالاته الاصلاحية : « نحن واأسفاه نكاد نكون مجـردين عن الاحساس الدينى الذى يودع فى الشخص تلك الكمالات ويربيها ... وعلى العكس من ذلك نرى الأوربيين ، فانهم وان كانوا أقل من المسلمين معرفة بأمور دينهم ولم يعتادوا الاشتغال بدراستـه مثلنا ، لكنهم على الدوام يظهرون فى أقوالهم وأعمالهم احتراما شديدا لكل ما يختص بدينهم ، واحترازا عظيما عن كل ما يمسه ولو أقل مساس . وكلهم يرونه عنوان المدنيـة ومنبع الآداب ، والوسيلة الوحيدة لتهذيب النفوس . وربما كان أقلهم اعتقـادا فى صحته أكثرهم احساسا بمحبته واحتراما له » (٢) .

---

(١) أسباب ونتائج ص ٢٣ .
(٢) أسباب ونتائج ص ٥٧ .

ولم تطل مدة صدور جريدة العروة الوثقى ، فقد استطاع الاستعمار البريطانى أن يحاربها فى باريس ، وأن يغلق أمامها كل منفذ يصل بينها وبين القراء ، وصدر آخر أعدادها فى ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ . وآن بعد ذلك لأستاذيه أن يرحلا عن فرنسا ليواصلا الجهاد الذى لا يملانه فى مكان آخر . وبقى قاسم فى فرنسا ، ولم يكن بينه وبين امتحانه النهائى سوى شهور ، انقطع فيها للدراسته . وكانت النتيجة النهائية نصرا له ولكل مصرى ، كان أبرز المتفوقين وحصل على ميدالية ذهبية ، فطلب اليه أستاذه « لرنود » (١) أن يعمل معه بضعة شهور يكتسب فيها خبرات عملية ، ووافق قاسم أمين .

وفى صيف عام ١٨٨٥ آن لقاسم أمين أيضا أن يعود الى وطنه بعد أن اكتسب من الخبرات مالم يهيأ لكثيرين غيره ، فودع فتاته ورحل الى مصر ، والذكريات تتزاحم فى خاطره عن حياته فى فرنسا وعن الحضارة الغربية ، وعن مصر الثائرة يوم تركها ليركب البحر الى عالم آخر .

---

(١) فى أوقات الفراغ ص ١٢٥ .

الفصل الثالث

قاسم فى سلك القضاء

عاد قاسم ليعمل فى سلك القضاء وكان ذلك فى أول ديسمبر عام ١٨٨٥ . كان يوم عيد ميلاده الثانى والعشرين . جلس الشاب قاسم يسترجع أعوامه الماضية ويفكر فى المستقبل ، وفى الطريق الذى يبدأ منه . لقد تفرق حـزب الاصلاح ، رحـل زعيمـه جمال الدين ، وأستاذه محمد عبده ، واختفى زميله عبد الله النديم، وخفت صوت مصر ، ولم يعد هناك بد من أن يبدأ كل مثقف من طريق ، حتى تلتقى الطرق فى ميدان تتجمع فيه دروب الاصلاح . وليس أمامه الا ساحة القضاء نفسها يبدأ منها .

ويتصل عن قريب بالفضيلة والرذيلة فى صراعهما الأبدى من أجل سنة الحياة ، من أجل البقاء للأصلح . ويحس أن رجـالا كثيرين شرفاء ، قد سقطوا فى الرذيلة ، وأن رجالا أقوياء يضعفون، مثلما ضعف بعض زعماء مصر بعد الاحتلال واتهم بعضهم بعضا ، فيكتب فى مذكراته : « الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الانسان فى جميع أدوار حياته ، فتارة تخضع للأولى وتارة تتغلب عليها الثانية ، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم

يكون آمنا من السقوط يوما فى الرذيلة كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة الا وفيه استعداد لأن يأتى يوما بأفضل الأعمال. وحقيقة الأمر أن أخلاق الانسان ليست شيئا يتم دفعة واحــدة وليس لها حد تقف عنده ، انما هى فى تحليل وتركيب ، فى تكون مستمر يعتريها الانحلال زمنا وتعود بعده الى التماسك »[1] .

وتسير الحياة بقاسم فيموت والده بعد عودته ببضعة شهور ، وينقل هو الى قسم قضايا الحكومة فى ٢٢ سبتمبر عام ١٨٨٧ . وكان معظم موظفى أقلام قضايا الحكومة من الأجانب ، فأدخل قاسم امين وفتحى زغلول بعــد ذلك ومصطفى فتحى فى أقلام القضايا فى أوقات متقاربة . ويقول صديقه ابراهيم الهلباوى : « وقد تعرفت بقاسم فى ابان وظيفته تلك . فقد كنت أترافع أمام محكمة بنها فى قضية ضد الحكومة التى كان يمثلها هو . وكنت أتوقع — وقاسم خصمى فى هذه القضية — أن يشعر أحدنا بشىء من الوحشة لاختلاف الجهة التى تخرج كل منها (الأزهر والمدارس الأوربية) ولكنى اذ سمعته يترافع ويدلى بحجة لمصلحة الحكومة ضد موكلى شعرت بقلبى يدق اعجابا بحسن أسلوب هذا الخصم ، وحسن تقديره وعظيم كفايته ، فاتصلت أرواحنا من تلك الساعة وقامت بيننا صداقة كأنها ترجع الى عهد الطفولة »[2] .

وارتقى فى سلك النيابة حتى كان رئيس نيابة بنى سويف فى

(١) كلمات ص ١٦ .

(٢) الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية ج ١ (راجع ترجمة قاسم أمين ٤٨٠ ـ ٤٨٦) .

يونيو سنة ١٨٨٩ . وكان أول عمل قام به حين ولى هذا المنصب أن أطلق سراح كثير من المتهمين الذين سجنتهم الادارة عدوانا . فحرية الأشخاص صورة مصغرة لحرية البلاد ولمبدأ الحرية العامة الذى اعتنقه من قبل . لقد كان عدوا للاستبداد ممثلا فى شخصية الخديو ، ورأى جناية الاستبداد على البلاد ، وهو اليوم عـدو للاستبداد الممثل فى كيان الاستعمار ، فليكن عاشقا للحرية منفذا لها بقدر ما يستطيع وما يطيق .

بقى قاسم فى بنى سويف سنتين ، انتقل بعـدهما فى نفس المنصب الى طنطا وهناك ذاعت بعض مواهبه ، حتى وصلت الى عبد الله النديم ، الرجل الوحيد من العرابيين المحكوم عليه بالاعدام ، وكان مختفيا بمديرية الغربية منذ بداية الاحتلال المشئوم . فقدم نفسه لقاسم ليتصرف فى الأمر بما تقتضيه حكمته . لابد أن يثير النديم فى مشاعر قاسم الزمالة فى الوطنية وفى الفكر ، ولكن ماذا يستطيع قاسم أن يصنع ؛ انه يطبق القانون ، والنديم محكوم عليه بالاعدام ؟ هل يتنكر لمبادئه فيقيده ويأخذ منه الاعتراف ولو عن طريق القسوة ؟ لا ، لم يفعل ذلك قاسم ، بل قام له من كرسيه وأحسن معاملته ، وأمر بأن ينظف مكانه فى السجن ، ويضاء أيضا ، وأن يمكن من شرب القهوة والدخان كما يشاء ، وأمده بالمال من عنده [1] . وكان التحقيق متجها الى معرفة من آواه ، وهل كانوا يعرفونه أو لا يعرفونه ؟ ويروى النديم ما جرى بينه وبين قاسم

---

(١) زعماء الاصلاح لأحمد أمين ص ٢٣٣ .

أمين فيقول : « أنت حر فى كلامك فقل ما شئت . فلم يسمع منى أن أحدا من الناس آوانى على أنى عبد الله النديم المطلوب للحكومة، بل قلت : انى أدخل البيت بدعوى أدعيها وأخرج خوفا من تفرس صاحب البيت فىّ وقبضه علىّ » (١) . وسافر قاسم الى القاهرة ليلتمس له العفو اكتفاء بما ذاقه مدة السنوات التسع التى اختفاها، وكان رياض رئيس الوزراء ووزير الداخلية . وكانت الصحف قد بدأت حملة كبيرة من أجل الافراج عن النديم . ولم يرجع قاسم لطنطا الا بعد أن صدر قرار مجلس الوزراء فى ١٢ أكتوبر عام ١٨٩١ بالافراج عنه وابعاده الى الشام ومنحه مائة وخمسين جنيها ليستعين بها فى منفاه . بقى قاسم فى طنطا عاما واحدا قام فيه بهذا العمل الوطنى ، وكأنما كانت الأقدار قد هيأته للنديم ليعينه على الخلاص. وفى ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢ عين قاسم أمين وسعد زغلول ويحيى ابراهيم نواب قضاة بمحكمة الاستئناف بأمر واحد . ولم يحل حولان حتى كان قاسم وسعد مستشارين . وهكذا بلغ فى الحادية والثلاثين ما لم يبلغه الا الأقلون من رجال القضاء فى الخمسين .

وحياته فى هذه الفترة عريضة خصبة . فقد رأيناه من قبل يتحدث عن الفضيلة والرذيلة حديث المحلل النفسى الباحث . وفى مذكراته نعثر على نص آخر عن الخطيئة والمسئولية . فهل المخطىء مسئول أو غير مسئول ؟ وما هى درجة مسئوليته ؟ تعرض هذه الأسئلة للقاضى قاسم أمين ، فيجيب عنها بسماحة نفس وحب للعفو

---

(١) الأستاذ ص ٨ .

والغفران جبل عليهما في معاملاته الخاصة : « مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها . لكن حلها يكاد يكون محالا اذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التى تتركب منها الذات الانسانية بوجهيها الأدبى والمادى . والقليل الذى يعلمه من ذلك يبين أن سلطة الارادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل الى تقديره عقلنا . وكل تاريخ الانسان فى الماضى يدل على أنه ان لم يكن متولدا عن الحيوان المفترس مباشرة فهو مشابه له فى أطماعه وشره وشهواته . خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم . خلق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضا مؤقتا .

« فالخطيئة هى الشىء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه . هى الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان . هى الميراث الذى تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة ، وذاقا ثمرتها التى يتخيل لى أنها كانت ألذ من كل ما أبيح لهما . من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما وانتقلت منهما الى ذريتهما جيلا بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذى تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقا الى الفضيلة ، العاجزة عن الحصول على اليسير منها الا بمقاساة أصعب المجهودات ، حتى هذا النزر القليل لا سبيل الى بلوغه الا بتمرين طويل يتخلله حتما سقوط متكرر فى الخطيئة يكون منه الدرس المفيد لاتقائه فى المستقبل . وأخيرا فان العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لاصلاح

المذنب فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين اذا هى عولجت »[١] .

تلك عقلية المصلح ولا شك ، وأحكامه القضائية لها مغزاها الاصلاحى فى كثير من الأحيان . تعرض عليه قضية شخص زور فى محضر البوليس بأن غير اسمه حتى يفلت من التهمة الموجهة اليه ، ووقع بالاسم المستعار أو المزور على المحضر . فماذا كان حكم قاسم ، لنستمع اليه فى مجلة القضاء : « مجرد تغيير الاســم فى محضر البوليس أو قاضى تحقيق سواء كان ذلك مصحوبا بامضاء أو لم يكن مصحوبا ، هو فعل لا يعاقب عليه القانون لأنه كذب اخترعه المتهم للدفاع عن نفسه ، وان الأمر يكون بخلاف ذلك ، اذا كان تغيير الاسم مقصودا فى حد ذاته ، وكان هو الغاية ، وكان ثابتا من أحوال الدعوى أن المتهم غير اسمه ليوقع الشخص الذى تسمى باسمه فى المسئولية »[٢] . ثم كتب فى مذكراته « معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر » .

ومن مثل هذه الأحكام قال محمد حسين هيكل عن قاسم انه كان لا يتقيد بحرفية القانون اذا لم يصادف هــذا النص مكان الاقتناع منه . وهو فى هذا ككثير من القضاة والمفكرين الذين أحدثوا بأحكامهم جديدا فى العدالة وفى التشريع ، وكانت محاولة فهم دوافع المتهم عنده أهم من تطبيق حرفية القانون[٣] .

(١) كلمات ص ٩ ــ ١٠ .
(٢) مجلة القضاء السنة الثانية ص ٢٨٦ .
(٣) تراجم مصرية وغربية ص ١٦٧ .

ولم يكن هناك « مجلس دولة » فى تلك الأيام ، ليرد للموظفين حقوقهم اذا ما استبدت بهم الحكومة ، ولكن قاسما أقام من نفسه حكما عدلا ينصف كل مغبون من شطط القرارات الظالمة التى قد تصدرها وزارة من الوزارات ضد أحد موظفيها . فها هى ذى نظارة المالية ترفع دعوى ضد ورثة أحد موظفيها تطالبهم بسبلغ مائتين وسبعين جنيها قيمة عجز ظهر فى أحد مخـازنها كان تحت ادارة مورثهم . ويصدر الحكم فيه معنى الانصاف والرحمـة بورثة الموظف الصغير .

« حيث ان مخزن الآلات المذكور لم يجرد جميعه لا فى حياة المتوفى ولا بعد وفاته ، وانما جردت بعض الأصناف الموجـودة بالمخزن ، وهذا الجرد الجزئى لا يكفى لاظهار العجز ، اذ أن من الجائز أن الأصناف المدعى بعجزها توجد ضمن الأشـياء التى لم تجرد .

« وحيث انه فضلا عن ذلك فان هذا الجرد الجزئى لم يحصل بحضور المخزنجى أو ورثته حتى ولم يحصل الا بعد تسليم المخزن الى مخزنجى آخر بمدة . ولذلك لا يسوغ التعديل عليه والحكم لنظارة المالية بشىء من طلباتها » (١) .

وهناك أحكام أخرى أصدرها القاضى قاسم أمين فى مثل هذا الموضوع . منها أن أحد موظفى وزارة الأوقاف رفع دعوى لضم مدة خدمة سابقة فى المعاش رفضت الوزارة أن تضمها ، فحكم

---

(١) مجلة الحقوق ١٥ ابريل ١٨٩٣ .

لصالح الموظف ضد الوزارة [1] . ومنها أن قانون المعاشات فى ذلك الوقت كان يمنح معاشا للوارث الذكر حتى الخامسة عشرة من عمره . وعرضت أمام قاسم قضية فتى ضرير تجاوز السن القانونية ولكنه لا يستطيع أن يكسب معاشه فيحكم له قاسم باستمرار المعاش[2] .

كان قاسم دائما نصير الضعيف ضد القوى ما دام الحق فى جانب الأول ، وكأنما كان يتمثل له بلده يستبد به الاحتلال دون سند من قانون أو وجه من وجوه الحق . وتركزت أمام ناظريه دائرة اصلاحه فى مجال القضاء ، فلم تتخلف سنته أبدا فى الحكم للضعيف على القوى حتى اذا كان ذلك القوى صديقا له . كان على ذو الفقار القاضى بمحكمة الاستئناف زميله وصديقه ، وكان قد رفع دعوى ضد احدى المواطنات الفقيرات بسبب النزاع حول قطعة أرض ، ويجد قاسم الحق فى جانب المواطنة ضد زميله ، فلا يتردد فى أن ينصرها بقوة القانون[3] .

وميل قاسم للرأفة وللتسامح يتمثل فى كثير من أحكامه ، وكأنما كان يضع نصب عينيه قوله عليه السلام « ادرءوا الحدود بالشبهات » . كانت النيابة تتهم أحد المواطنين بجريمة القذف وتطلب عقابا قاسيا له . والفرق بين القذف والشكوى قد يكون دقيقا غير ملموس ، ولكن حكم قاسم يوضح كل ذلك ، ويبرىء

(١) مجلة الحقوق ١٠ يونية ١٨٩٣ .
(٢) المجموعة الرسمية للمحاكم الأهلية أول مايو سنة ١٩٠٨ .
(٣) مجلة الحقوق السنة الخامسة عشرة ص ١٣٣ .

المتهم حين يقول : « لا تقوم جريمة القذف الا بالنشر بواسطة احدى الطرق المبينة بالقانون ، ولا يكون النشر بمجرد الكتابة أو الطبع فقط ، بل يجب أن يقرن بالتوزيع ، ولا يعتبر التوزيع قانونيا ، الا اذا كان بقصد نشر القذف نشرا عاما يطلع عليه أى انسان كان ، وعليه فان توزيع الانسان نسخا من نشرة محتوية أمورا معيبة فى حق شخص آخر على رؤساء مصالح يعتقد أنهم مختصون بنظر تلك الأمور ، لا يعتبر توزيعا حقيقيا لنشر القذف سواء كان أولئك الموزع عليهم مختصين حقيقة بنظر تلك الأمور أو غير مختصين . ولا يعتبر ذلك كله أيضا من قبيل الاخبار الكاذب بسوء القصد المعاقب عليه قانونا الا اذا حققته جهة الاختصاص وظهر لها كذبه وسوء قصد مبلغه » (١) .

ويعلق قاسم على ذلك قائلا فى مذكراته : « ما وضع القانون لازادة المجرمين مجرما ، وانما لانقاصهم مجرما ، واغلاق باب زنزانة » .

تلك بذور المصلح نجدها منذ ذلك الوقت فى أحكام قاسم ، تصور وعيا بجوهر القانون لا بحرفيته ، وتصور فهما لنفسية المخطىء ، وتصور بعد ذلك روحا سمحة مقتنعة بأن العفو خير وسيلة للاصلاح .

ولقاسم وقفة عند قضاء الوقف ترسم نظرته له . فهو يوافق دائما على وضع اليد على العين الموقوفة ما دام واضع اليد سوف

(١) الحقوق ١٧ مارس السنة التاسعة .

يستخدمها لصالح المجتمع[1] . ولكن أليس الوقف أيضا من أجل صالح المجتمع ؟ نستمع لرأى قاسم فى هـذا الموضوع يوضح نظرته : « اذا نظرنا الى القصد الأول من الوقف من حيث هو ، وجدناه من أجمل مزايا الشريعة الاسلامية . لأن تجرد الشخص من أملاكه وتخصيصها فى حياته أو بعد موته لعمل خيرى ، هو أمر لا يصدر الا عن نفس طيبة وعواطف شريفة وأميال بارة وفكر عال...

« وبهذا المعنى فهم القصد من الوقف أزمانا طويلة . فالمساجد والتكايا والكتاتيب والمارستانات والمرتبات التى تعطى لطلبة العلم والفقراء ، ونرى آثارها العديدة أو معالمها القائمة منتشرة فى البلاد طولا وعرضا تشهد لأجدادنا (أولئك الصالحين المحسنين المتبصرين) أنهم كانوا رجالا يعملون بعقل وروية لاصلاح شئون بلادهم ومنافع أمتهم .

« أما الآن فقد صار الوقف من الأعمال الاحتياطية التى يتخذها الأغنياء ضد أولادهم . فالواقف صار أول قصد له أن يحبس المال لا لفعل الخير بل ليحول بين ورثته وبين تبديده . وهو ان كان يترك منفعته بعد انقضاء ذريته الى محل خيرى فذلك لأنه يرى من المناسب أو الواجب عليه أن يجعل عمله مطابقا فى الشكل لأحكام الوقف . ففكرة الخير من عمله آتية على سبيل اللزوم والتبعية . وما القصد الأول كما قدمنا الا أن يغل أيدى أولاده الذين يعلم أنهم أغنياء جاهلون وفسقة مبذرون . وكأنه لا يدرى أن الأبناء

(١) انظر مجلة الحقوق ١٠ يولية ١٨٩٧ .

اذا كانوا على هذه الصفة ، فكل احتياط معهم يذهب هباء منثورا » (١) .

ومن أجل ذلك هدد باستقالته من الجمعية الخيرية الاسلامية حين أراد أغلبية الأعضاء وقف كل ما تملك الجمعية على أغراضها. وتراجع الجميع أمام اصراره على أن الوقف فى اجراءاته المعقدة معطل لكل تصرف (٢) .

ولم تكن أحكام قاسم مقتضبة ، بمعنى أنها تقتصر على نص الحكم ، فقد كانت تطول حتى تخرج فى صفحات عدة . وكان ذلك يرجع الى سببين . الأول أنه كان دقيقا دقة بالغة فى حديثه وفى كتابته ، يحيط بالموضوع ويناقش أفكاره فكرة فكرة ، حتى يطمئن هو أولا ويطمئن أصحاب القضايا الى عدالة الحكم . وقد عرف عنه أنه كان حييا ، يفكر قبل أن يتكلم حتى لا يجرح أحد سامعيه ، ولو عن غير قصد . أما السبب الثانى ، فقد كان قاسم فى أحكامه قاضيا ومصلحا كما قلنا . وكثيرا ما وجدنا دروس المصلح فى أحكامه .

عرضت أمامه قضية اتهم فيها ابن بتهديد والده بالقتل عن طريق خطاب أرسله اليه . وحكمت عليه محكمة أول درجة بالسجن ، فاستأنف الحكم ونظر الاستئناف أمام دائرة قاسم ، فكان حكمه درسا بليغا فى التربية . فيه تحليل لنفسية المتهم ، وفيه قلب المصلح الخفاق ، وفيه قبل ذلك موعظة بالغة للأبوة

(١) أسباب ونتائج ص ٣٨ ــ ٣٩ .
(٢) الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية ج ١ ص ٤٨٠ ــ ٤٨٦ .

القاسية .. « حيث انه ثابت من أوراق الدعوى أن المتهم اكتنفه أبوه فشب على ما اختاره له ووجهه اليه ، فلم يشأ أن يثقف عقله بالتعليم ولا أن يهذبه بالتأديب بل جعله حقيقة قطعة منه ، وسرا من أسراره الشخصية ، فصرفه الى ما ارتضاه لنفسه ، حيث قصر معرفته على ما يستفيده بملازمته من تعاطى مهنة بيع الجلود ودبغها، مشتهيات نفسه .

« وحيث انه مع تقصير الوالد فى تعليم ابنه ، وفى اختياره له طرق سهولة المعيشة ، لم يشأ أن ينفق عليه الانفاق اللازم ، حيث يتضح أنه ضنين بماله من وافر ثروته ، ولكونه قصره عن امكان الاسترزاق من الخارج حيث لم يعلمه شيئا ، لم يبق للولد مطمع أو حيلة الا فى الصرف عليه من والده ، فهو يبذل ما فى وسعه من وسائل الاستعطاف واستدرار الشفقة الأبوية . وكلما غلبه حب المال على الحنو الوالدى ، ازداد وتفنن فى طرق استمالة أبيه للصرف عليه ومكابرة غلبة حب المال ، وهو لا يقصد فى كل ما يأتيه غير الوصول لامتزاج قلب أبيه وتأثره من حالته التعسة ، فتوسط لدى أبيه بالقول وبالشفعاء وبالكتابة .

« وحيث انه بالاطلاع على الورقة المحرزة من المتهم لأبيه ، المنسوب اليه بسبب كتابتها تهمة تهديد أبيه بالقتل ، تبين خلوها من افادة ذلك ، فانه بالنظر لحالة المتهم وأبيه ، والى الأحوال التى تقدمتها ، الثابتة من أوراق الدعوى وتحقيقاتها تبين أنها ورقة كتبت من شخص ليس له نصيب من العلم ، ولا من أقدار الألفاظ ومعانيها ، وهو يقصد بها أن يستميل قلب أبيه اليه وأن يعرفه

بدرجة اليأس التى هو فيها ما دام مبعدا عنه وعن الفضل من ماله ، وأنه يستعطفه الى تنفيذ المتفق عليه بينهما وهو دفعه له خمسة جنيهات شهريا ليقتات بها وأولاده وأن يزيده بشرح حالته السيئة بعدا عن تغلب حب المال ، ويستقر به الى الواجب من حب البنين والانفاق عليهم .. وحيث ان الشريعة الاسلامية الغراء كما فرضت على الولد حقوق الوالدين المقرونة بأشرف مقاصد الطاعات ، لم تهمل الولد تحت رحمة الوالد الذى قد يكون كأب المتهم غير متأثر بالكلية والبعضية اللتين بينه وبين ابنه من غير نصوص ملزمة ، فقد ذهب العلماء الى أن الأب ملزم بتربية ابنه وتعليمه العلوم اللازمة حتى الفروسية ، وباحسان تسميته ، واختيار أطهر المفارش له وأعلاها أصلا وغير ذلك ، وأنه مطالب وجوبا بنفقة أولاده الكبير والصغير والصحيح والمريض فى ذلك سواء كما عليه الأكثرون »[1] .

تلك صورة المصلح والمربى من أقضيته ، وهناك صورة القاضى الوطنى ، فكيف كانت ؟ كثيرون من الأجانب كانوا يرفضون أن يحتكموا للمحاكم الأهلية ، فيعالج قاسم تلك القضايا معالجة شاملة ، بمنطق قوى نشتم من ورائه نسيم الوطنية . فلنترك الكلمة لقاسم : « ان الألفاظ التى استعملها القانون لا تترك مجالا للشك فى أن أساس اختصاص المحاكم هو جنسية الأخصام .

« وحيث انه بناء على ذلك ، فوجود صالح لشخص أجنبى

---

(١) مجلة الحقوق ٣ أغسطس ١٨٩٥ .

أو عدم وجود صالح سيان متى كانت الأخصام القائم بينهم النزاع تابعين للجنسية المصرية .

وحيث انه فى هذه البلاد التى يوجد فيها كثيرون من الأجانب مرتبطين بمعاملات عديدة مع الوطنيين ، لا يكاد يخلو نزاع بين هؤلاء لا يكون شأن فيه لأجنبى ، ولو اتبع المذهب الذى يعدل فى الاختصاص على وجود أو عدم وجود صالح أجنبى فى الدعوى لأفضى ذلك الى انتزاع جميع سلطة المحاكم الأهلية ، ولحرم الوطنيون من قضاتهم الطبيعيين » (١) .

وفى حكم مماثل نسمع قاسما يقول : « ان الأجانب الساكنين فى بلد يكونون خاضعين لأحكام هذا البلد الا فيما يتعلق بأحوالهم الشخصية . والحكومات المنتظمة التى يعيش أجنبى فى بلادها وتحت حمايتها وحماية قوانينها لا تقبل أن تكون حمايتها هذه صورية فقط » (٢) .

كان قاسم ينظر الى وطنه فى كل عمل يقوم به ، وكان يتسابق هو وسعد زغلول الى تقرير تلك الحقوق لأهل البلاد(٣) ، ومكافحة الامتيازات الأجنبية ، واطلاق الحريات كاملة فى حدود القانون . وكانت هناك مظاهرات يقوم بها الطلبة ضد الاحتلال ، وكانت هناك قضايا تحريض على المظاهرات ، وكان السؤال التقليدى لقاسم : هل رأيته رؤيا العين أو سمعت ؟ ومن كان معك ؟ وكان

---

(١) مجلة الحقوق السنة العاشرة ص ٢١٥ .
(٢) مجلة الحقوق السنة ١٧ ص ٢٠ .
(٣) سعد زغلول من أقضيته ص ٥٩ وما بعدها .

البوليس الانجليزى يعجز عن الاجابة فى أكثر الأحيان ، وكانت أحكام البراءة تتوالى .

هكذا كان قاسم المصلح الوطنى من قضاياه ، المتسامح العاشق للخير دائما من أحكامه ، والسؤال الذى يتبادر الى الأذهان بعد ذلك ، ألم يحكم قاسم بالاعدام فى القضايا الجنائية ؟ بلى ، لقد حكم بالاعدام بينما قلبه يتمزق كما يقول صديقه ابراهيم الهلباوى ، حكم بالاعدام فى قضايا لم يكن فيها موضع للشفقة .

فى عام ١٩٠٢ حدثت بالزقازيق جريمة بشعة ، قتل أحد الفلاحين مواطنا ، عمدا مع سبق الاصرار ، ولم يكتف بجنايته ، بل قتل ثلاثة آخرين ، بينهم امرأة ، كانوا أسرعوا لنجدة القتيل ، قتلهم بطعنهم بالسكين فى بطونهم . وحاول محامى القاتل أن يضعف المسئولية بالاستناد الى ضعف قواه العقلية ، وبعد أن أحيل الى الطبيب الشرعى جاء تقريره الذى يثبت فيه أن الجانى متمتع بكامل قواه العقلية . فهل كان لاجرامه من باعث يستشفع به الى قلب القاضى ؟ (١) .

قضية أخرى لقى فيها القتيل جزاء سنمار . آوى مقرئا ضريرا وأنفق عليه وأطعمه وتبناه ولكنه قتله ليسرق ماله . ان الشر اذا أمكن اصلاحه كان الخير علاجا له ، ولكن القسوة فى الشر حتى الموت لا سبيل الى اقتلاعها من القلوب بالخير ، « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » . « حيث ان قصد المتهم السرقة ،

---

(١) الجناية رقم ٩٨٩ لسنة ١٩٠٢ بجدول النقض .

هو كاف لثبوت سبق الاصرار ، غير أنه قد ثبت فضلا عن ذلك من تعدد الطعنات التى وجدت بالقتيل ، ومن أن البدء فيها حصل والمجنى عليه نائم ، اذ لو كان الأمر غير ذلك لما أمكن المتهم وهو ضرير أن يصل اليه مطلقا ولا أن يطعنه كل تلك الطعنات . وذلك غير ما ظهر من أن السكينة التى استعملت فى الجناية لابد وأن يكون المتهم استعد لها فسنها لأنه مفقود البصر .. ولا محل للرأفة مطلقا بعد أن تبين أن المجنى عليه كان يأويه وينفق عليه فخانه على غير ذنب وبلا سبب سوى الطمع وحب المال »[1] .

هكذا كانت الحياة تسير بقاسم فى هذه الفترة ، وطنية تعمر قلبه وتفيض على قلمه فى أحكامه ، وبذور الاصلاح تنمو بنفسه على مدى الأيام ، ثم تزهر فى أيامه ، ونجنى نحن ثمارها بعد حين .

---

(١) الجناية رقم ١٢٥١ لسنة ١٩٠١ .

الفصل الرابع

في حياته العائلية

أقبل عام ١٨٩٤ على المستشار قاسم آمين وهو لم يتزوج بعد، انه الآن فى الحادية والثلاثين من عمره ، ويشغل منصبا هـاما ، ومرتبه الذى يبلغ ألف جنيه فى العام ، وأملاكه التى ورثها تكفيه ليعيش حياة مترفة . لم يكن يطمع فى أكثر مما وصل اليه من الناحية الوظيفية ، ولكنه كان مشغولا بأمر استقراره وتكوين أسرة . ومن الحق أنه قد قرر أن يهب حياته للاصـلاح الاجتماعى ، ولكن الاستقرار العائلى لا يقعد بالمصلحين . ان أستاذه جمال الدين لم يتزوج ، ولكن محمد عبده تزوج ولم يعقه الزواج عن رسالته الاصلاحية ، بل لعل الزواج أدعى الى الاسـتقرار المشجع على الانتـاج .

وتذكر قاسم المناقشات التى كانت تدور بينه وبين صـديقه سعد زغلول حول هذا الموضوع ، فسعد فى الخامسة والثلاثين ولم يتزوج بعد ، ولكنه عقد العزم على أن يزوجه ابنة أستاذه مصطفى فهمى بعد أن يتزوج هو أولا (١) . واذا كان مصطفى فهمى رئيسا

(١) سعد زغلول للعقاد ص ٥٢٩ .

للوزراء ، فان هذا النجم الصاعد سعد زغلول ليس بينه وبين القمة الا خطوات . أما هو فمزاجه الذى ينفر من السياسة وخلقه الحيى لا يتفق مع طباع مصطفى فهمى فى شىء على الاطلاق .

كان أمين توفيق أمير البحر التركى صديقا قديما لوالده ، وهو يسمع أن ابنته « زينب » فاتنة فى جمالها كريمة فى خلقها . ومن الحق أن ثقافتها ليست واسعة مثله ، ولكن مربيتها الانجليزية استطاعت أن تنمى شخصيتها . وأين هى الفتاة المصرية الواسعة الثقافة فى هذه الأيام ؟ ان الحياة العائلية الهانئـة التى يعيشها أصدقاؤه المتزوجون تدفعه دفعا ملحا الى الاسراع فى الزواج منها .

لم يتخل قاسم أمين عن بيته بالحلمية بعد زواجه ولم يغـير كثيرا من عاداته . انه يستيقظ مبكرا كعادته ويتأنق فى ملبسه قبل أن يخرج دائما . حتى اذا حان موعد خروجه الى عمله ، وسألته زوجته عن الأطعمة التى يفضلها ، أجابها أنه يحب كل شىء على أن تكون المائدة عامرة بكثير من أصناف الطعام ، ثم يركب عربته التى تجرها الخيول ، وينطلق بها .

ويعود قاسم بعد أن ينظر قضاياه فيجد مسكنه نظيفا منسقا . حتى اذا ما أعدت المائدة جلس مع زوجته يتناولان طعام الغداء ، وكان يعتبر أن من احتقار الزوج لزوجته أن يأكل وحده ، ويتركها تقف أمامه لتلبى طلباته شأن أكثر المصريين فى ذلك الوقت (١) .

ثم يضطجع قليلا ، حتى اذا قام من نومه دخل حجرة المكتب

---

(١) المرأة الجديدة ص ٤٠ .

ليكتب ويقرأ ، وهو فى أثناء ذلك يشرب القهوة ويدخن السجاير.
كان قاسم منهوما بالقراءة ، وكانت مكتبته تشغل من بيته ثلاث غرف كاملة ، أكثرها كتب فرنسية ، ولكن فيها جانبا كبيرا من الكتب العربية ، وبعض الكتب الانجليزية [1] .

فاذا أوفت الساعة على العاشرة مساء خرج ليقضى سهرته مع أصدقائه فى الخارج ، الى ساعة متأخرة من الليل . ولم تتخلف عادته هذه الا فى النادر ، حين يضطر للمكوث بمكتبه بالبيت لبحث قضاياه أو للكتابة أو لاصابته بمرض عارض . وكثيرا ما كانت جلساته مع بعض أصدقائه تتناول سبل الاصلاح . يقول قاسم : « كنت يوما فى منتدى يجمع بين جماعة من خيار الموظفين والشبان ممن يربطنى واياهم اتحاد الفكر وتجمعنى معهم وجهة الاحساس والشعور بحاجة جامعتنا . فدار الحديث بيننا .. على أن أكبر أعداء مصر هم المصريون الذين نسوا واجباتهم نحو وطنهم » [2] .

وكانت هذه السهرات تتحول أحيانا الى موائد للقمار ، ولم يكن قاسم ممن اعتادوا اللعب ، ولكنه كان يجلس ليلحظ اللاعبين، ويرى النظرات الشرهة من حوله فيكتب فى مذكراته : « عين الطماع حين تبصر شيئا تشتهيه ، لها نظرة تحيط به وتحويه برمته وتحوزه ، وتفعل فى نفسك ما يفعله الاختطاف الحقيقى . هـذه

---

(١) أتى الحريق عام ١٩٤٦ على تلك المكتبة جميعها ، كما ذكر لى حفيده الأستاذ مصطفى درويش .
(٢) أسباب ونتائج ص ٨٢ ـ ٨٣ .

النظرة رأيتها كثيرا عند المعتاد لعب القمار »[1]. وكثيرا ما استسلفه بعض اللاعبين من أصدقائه مبالغ من المال على أنها دين شرف ، فيقول قاسم فى مذكراته : « أى شرف فى دين القمار ! » .

وكأنما كانت لحياة قاسم القضائية آثار على حياته العائلية ، فهو عادل فى معاملته لزوجته ، يقدر لها اهتمامها بشئونه وشئون بيته ، وهو كريم فى عشرته ، يخصص لها جزءا من وقته بعد ظهر كل يوم يتحدثان فيه ، قبل أن يخصص لكتبه وقتها المقدس من السابعة الى العاشرة .

ولم يكن قاسم رجلا مرحا شأن الشباب فى سنه ، وشأن صديقه سعد ، وانما كان جادا ولكن فى غير تزمت . فهو يسمح لزوجته بالخروج لزيارة صديقتها صفية زغلول ، ويعتبر أن من احتقار الزوج لزوجته أن يسجنها سجنا أبديا داخل جدران أربعة . كانت صلته بسعد زغلول صلة صداقة قوية[2] ، فكثيرا ما كانا يتزاوران عائليا ، ويجد متعة فى حديثه الى سعد بالرغم من اختلاف نظرتهما الى الحياة واختلاف طبعهما . فسعد متكلم ثائر ، وقاسم قليل الكلام هادىء ، ولكن وحدت بينهما الصداقة والزمالة ودوافع الاصلاح .

ومن بعض التفاتات قاسم الصغيرة قد نستدل على أمور هامة، كحبه لفن من الفنون ، أو عطفه على حيوان أليف . والواقع أن قاسما كان انسانا عاطفيا ، فاضت عاطفته على أهل بيته ، وفاضت

---

(١) كلمات ص ١٨ .
(٢) كان سعد زغلول الوصى على أبناء قاسم بعد موته .

من قبل عندما كان فى فرنسا وقرأنا أحاديثه المليئة بالأحاسيس النبيلة عن الحب الشريف ، وفاضت على كلبه الذى كان يحرس بيته ، وفاضت على كل متهم ضعيف ، وكل هذه العواطف الفياضة ترجع الى أن قاسما كان فنانا . يجب أن يمـلأ بيته باللوحات الجميلة ، ويجب أن يسمع الغناء ، ولا سيما صوت عبده الحامولى أكبر مغن فى ذلك الوقت [1] . ويحب الأدب والشعر على وجه الخصوص ، ويعشق لامارتين كما ذكرنا . ورأيه فى شعرنا العربى فى ذلك الوقت رأى ذواقة خبير . فهو يراه قد احتذى النماذج العربية فى الأعصر القديمة رغم بعد العهد بيننا وبين شعراء العصر العباسى والأموى ، وذلك يفقد شعراءنا أصالة تجاربهم . ويهيب بهم أن يعيشوا فى عصرهم ، وأن يعبروا عنه ، وأن يتخلصوا من الصور التى ابتذلها طول الترديد [2] .

لم يكن قاسم فى حياته العائلية يهتم كثيرا بالتقاليد الجامدة التى كانت سائدة فى ذلك الوقت ، فهو يأكل مع زوجته ويدعها تخرج لزيارة صديقاتها . فرأيه فى تقاليد عصره رأى مصلح ثائر ، لا يجارى الناس على عاداتهم ان لم يقتنع بها . ويذكر لنا قاسم آراءه فى كثير من التقاليد التى تتعلق بالزواج والأفراح والمآتم ، فنلمح جذور ثورته الاصلاحية ضد التقاليد البالية . « كنت فى ليلة فرح ، وكانت الحفلة من أفخم وأجمل ما رأيت من نوعها . أنفق فيها الذهب بلا حساب — وعند الساعة العاشرة دخل العروس

(١) الكتاب الذهبى جـ ١ ص ٤٨٦ .

(٢) كلمات ص ١٤ .

وصدحت الموسيقى اعلانا بذلك . فقلت لصديق كان جالسا بجانبى : هذا اعلان لعامة الحاضرين بأمر سيتم بين الزوجين كان من حسن الذوق أن يبقى مستورا . وما أحسن ما اعتاده الغربيون، فان الزوجين منهم يكونان مع المدعوين اذا بهما قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون أن يشعر بهما أحد ، ويغيبان عدة أسابيع » [1] .

ويحكى لنا قاسم كيف قص عليه صديقه قصة زواج شاهده وهو طفل ، اقشعر من أحداثه التى رآها حين حسب أنهم ذبحوا العروس ، بينما النساء يملأن الغرفة وتتعالى زغاريدهن . وتقاليدنا فى المآتم لا تقل بشاعة عن تقاليد الزواج فى ذلك الوقت ، وفى بعض قرى الريف حتى الآن ، كصراخ النساء وتعفير الوجوه بالتراب . يقول قاسم : « ما رأيت جنازةمسلم الا أخجلنى منظرها. هذه الجمال التى تحمل الفواكه ويلتف حولها الأطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الأرض . وهذه الجاموسة المسكينة التى يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت — وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضا وليس فيهم الا الأعمى والأعرج والأعور ، ويمشون بسرعة غير منتظمة لابسين ثيابا قذرة صائحين بأصوات مزعجة . كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة — وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة الى جهة اليمين ، وتارة الى

---

(١) كلمات ص ٤٥ ـ ٤٧ .

جهة الشمال ، وأحيانا يطير فى السماء ان كان من الأولياء المقربين. وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن أيدهن ووجوههن وعفرن بالتراب رءوسهن يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل اليه باشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة — ما هذا كله ؟ أمجمع مجانين أم تقر بهم مس من الشياطين ؟

ألعوبة أطفال أم معرض كرنفال ؟ فى الجنــازة التى تمر فى الطريق شىء من جميع ذلك ، ولا ينقصها الا أمر واحد وضعت لأجله ، هو اظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون .

« لما كنت فى الآستانة توفى فى الليل بغتة رجل كان بيته ملاصقا لبيتنا ، فلم نسمع عويلا ولم نشعر بحركة غير اعتيادية ، وفى الضحى خرج النعش ونقــل الميت الى القــرافة مشيعا بأقاربه وأصحابه من الرجال فقط ، ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم .. بل كانوا يسيرون صامتين خاشعين مطأطئين رءوسهم ، فلما انتهوا من دفنه ، عاد أهل الميت الى بيتهم وأغلقوا البــاب كعادتهم »(١) .

من خلال هذه الاستفهامات المتلاحقة ، نحس دهشة قاسم من هذه التقاليد الغريبة ، التى ثار عليها ، وكان له أثر كبير فى تغييرها فأساس العائلة عنده الفهم والترابط بين الزوجين لا التقاليــد . ويعجب من تعريف الفقهاء للزواج تعريفا ماديا محضا . ويتساءل عن المودة والرحمة بين الزوجين ، ويرى أن هذا التعريف يجعل

---

(١) كلمات ص ٤١ — ٤٢ .

ذلك الرباط المقدس واهيا . وتلك مرحلة من النضج فى فهم الأسرة ودورها الايجابى فى المجتمع المتماسك السليم ، حين تقوم على أسس روحية — سبق فيها كثيرين من مشرعى عصره . فهو يرى قوله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . هو التعريف القدسى للرباط المقدس [1] .

ورجل هذا تفكيره ، لا تتوقع منه نشوزا فى حياته العائلية ، ولا نعلم عنه الا الوقار فى كل تصرفاته . لم يكن قاضيا شرعيا لينظر قضايا الطلاق ، ولو نظرت أمامه مثل هذه القضايا لسعى سعيا أكيدا فى اصلاح الزوجين ، لأن الأسرة خلية فى المجتمع اذا تماسكت تماسك المجتمع واذا صلحت لأداء مهمتها صلح المجتمع كما كان يقول . وقد كان ميالا بطبعه فى القضايا المدنية الى مصالحة الخصمين كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، فكيف به اذا كان الخصمان زوجين ؟

ومن مقارنة قاسم بين بعض التقاليد عندنا والتقاليد فى تركيا نعلم أنه زارها ، وأن له بيتا هناك . وهو فى الواقع بيت زوجته فأبوها تركى كما ذكرنا ، فكان قاسم يذهب ليقضى اجازته الصيفية بتركيا ، فيزور أهل زوجته ، ويزور أقارب أبيه أيضا . وكثيرا ما كان يعرج على الشام فيعبر الحدود التركية الى هناك . ومن زار هذه الأماكن يعرف أن المسافة قريبة جدا تقطعها السيارات الآن

---

(١) تحرير المرأة ص ١١٤ ــ ١١٥ .

فى فترة قصيرة ، وكان يقطعها القطار فى ذلك الوقت فى ساعات محدودة . والطبيعة فى هذا المكان — جنوب تركيا وشمال الشام — من أجمل مناطق الدنيا . ومصايف « صلنفه » و « كسب » فوق جبلين يرتفع كلاهما أعلى من السحاب ، وتنتشر أشجار التفاح بثمارها الذهبية هنا وهناك ، على حين يرتمى الوادى أسفل الجبل ويكثر الرعاة . ويكون نهر العاص بحيرة صافية مستكينة تمتد الخضرة حولها على مدى النظر ، فاذا ما نظرت الى المبانى فوق الجبل على جانب واحد من الطريق الذى يحتضن الجبل صاعدا الى أعلى حسبتها منحوتة من الصخر فى شكل أشبه بالأكواخ لينحدر من فوقها المطر . والذى يحيا فى هذه المناطق فترة من الزمان يحس أنه فى جنة الله ، فالطبيعة هناك ثرية ، تصفى الملكات والأرواح ، وتدعو الانسان الى أن يحتضن الكون كله . هذه المشاعر أحسها قاسم أمين[1] فأكثر من زيارته لتلك البقاع .

ويعود قاسم من اجازاته الصيفية ، فيجد بعض أقربائه العاطلين قد احتلوا منزله ، يأكلون ويشربون أياما وشهورا . ولم يكن يضيق بهم ولكنه كان يضيق بالبطالة ، يضيق بالعاطل الذى لا يقبل عملا شريفا مهما كان صغيرا . فالحكومة وظائفها محدودة، والعمل الحر مجال للجميع : « ومركزه فى المنزل الذى يأويه مركز حرج ، فلا هو سيد ولا هو خادم ، وهو فى الحقيقة ممقوت من

---

(١) أسباب ونتائج ص ٥٦ .

الاثنين وناقم عليهما حيث يخيل له أن قريبه قد ملّ مقامه عنده ، وصار يلحظ شزرا أو يغض عنه النظر أو لا يعطيه ما يكفيه من الدخان أو لا يفتكره بخمسة قروش فى اليوم ، وأن الخادم يعامله بخشونة أو لا يسمع كلامه كثيرا أو يسخر منه ويزدرى به من طرف خفى ، وهكذا . واذا خلا بصاحب له يقول له ، ماذا أصنع يا أخى فى هذا الوقت الصعب والحكومة أقفلت أبوابها فى وجوه أبنائها . ماذا تصنع ؟ اذا أنت أصغيت لنداء ضميرك فاصنع كل شىء » [1] .

ولم تخل حياة قاسم العائلية من نعمة الأبناء ، فقد ولدت له زوجته ابنتين ، فأسمى الكبرى سيدة والصغرى جلسن [2] ، فكانا قرة عين هذا الأب العطوف . وهذا الوالد الذى رأيناه من قبل مربيا مصلحا لابد أن يهتم بتربية بنتيه اهتمـاما كبيرا ، فأحضر للكبرى مربية فرنسية وللصغرى مربية انجليزية .

وكان من عادة قاسم أن يجلس الى زوجته كل يوم من الخامسة الى السابعة ، فليجلس الآن فى ذلك الوقت الى زوجته وابنتيـه يلاعبهما . وهو يعتبر عطف الأب على أبنـائه وملاعبته لهم أصلا جوهريا من أصول تربية الطفل ، يزيد نموه الجسمى فى انطلاقه هنا وهناك ، ويزيد وعيه ويفتح مداركه عن طريق توجيه الأب المثقف ، ويقوّم نفسيته فيشب سليم النفس والعقل والجسم

---

(١) أسباب ونتائج ص ٢٦ .

(٢) تزوجت سيدة بعد وفاة أبيها بمستشار ، أما الصـغرى فتزوجت بضابط بمصلحة السجون .

جميعا [1] . أما وقت الطعام ، فيطعمهما بيده ان كان بالبيت ، فان كان بالخارج لعمل أو لضرورة ، فلا بد أن يسألهما بعد عودته كيف طعما وكيف لعبا ، حتى يطمئن قلبه .

يقول قاسم : « بنتى الصغيرة التى عمرها خمس سنين ، تظن أنه يمكنها أن تأتى بنفسها كل ما ترانى أعمله ، فاذا أمسكتها من يديها ورفعتها من الأرض لأقبلها ، تقول لى أنا أيضا أرفعك ، وتمسكنى بيديها من أفخاذى وتجهد نفسها حتى يحتقن وجهها لتحملنى كما حملتها . واذا رأت أن رجلا عبر قناة ماء بوثبة ، تحفزت لتفعل مثله ، تظن أن كل ما ترغبه جائز سهل » [2] .

هكذا كان قاسم الأب عطوفا شديد الحب لبنتيه ، مربيا ، يعرف أن تربية الفتاة مسألة مستقبل لمصر كلها ، فى ذلك الوقت الذى كانت المرأة فيه جاهلة مهملة أشد الاهمال . « على من يتولى تربية المرأة أن يبادرها من بداية صباها بتعويدها على حب الفضائل التى تكمل بها النفس الانسانية فى ذاتها . والفضائل التى لها أثر فى معاملة الأهل وحفظ نظام القرابة . والفضائل التى يظهر أثرها فى نظام الأمة حتى تكون تلك الفضائل جميعها ملكات راسخة فى نفسها . ولا يتم له ذلك الا بالارشاد القولى والقدوة الصالحة» [3] .

كان قاسم أمين موفقا فى حياته الزوجية ، وجد الزوجة المهتمة

---

(١) المرأة الجديدة ص ١٨ .

(٢) كلمات ص ٤٤ .

(٣) تحرير المرأة ص ١٩ .

بشئون بيتها ، ووجد نعمة الأبوة ، ولكن هل كان سعيدا ؟ أكانت زوجته تشاركه حياته العقلية والوجدانية كما تشاركه حياته المادية؟ من المؤكد أن فارق الثقافة بينهما كان كبيرا ، فثقافتها لا تتعدى خبرات الزوجة التى نشأت على يد مربية انجليزية . ولعله كان يقارن من حين الى حين بين زوجته وبين فتاته الأوربية الواسعة الثقافة ، التى شاركته حياته فى فرنسا ، فيجد الفارق واضحا ، ويرى كفة الميزان الراجحة فى صالح الفتاة الأوربية .

يقول قاسم : « انى أكتب هذه السطور وذهنى مفعم بالحوادث التى وردت علىّ بالتجربة وأخذت بمجامع خواطرى . ولا أريد أن أذكر شيئا منها لعلمى أنها ما تركت ذهنا حتى طافت به ولا خاطرا حتى وردت عليه . فان مثار هذه الحوادث جميعها هو شىء واحد وهو المرض الملم بجميع العائلات لا فرق بين فقيرها وغنيها ولا بين وضيعها ورفيعها وهو جهل المرأة .. » .

« فأحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ، ويكون عنده مال لا يفنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى . وأبغض الرجال عندها من يقضى أوقاته فى الاشتغال فى مكتبه . كلما رأته جالسا منحنى الظهر مشغولا بمطالعة كتاب غضبت منه ولعنت الكتب والعلوم التى تسلب منها هذه الساعات وتختلس الحقوق التى اكتسبتها على زوجها .. ولا يدرى الزوج المسكين ماذا يصنع اذا أراد أن يجمع بين هذين العدوين : الزوجة والعلم . أراه فى حيرة أشد من الرجل الذى جمع بين زوجتين . فقد رأينا أحيانا كثيرة مظاهر الوفاق بين زوجتين لرجل

واحد . وما سمع قط أن امرأة مصرية ممن نعنى رضيت بمعاشرة العلم » [1] .

وقد يكون الاختلاف بين الزوجين أمرا طبيعيا فى كل حياة زوجية ، ولكن نوع المشكلة يلقى ضوءا على مستواها . طالبته زوجته ذات يوم بحساب عن ريع أملاكها ، فوجدت عجزا كبيرا ، فأوضح لها قاسم أن بعض ذوى القربى والفقراء قد أخذوه ، فغضبت غضبا شديدا ، وتركت البيت وذهبت الى صديقتها صفية زغلول ، ومكثت هناك ثلاثة أيام . وتدخل فى الأمر سعد زغلول وزوجته ، واتفق الزوجان على أن ينفق قاسم من ماله وحده [2] .

أنستطيع أن نستدل من كل ذلك على شيء ؟ من الواضح أن الوفاق غير الحب ، وأن الحياة الزوجية مهما كانت هادئة المظهر فلا تعنى السعادة التى يتحدث عنها قاسم ممثلة فى الحب ، ذلك الذى ظل يتحدث عنه حديث محروم . كان عاطفيا فلم تستطع زوجته أن تملأ ذلك الفراغ لأنها لم تكن عاطفية مثله . « هذا الحب لايمكن أن يوجد بين رجل وامرأة اذا لم يوجد بينهما تناسب فى التربية والتعليم .. سل جمهور المتزوجين ، هل هم محبوبون من نسائهم ، يجيبونك نعم ، لكن الحقيقة غير ما يظنون » .

كان هائما يبحث عن الروح لا عن المادة ، كان يتمنى أن يعيش الناس فى نعمة الحب الذى يتصوره مع الزوجة المحبة ، والذى يعده أغلى ما فى الحياة : « أما ذلك الامتزاج بين روحين اختارت

---

(١) تحرير المرأة ص ٢٦ ، ٣٤ .
(٢) من حديث بينى وبين حفيده الأستاذ مصطفى درويش .

كل منهما الأخرى من بين آلاف من سواها ، امتزاجا تاما يؤلف منهما موجودا واحدا كأن كلا منهما صوت والآخر صداه . ذلك الاخلاص التام الذى ينسى الانسان نفسه ولا يدع له فكرا الا فى صاحبه . ذلك الاخلاص الذى لا نجد له مثالا أظهر من حب الوالدة لولدها — فهى بعيدة عنه بعد السماء عن الأرض »[1] .

من الواضح أن حياة قاسم العائلية على الرغم مما كان يجد فيها من لحظات حلوة ، وخاصة حين يداعب ابنتيه ، وعلى الرغم مما كان يجد فيها من استقرار عائلى ، فقد كان يجد لحظات أخرى يحس فيها أنه يأمل فى شىء آخر غير ذلك ، يحس فيها أن الثقافة ضرورية للمرأة لتشارك زوجها أحزانه وأفراحه وتفهم مشاعره فهما عميقا ، وتملأ كل ما يشعر به من فراغ عاطفى [2] .

ان السعادة كما كان يتصورها تتمثل فى امرأة لها عقل الرجل وجمال الأنثى ، فكيف تمتد جذور تلك السعادة الى كل أسرة مصرية الا اذا تثقفت المرأة ، وانطلقت تشارك الرجل فى ميدان الحياة ؟ كل هذه الأسئلة كانت تجول بذهنه ، وتلح عليه الحاحا شديدا ، حتى وجد الاجابة عنها ، فبسطها للناس بعد حين .

---

(١) تحرير المرأة ص ٣١ .

(٢) تحرير المرأة ص ٣٣ .

الفصل الخامس

وطنية قاسم

بينما كان قاسم يطالع أحد أعداد صحيفة المؤيد ، وجد رسالة بعث بها صديقه ابراهيم الهلباوى الى الجريدة ، وهو مسافر الى آوربا يقول فيها عندما مر على جزيرة كريت : « هـذه أول مرة انكشفت فيها لعينى هذه الجزيرة بعد انسلاخها من حكم الدولة واعطاء أوربا اياها هدية لثانى أنجال ملك اليونان : وقد حاولت حال المرور بها أن أتذكر بحسرة وجزع الحوادث التى سبقت أو اقترنت أو تبحث عن هـذا التغيير من قتل وسفك دماء مسلمى هـذه الجزيرة ، وما نالهم من الذل والمظالم ثم مصادرة من بقى منهم فى أموالهم وثمرات أتعابهم كمسلم حقيقى يألم بمصائب أخيه فلم تجد نفسى فى جسمى دما يتأثر ولا بقلبى محلا للأسف أو الرحمة . ولما تساءلت مع وجدانى عن سبب هذا الجمود وعدم المبالاة بما دهمنا من النوائب والمصائب ، قلت لعل ذلك لكثرة ما لحقنا منها حتى تدمم القلب وأوشك أن يقال عنه تكسرت النصال على النصال ..

« وقد بدا لنفسى جواب آخر على عدم الاكتراث بما أصاب

مسلمى كريت لم يبعد عنى اختلاج النفس بالأسف على مصابهم فقط بل أوشك أن يخجلنى حيث مر بخاطرى حسبان ذلك المصاب ذلك أنى قبل المجيء الى الاسماعيلية ، كان آخر سفرى على خط السويس من جهة القاهرة ، محطة الزقازيق ، ثم اتجه القطار بنا نحو الاسماعيلية . وهى المرة الأولى فى حياتى التى مررت بها على التل الكبير والقصاصين والمحسمة ونفيشة ، هـذه المواقع التى اتخذت خطوطا للدفاع ضد الجيش الانكليزى فى سنة ١٨٨٢ ، والشأن أن المرور على مثل هذه البقاع للمرة الأولى ، يحرك لوعة الأسف وذكرى ضياع مجد البلاد واستقلالها ، ومع ذلك لم أجد ألما أو اضطرابا » .

يقرأ قاسم خطاب صديقه ، فتعود به الذاكرة الى أيام وجوده فى فرنسا يوم أن رأى غلاما هناك يشاهد فرقة من الجنود عائدة من حرب التونكين ، فلما مر أمامه حامل العلم وقف الغلام الذى لا يتجاوز العاشرة من عمره ورفع قبعته تحية للعلم ، وظل يتابع الموكب بناظريه حتى غاب عنه . فأحس قاسم أن الوطن قد تجسم لهذا الغلام فى علم بلاده ، وأنه أثار فيه كامن أحاسيسه الوطنية .

لم يعترف قاسم بأن توالى النكبات تفقد المرء مشاعره الوطنية، بل رأى أنها تلهب الشعور وتقوى العزائم ، وانما السبب الجوهرى، هو اهمالنا غرس بذور الوطنية فى نفوس شعبنا منذ الصغر ، حتى أصبحنا لا تتأثر الا بالوقائع المادية التى تمسنا مباشرة [١] .

---

(١) المرأة الجديدة ص ١٤١ ـ ١٤٥ .

ولكن ما هو مفهوم الوطنية عند قاسم أمين ؟ عندما هاجم « دوق داركور » فى كتابه عن مصر ، التقاليد الاسلامية ، انبرى قاسم يدافع دفاعا حارا عن دينه وعن مصريته ، ومن هذا اتضح فهمه للوطنية بمعناها الاسلامى الكبير كما يقول صديقه ابراهيم الهلباوى [1] . وهو فى الواقع كان قد حدد فهمه للوطنية منذ تتلمذ على يدى جمال الدين ومحمد عبده .

نشطت الدعوة الى الجامعة الاسلامية فى الربع الأخير من القرن الماضى ، ورأى السلطان عبد الحميد أن أوربا قد بدأت تتطلع الى الشرق بعيون نهمة ، ثم كشرت عن أنيابها لتزدرد جسده الواهى عضوا عضوا . ومن هنا دعا الى تكتل المسلمين ووجدت دعوته طريقها ميسرا الى القلوب . وكان جمال الدين أكبر داعية للجامعة الاسلامية ، ومقالات جمال الدين ومحمد عبده فى العروة الوثقى كانت النور الذى هدى الناس للدعوة .

« ان للمسلمين شدة فى دينهم ، وقوة فى ايمانهم ، وثباتا على يقينهم ، يباهون بها من عداهم من الملل ، وان فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض . ومما رسخ فى نفوسهم أن فى الايمان بالله وما جاء به نبيهم كفالة لسعادة الدارين .. المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولا يتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ، ولا بين المتحدين فى الجنس ولا المختلفين

---

(١) الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية ج ١ ص ٤٨٢ ــ ٤٨٥ .

فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم ان لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام » [1] .

وتتابع مقالات العروة الوثقى ، ويتقاطر الدعاة الذين أرسلهم عبد الحميد ، يحثون الناس على الانضمام للدعوة ، ويتراسل علماء المسلمين ، وتتجاوب صيحات الناس «الآن سوف يسود الاسلام». وتحمس الكتاب والشعراء للدعوة ، فيكتب النديم فى « الأستاذ » مقاله (لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) يهاجم فيه الدول الأوربية التى ترمينا بالتعصب الدينى ويدافع عن فكرة التكتل الاسلامى .

« لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التى هى جزء منها فى الحقيقة . ولكن المغايرة وسعى أوربا فى تلاشى الدين الاسلامى أوجب هذا التحامل الذى أخرج كثيرا من ممـالك الدولة بالاستقـلال أو بالابتلاع . واننا نرى كثيرا من الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوربا يذمون الدولة العلية ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الادارة وقسوة الأحكام . ولو أنصفوها لقالوا انها أعظم الدول ثبـاتا وأحسنها تبصرا وأقواها عزيمة . فانها فى نقطة ينصب اليها تيار أوربا العدوانى لأنها دولة واحدة اسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا ، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات . والفتن متواصلة من رجال أوربا الى من يماثلهم مذهبا أو يقرب منهم جنسا »[2] .

---

(١) العروة الوثقى ١٠ ابريل سنة ١٨٨٤ .

(٢) سلافة النديم جـ ٢ ص ٦١ .

وترددت كلمة الوحدة الاسلامية والتكتل الاسلامى ضد الغزو الأوربى على كل لسان . ومن المؤكد أنه كانت هناك وحدة اسلامية قبل هذه الدعوة التى انتشرت فى الربع الأخير من القرن الماضى . ولكنها كانت تقوم على ركنين : الحج والخلافة ، ولكن الخلافة كانت قد فقدت قوتها بعد أن نهشها الضعف فسلبها روحها . فلما بدأ الأوربيون يغزون الأقطار الاسلامية واستولت فرنسا على تونس ومن قبل على الجزائر ، وضمت روسيا القوقاز وسيطرت انجلترا على الهند ثم على مصر بعد ذلك ، واحتلت هولندة اندونيسيا ، خشى المسلمون أن يبتلع الغرب بقية العالم الاسلامى، ومن هنا جاء التفكير فى التكتل لصد هذا التيار الأوربى .

وتأججت هذه العاطفة القوية فى الصدور وأشاد الكتاب بفكرة الجامعة الاسلامية ، التى تحولت الى عقيدة وطنية شاملة ، ونفروا الناس من الدعوات الوطنية بمعناها الاقليمى الضيق .

وتوالت قصائد محمد توفيق البكرى وشوقى وحافظ والكاشف وعبد المطلب تردد صدى هذه الدعوة لجمع شمل المسلمين ، وتتغنى بأمجاد الوطن الاسلامى . ومن قبلهم كان شعر البارودى مصورا لمفهوم الوطنية بهذا المعنى الذى ترتبط فيه الوطنية بالدين . وأصبحت الدعوة عامة يؤمن بها الناس ومن هنا تخلى بعض جنود عرابى عنه ، حين صدر قرار الخليفة بعصيانه .

وقد صور كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » سعة انتشار فكرة الرابطة الاسلامية بين المصريين . وتحدث عن تمسك المصريين بعقيدتهم الاسلامية المتغلبة على الوطنية بمعناها الاقليمى ، والتى

تؤمن بالوحدة الكاملة بين المسلمين فى سائر أقطار الأرض ، وعن عطفهم على الخليفة العثمانى ، كلما وقع فى محنة أو اختلف مع دولة أجنبية .

ومصطفى كامل نفسه ، زعيم الوطنية فى مصر ، كانت فكرة الوطن مرتبطة فى ذهنه بالاسلام . يقول من خطبة له فى الاسكندرية عام ١٩٠٠ : « قد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية ، أو أن الدعوة الى الدين ليست من الوطنية فى شىء . ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ، ويفديه بروحه وما تملك يداه »[١] .

وبهذا المعنى تحدث ابراهيم الهلباوى حديثه السابق عندما مر على جزيرة كريت ، وبهذا المعنى الاسلامى أيضا كان تعليق قاسم على مقالة صديقه ، وكان ذلك سبب رده على الدوق داركور . فمصر ان تحدث عنها الكتاب والمفكرون — هى وطن المصريين الذين ينتسبون اليها ، ولكنها فى الوقت نفسه جزء من الكيان الاسلامى الكبير .

ومن المؤكد أنه كانت هناك دعوات أخرى تفهم الوطنية بمعناها الاقليمى ، وتهاجم الرابطة التى تقوم على الدين وحده ، وترى وطن الانسان هو مكان سكنه الذى يطمئن فيه على مصالحه . وأغلب دعاتها من ذوى الثقافة الغربية المتأثرين بالدعوات القومية

---

(١) مصطفى كامل ص ١٢٢ .

التى قامت فى أوربا فى ذلك الوقت . ولكن هذه الدعوات لم تكن تستطيع أن تجتذب أنصارا عديدين فى وقت سريع . ولم يقدر لها النجاح الا بعد أن توارت الفكرة الاسلامية بسقوط عبد الحميد وفشل الثورة العربية بعد ذلك (١) .

قد يكون المرء وطنيا بمعنى أنه يحب وطنه ويؤمن به ، ولكن هذه الوطنية تبقى سلبية معطلة . وهذه العاطفة الجياشة اذا اتخذت شكل طاقة ايجابية كان لها أثرها كقوة عاملة تخدم الوطن . وكان قاسم صاحب قلم ، فلم يبخل به يوما على وطنه . يقول فى احدى مقالاته — التى نشرها فى المؤيد ما بين عام ١٨٩٥ وعام ١٨٩٨ وجمعها فى كتابه « أسباب ونتائج » — مهاجما المصريين الذين تنكروا لوطنهم وأنفوا من الانتساب اليه ، مع أنهم يرتعون فى خيراته وتظلهم سماؤه : « نحن معاشر المصريين ويا للأسف لا نحترم وطننا ولا نعرفه ، وكثيرا ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ، ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطن لهم بحال من الأحوال ، وفاتنا أن كل عيب منسوب له هو منسوب فى الحقيقة لنا . حتى ان كلمة فلاح التى كان الأتراك يستعملونها فى مقام الذم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصرى ، اتخذها المصريون عنوانا على احتقار بعضهم بعضا . ومن هذا القبيل أيضا نرى بعض الأشخاص الذين ولدوا فى هذه الديار من آباء ولدوا فيها بعد ما ترك أجدادهم بلادهم ولم يبق لهم أمل

---

(١) الاتجاهات الوطنية ج ١ للدكتور محمد حسين ص ١٥١ .

فى العودة اليها يجتهدون دائما أن يثبتوا أنهم من أصـل تركى أو سورى أو عربى ، ولا يكادون يعترفون — وخصوصا أمام الأجانب — أنهم من أبناء البلاد التى يرتعون فى خيراتها ويعيشون من نعيمها .

« وبديهى أن المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر أحد على تبرئة نفسه من الانتساب اليه كما يدفع المتهم نسبة الجناية اليه عنه . وأنا لا أقول انه لا توجد فى الأمة المصرية عيوب كثيرة قل أن يوجد مثلها فى أمة أخرى ، ولا أنه لا يباح للمصرى أن يذكرها . ونشر هذه الجمل فى هذه الجريدة يدل على عكس ذلك ، وعلى وجوب انتقاد عيوبنا بنفسنا وعدم اخفاء شيء منها حتى لا نغفل عن تلافيها ، ان ذلك أولى من أن يلقيها يوما ما فى وجهنا عدو لنا . ولكن أقول انه لا يباح لانسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ولا أن يغضب عليـه الا كما يغضب الولد من أبيه غضبا ممزوجا بالأسف والحنو »[1] .

والذى حدث بعد الاحتلال ، أن بعض ذوى النفوس الضعيفة قد ارتموا فى أحضان الاستعمار ونسوا وطنهـم ، وأن بعـض المخدوعين بقوة الحضارة الأوربية كانوا لا يبالون بمعرفة لغتهم أو دينهم ، وتفاخروا بالانتساب الى جنسيات أخرى . حتى اذا انحلت عقدة الألسنة بعد صدمة الاحتلال ، انبعثت الحركة الوطنية قوية جارفة مرة ثانية ، تقتلع فى طريقها الانتهازيين والضعفاء ، كما تقتلع الريح الأعشاب التى لم تعد تصلح للحياة .

(١) اسباب ونتائج ص ٦٧ ـ ٦٨ .

ومما هو جدير بالملاحظة هنا ، أن قاسم أمين كان من أول الدعاة للفكرة الوطنية بعد الاحتلال ، وممن تمسكوا بشرف وطنهم فى أحلك الأوقات . وهذه الصيحة الغاضبة من أجل الوطن تعتبر مبكرة ، سبقت صيحة رائد الوطنية مصطفى كامل بأكثر من عشر سنوات — تلك التى يقول فيها : « انى لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا » .

« قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بالانسان . ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لاحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف اليها أسمى من انهاض شعب كان أستاذا لشعوب البشرية ومربى العالم كله ؟ أى سؤدد ترمى النفوس الأبية اليه أعلى من اخراج الوطن المصرى من الظلمات الى النور ، واحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقا للعرفان »[١].

ولم يهاجم قاسم أمين الذين تنكروا لوطنيتهم وحسب ، ولكنه لم يغفل عن أولئك الذين اتخذوها سلعة يربحون من ورائها ، وعن الذين تلونوا تلون الحرباء وهتفوا لكل ذى سلطان . كانوا عرابيين أيام عرابى ، فلما فشلت الثورة تنكروا لها وصاروا يطلبون الموت لشركائهم فيها ، وساروا فى موكب الاحتلال يدقون البشائر ، فاذا ما وقف الخديو عباس حلمى فى وجه كرومر من أجـل سلطاته

(١) مصطفى كامل (راجع خطبته التى ألقـاها فى الاسكندرية سنة ١٩٠٧ ص ٣٩٢) .

السلبية وقفوا معه ، ولكنهم فى نفس الوقت عملاء للاستعمار ينتظرون نهاية المعركة ليسيروا مع المنتصر . وفى الوقت نفسه يكشف أساليب تجار الوطنية الذين يتخذونها — كما يقول — كعصارة الطماطم توضع فى كل شىء لتكسبه ذوقا حامضا يجعل تناوله سهلا مقبولا » (١) .

ويتطرق قاسم الى موضوع هام ظل يشغل بالنا الى حين قريب — وهو أخلاق الموظف . كان يريد من الموظف أن يؤدى واجبه كوطنى ، فهذا هو ميدانه الذى يستطيع أن يخدم فيه وطنه ، مثلما يجاهد الفلاح من أجل زرعه ويحارب الجندى من أجل بلده . وقدم لنا صورة ساخرة للموظف الغاش بوظيفته الذى يذهب الى عمله ويقضى وقته فى شرب القهوة والحديث مع الأصدقاء والزوار سعيدا ، حتى اذا ما عرض عليه أحد موظفيه مسألة يبت فيها حولها الى موظف آخر . يقبع خلف مكتبه — ان خلا من الزوار — يتثاءب ويتثاءب ، ويعلو وجهه عبوس وابتسام ، عبوس ان خطر بباله العمل ، وابتسام ان تذكر كيف صعد السلم على أكتاف الآخرين . « لو ولد انجليزيا أو فرنساويا أو ألمانيا — بل أو بلغاريا أو أرمنيا — لما وضع صفات التعلم والنباهة والقدرة على الفكر والعمل فى غير خدمة أبناء وطنه . فهل عيبه الوحيد أنه ولد مصريا فلم يفكر الا فى خدمة نفسه ؟ على أن الجمع بين الخدمتين ليس محالا ولا متعذر الحصول . فقد رأينا فى جميع

---

(١) كلمات ص ٣٨ .

بلاد الدنيا أن الانسان قد تكون عنده شراهة في حب جمع المال والكسب وشغف بنيل الألقاب والرتب والوسامات ، ولكنه مع ذلك كله يحب وطنه ويعمل لتقدمه ويساعد اخوانه ويكره أعداءه وأعداء وطنه .

« فلماذا يا ترى يخالف الموظف المصرى غيره حتى يعتبر أن منفعته الخصوصية يلزم أن تكون فى جميع الأحوال مضادة للمنفعة العمومية . كيف يتصور أن رجلا يرضى لنفسه عيشة الخمول والكسل ، لا تحركه غيرة ولا يهزه احساس ولا تستنهضه غاية شريفة يسعى وراءها . وماذا يكون بعد هذه الحال . زيد خلف عمرا وبكر خلف زيدا . وقال كلهم نحن نأتى بما لم يستطعه الأوائل . نحن ندرى كيف نخدم وطننا . وكيف نذود عن حقوق أهلينا . كيف نحفظ لجامعتنا شعارها وذمارها ودثارها . فلما جلسوا على الكراسى المذهبة وتناولوا المرتبات الوافرة وتصدروا فى المجالس بحيثيات مناصبهم ورأسوا الموائد فى الولائم والمآدب قالوا لأنفسهم انها لعيشة جميلة فلنتمتع بها ، وأما بعدنا فلا نزل القطر »[1] .

فالوطنية أقدس من أن تدنس بطمع الجشعين ، وانتهاز المتقلبين. هى دين جديد — كما يقول — نؤمن به ونعمل من أجله لا من أجل أنفسنا . ولذة المرء ليست فى جمع المال ولا فى التسلق لمنصب من المناصب ، ولكن اللذة الحقيقية هى فى أن يكون المرء قوة عاملة

(١) أسباب ونتائج ص ٨٤ ـ ٨٥ .

من أجل الوطن . والمرحلة الأولى لتحقيق هذا المبدأ تتحقق فى التوجيه عن طريق المقالات الصحفية ، أما المرحلة الثانية وهى أخطر المرحلتين فلا تتحقق الا عن طريق العمل الايجابى :

كان قاسم يستعد للسفر الى الصعيد للتحقيق فى احدى القضايا هناك ، ويطلب اليه أن يتخذ له حارسا فى رحلته من الجنود الانجليز. ماذا يصنع الرجل الوطنى الجرىء فى مثل هذا الموقف ؟ أيتخذ رمز الاحتلال ليحرسه من أبناء بلده ؟ يرفض قاسم ، ويقول قولته المعروفة : « كلبى آمن من أى انجليزى » . ويعود فيجد مظاهرات الطلبة على أشدها ضد الاحتلال ، ويدخل عليه قاعة الجلسة ضابط انجليزى ومعه أحد الطلبة مقبوضا عليه ، ويحاول أن يملى على قاسم أمين صيغة المحضر ، فيبتسم قاسم فى سخرية ويسأله سؤاله التقليدى : هل رأيته رؤيا العين أو سمعت ؟ ومن كان معك؟ فارتج على الضابط الانجليزى ، وهنا قال له قاسم : لقد انتهت مهمتك . فخرج الضابط ثائرا .

ويلجأ اليه أحد الطلبة ممن اتهموا بالتحريض على الاضراب وقدموا للمحاكمة ، وحكم عليه بالسجن — فى دائرة أخرى غير دائرة قاسم — يلجأ اليه لما عرف عنه من وطنية ، فيخفيه قاسم بسلاملك بيته ، أكثر من عام ، حتى استطاع أن يستصدر عفوا شاملا عنه[1] .

هذه صور عملية من وطنية قاسم أمين — الذى عاهد نفسه

(١) من أحاديث زوجته التى نقلها لى حفيده الأستاذ مصطفى درويش .

منذ ولى منصبه أن يعمل بمفرده حتى يتهيأ له أن يؤدى واجبه الوطنى بصورة جماعية أكثر نفعا . ولم يكن قاسم الوطنى الوحيد بالطبع ، فقد كان غيره يعملون فى ميادينهم . كان هناك مصطفى كامل قد بدأ يشحذ العزائم فى الداخل ، ويعرض قضية مصر فى الخارج ، وكان هناك محمد عبده فى الميدان الاجتماعى والدينى ، وكان هناك الصحفى الموهوب عبد الله النديم الذى عاد من منفاه ليواصل الكفاح . كانت خطة النديم أن يهاجم المفاسد الاجتماعية التى انتشرت عقب الاحتلال ، وأن يدعو الى نشر التعليم على نطاق واسع بين جميع الطبقات ، وكان هدفه بعد ذلك بعث الروح الوطنية من جديد .

وكتب عبد الله النديم بضع مقالات مسلسلة فى مجلة الأستاذ ، سماها « المرافعة الوطنية » أدان فيها الأغنياء . وهو قبل ذلك كان قد كتب عن حياة البذخ التى يحياها الأغنياء . وما هى فى الحقيقة أموالهم ، ولكنها أموال الشعب سلبوها لينعموا بها ، ويملأوا كئوسهم باللذات ، وحولهم دموع المحرومين وعرق الفلاحين وآهات التعساء .

يقرأ قاسم كل ذلك فيؤثر فيه ، وهو قد تأثر بمقالات النديم فى « التنكيت والتبكيت » عن الفلاح الذى أصبح موضعا لتندر العاطلين بالوراثة وصورة مهزوزة فى أعين المترفين ، فهاجمهم فى مقاله السابق . ويتخذ ذلك التأثير شكلا ايجابيا ، فيقرر أن أملاكه الموروثة مغتصبة ليست من حقه لأنه لم يبذل من أجلها جهدا ، ومن هنا كان عطفه على الفقراء ، ومساعدته لهم . ولم تكن فكرة

الاحسان هى التى تدفعه الى ذلك ، ولكنها فكرة أسمى من ذلك، هى الواجب . يقول « ان مساعدة ذوى القـربى واجب دينى واجتماعى » . فالمجتمع صاحب حق فى مال الأثرياء ، وينبغى أن يرد هذا الحق الى أصحابه . فلا ينبغى اذن أن يجرح الغنى شعور الفقير حين يعطيه أمام الناس . « من الناس من اذا أراد فعل الخير انتهز الوقت المناسب لاعلانه ، فاذا رأى شهودا وضع يده فى جيبه وأخرج كيسه وعد النقود ووضعها ببطء فى يد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون ، ولكيلا يبقى عندهم شكا فى مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته : خذ هذه الجنيهات العشرة . فاذا خرج هذا المسكين التفت الى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر ، ثم كلما اجتمع فى نهاره بواحد من معارفه أوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم . هذا الرجل أراد فعل الخير لنفسه فاستعمل صاحب الحاجة وسيلة لذلك .

« ومنهم من يريد فعل الخير ، فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه ويصغى الى شكواه ويشاركه فى ألمه ويحزن لحزنه ثم يبذل له من عبارات التسلية وكلمات النصح ما يقوم عزيمته ، فاذا قدم اليه مساعدة مادية دسها فى وسط الكلام والمحاولة وهو مضطرب خجل خائف أن يجرح احساسا شريفا . يحتال فى انتخـاب طرق العرض ويعتذر عن عمله ، فان قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع فى ورطة ثم تخلص منها . ذلك هو المحسن الذى يعرف أن للنفس حياء يجب احترامه كما أن فى الجسم ما ينبغى غض النظر عنه »[1].

(١) كلمات ص ٢١ .

وتتطور الفكرة فى ذهنه ، فيؤسس « الجمعية الخيرية الاسلامية » التى لا تزال موجودة حتى الآن بدرب الجماميز . ولكن المهم هو الحديث عن عمل انشائى آخر كان له أثره الكبير فى حياتنا . كان قاسم أمين يدرك أن مصر مقبلة على عصر تضيق فيه وظائف الحكومة ، ما دام التعليم فيها موجها من أجل تخريج موظفين شعارهم « اعمل قليلا واكسب كثيرا » . وكان الانجليز بعد الاحتلال قد رسموا سياستهم التعليمية فى مصر على أساس استعمارى محض حين قصروا همهم على رسم خطة قصيرة المدى بحيث يؤدى التعليم بعد أن ضيقوا عليه الخناق[1] — الى تخريج موظفين للحكومة . ومن هنا نشأت فكرة الشهادات فى مصر .

ورأى قاسم أن الأعمال الحرة هى المجال الطبيعى لمن أراد أن يحيا حياة كريمة تكفيه كل متطلباته ، وأخذ يقارن بين موظف الحكومة وبين التاجر الناجح أو المحامى المشهور أو الطبيب المعروف ، ويهاجم المثل الذى يدور على ألسنة العامة عن « التعلق بأهداب كل خدمة أميرية »[2] . كانت مصر بحاجة الى ذلك التوجيه ، وكانت بحاجة الى فئة تطلب العلم « شوقا الى اكتشاف المجهول » ، وهنا نلمح رسالة الجامعة فى أصلها الأول ، فقد بدأت النهضة القومية تسرى بعد زوال أثر الصدمة التى أعقبت الاحتلال ، وبدأت الحاجة ملحة الى انشاء الجامعة .

---

(١) تاريخ المسألة المصرية ص ٣١٧ ، مذكرات فى نصف قرن ج ٢ قسم أول ص ٢٨٨ .
(٢) أسباب ونتائج ص ٣٢ .

وفى الثانى عشر من أكتوبر عام ١٩٠٦ اجتمع فى منزل سعد زغلول عدد من المتحمسين للفكرة ، وكان قاسم أمين يتـولى سكرتيرية هذه الجلسة وأخرجوا للأمة بيـانا عن الجامعة كما تصورها آباؤنا منذ أكثر من نصف قرن . كانت رسالة الجامعة عندهم تهدف الى تحطيم عنق الزجاجة والخروج الى آفاق أرحب نستطيع أن نخدم فيها الوطن عن طريق العلم الذى لا يصـلنا الا صداه من أوربا : « فى هذه السنة هب فى الرأى العام تيار من نفسه لتحقيق هذه الأمنية ، لأن الأمة انتهت بأن تفهم تمام الفهم أن طريقة التعليم فيها ناقصة ، ودائرته ضيقة وتنتهى بالطالب عند بلوغ الغاية ، وأن من وراء الحدود التى انحصر فيها معـارف سامية ، وحقائق عالية وقضايا جليلة ، ومشكلات غامضة تشتاق النفوس الى حلها ، واختراعات جديدة وتجارب بديعة واختبارات كثيرا ما شغلت وتشغل عقول العلماء فى أوربا ولا يصل الينا منها الا صداها الضعيف » .

تلك مقدمة البيان الذى خرج من بيت سعد ، نستطيع أن نلمح من ورائه قاسم أمين سكرتير اللجنة التى أخرجته .

ظل قاسم سكرتيرا للجنة حتى عين سعد زغلول وزيرا للمعارف فحل محله قاسم أمين فى رياسة اللجنة . وعمل على جمع الأموال وتهيئة كل أسباب نجاح الجامعة . وفى ١٥ ابريل سنة ١٩٠٨ ، ألقى خطابا أوضح فيه فكرة الجامعة المصرية ، وكانت تستعد للافتتاح رسميا فى ذلك العام :

« ان الوطنية الصحيحة لا تتكلم كثيرا ولا تعلن عن نفسها . عاش آباؤنا وعملوا على قدر طاقتهم وخدموا بلادهم وحاربوا الأمم وفتحوا البلاد ، ولم نسمع أنهم كانوا يفتخرون بحب وطنهم، فيحسن بنا أن نقتدى بهم فنهجر القول ونعتمد على العمل .

« نحن لا يمكننا أن نكتفى الآن بأن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة ، بل نطمع فى أن نرى بين أبنـــاء وطننا طائفــة تطلب العــلم حبــا للحقيقــة وشـــوقا الى اكتشاف المجهـــول ، فئــة يكون مبـــدؤها التعلم للتعـــلم . نود أن نرى من أبنـــاء مصر كما نرى فى البـــلاد الأخرى ، عالما يحيــط بكل العــلم الانسانى ، واختصــاصيا أتقن فرعا مخصوصا من العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ، وفيلسوفا اكتسب شهرة عامة ، وكاتبا ذاع صيته فى العالم ، وعالما يرجع اليه فى حل المشكلات ويحتج برأيه . أمثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الأمم الأخرى والمرشدون الى طريق نجاحها ، والمدبرون لحركة تقدمها . فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والمرشدون الدجالون .

« ان عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم ذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر فى ازالته . وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية احساسنا وأهملت تربية قلوبنا فأصبحنا ماديين لا نهتم الا بالنتائج فى جميع أمورنا ، حتى فى الأشياء التى بطبيعتها يجب أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقات الأقارب والأصحاب ..

« ولى أمل عظيم أن انشاء الجامعة المصرية يكون سببا فى ظهور شبيبة هذا الجيل وما يليه على أحسن مثال »(١) .

كان أمل قاسم اذن وجود بيئة علمية يتصل الطالب فيها بالأستاذ اتصال دراسة وبحث ، ليكون لدينا متخصصون فى شتى فروع المعرفة ، لأن التخصص أول خطوات التقدم ، وليكون لنا علماء ينهضون بمصر اقتصاديا وفنيا ، ومفكرون يوجهون وطننا نحو اصلاح اجتماعى شامل ، ثم ليكون لنا بعد ذلك أدباء وباحثون يستطيعون تركيز أدب قومى صالح يجدد الأدب العربى. وبذلك تسرى دماء جديدة نقية فى عروقنا تدفعنا الى النشاط والى العمل المثمر فى سبيل بناء وطن قوى .

وفى ديسمبر عام ١٩٤٠ — أى بعد حوالى ثلث قرن — ألقى أحمد لطفى السيد حين كان مديرا للجامعة خطابا حدد فيه وظيفة الجامعة بمثل ما حددها من قبل قاسم أمين ، بل اذا حاولنا نحن الآن أن نحدد وظيفتها لم نستطع أن نقول الا ما قاله قاسم أمين أو ما قاله لطفى السيد بعد ذلك : « الجامعة هى جماعة من العلماء أخلصوا للعلم فوقفوا عليه ملكاتهم ووقتهم كما يقف الرهبان أنفسهم على عبادة الله . والى جانب أولئك العلماء شبان أذكياء ، يخدمون العلم كما يخدمه أساتذتهم على السواء عن طريق التعاون من جانب الطلبة ، والارشاد من جانب الأساتذة . والجامعة لذلك وحدة اجتماعية متضامنة الأفراد الذين يؤلفونها : من الأساتذة

---

(١) ألقى الخطاب بمنزل حسن زايد بالمنوفية لمناسبة وقفه خمسين فدانا للجامعة .

والطلبة والمتخرجين . فمن الخطآ الظن آن آغراض الجامعة تنحصر في شيء واحد هو تحضير موظفين لادارة الحكومة . وانما أنشئت الجامعة القديمة منذ ثلاثين سنة لتؤلف بيئة مستقلة فيها . يبحث كل عضو من أعضائها عن الوسائل المؤدية لكمال وجوده الخاص على أساس من حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال ، لا الحفظ والتصديق لكل ما يقال » .

هكذا فهم قاسم أمين الوطنية ، وبدأ العمل من أجل وطنه مصر التى يفتخر بالانتساب اليها . ويوم شرع قلمه للكتابة كان ينظر الى جوانب الضعف وجوانب القوة فى بلده ويحاول التوجيه، وحين وجد الفرصة متاحة للعمل الايجابى والأذهان مهيأة ، انضم الى جماعة العاملين وسار مع الطليعة ، فى الموكب الخالد الذى حمل مشعل الوطنية .

الفصل السادس

بين قاسم وبين الدوق داركور

كان قاسم أمين فى طريقه الى بيته عندما وجد كتابا للدوق داركور عن مصر والمصريين ، فاشترى الكتاب بلهفة . وهو يذكر أن الدوق الفرنسى قد زار مصر ثلاث مرات سائحا عابرا . وكان ذلك فى خريف عام ١٨٩٣ ، أى بعد الاحتلال بأحد عشر عاما . فما هى وجهة نظر الدوق عن مصر ، وهل سيتحدث عن الروح التى بدأت تسترد حماستها ؟

أول ما لاحظه الدوق داركور ضعف الروح الوطنية المصرية بمعناها الاقليمى ، فقد كانت هناك روح اسلامية عامة ، ولكنه لم يستطع أن يفهم فكرة الجامعة الاسلامية ، فكان اتهامه لمصر بأنها لا تتمتع بخلق قومى أو عنصرى واضح . وأخذ يوضح فكرته بأن المجد الفرعونى القديم لم يعد له أثر بعد أن توالت على مصر عصور وعصور من الاستبداد والحكم الأجنبى ، وخاصة حكم المماليك الذى قضى على بقايا النهضة القومية خلال حكمهم الذى استمر خمسة قرون . فقد كونوا طبقة حاكمة لا هم لها الا الثراء على حساب الشعب ، ومن هنا كانت الفجوة بين الحكام

والمحكومين تلك التى استمرت حتى أيام اسماعيل ولقى الناس فيها ما لقوا من اسرافه وترفعه .

والجانب الأكبر من الشعب فلاحون يعيشون أدنى حياة ويسخرون من أجل سيد الأرض وما وصل اليه الفلاح المصرى من الفقر والذل أشد مما وصل اليه العبيد فى أتعس الأوقات . فكيف يمكن سريان روح قومية بين الشعب المصرى وهو فاقد لمقوماتها ؟

وهكذا انتهى الدوق داركور من الفصل الأول مهاجما كما بدأه ، وقلب قاسم صفحات الفصل الثانى فوجده يتناول الجيش المصرى . ترى هل سيغفل فى هذا الفصل أيضا أمجاد هذا الجيش؟ ولكن الكلمات لا تلبث أن تضطرب أمام ناظريه ، فالحديث كله عن تهاون المصريين فى التربية العسكرية ، التى ليس لهم عهد طويل بها . فهم زراعيون مرتبطون بالأرض أو بالشريط الزراعى الضيق على ضفتى الوادى فضاقت آمالهم وفقدوا روح المغامرة . أما حروب محمد على فكانت موقوتة بانتصاراته ضعف بعدها الجيش والروح الحربية كما وهنت كل حماسة بحيث أصبح انتصار الانجليز عليه سهلا محققا .

ترى لماذا لم يتحدث المؤلف عن هزيمة الانجليز فى كفر الدوار على أيدى جيش العرابيين ؟ ولماذا تجاهل موقف ديلسبس من قناة السويس وخديعة الانجليز ؟ ولماذا تناسى الروح الدفاعة فى الشعب التى جعلته يلتف حول الجيش فى كل أوقات الأزمة ويسانده بكل ما يملك من مال وبنين وجهاد ؟

ويصل الى الفصل الثالث الذى يتناول الحياة الاجتماعية ،

فاذا به ينتقد الطبقات الاجتماعية فيها انتقادا عجيبا ، فهو لا ينتقد الفروق بين الطبقات ولكنه يلحظ تميع هذه الطبقات فى مصر ، وكأن أرستقراطيته لم تعد تسمح له الا أن يفكر على هذا النحو ، فالمجتمع لا يستقيم عنده الا بوجود طبقات اجتماعية متميزة مثلما رأى فى بلده حيث تؤدى كل طبقة واجبات خاصة بها . ومن الغريب أن الأسرة المفككة فى أوربا التى لم يعد هناك من رابط بينها أقوى من المال الموروث أو الألقاب الموروثة ، هى المثل الأعلى عنده ، أما الأسرة المصرية فهى ضعيفة الصلات أضعفها الطلاق وتعدد الزوجات .

واستبداد الأجانب بالحكم لم يسمح للمصريين بأن يكونوا طبقة أرستقراطية . والأرض جميعا كانت ملكا للحاكم فحين وزعت لم توزع على أسس معقولة وانما وزعت على من يملك أن يدفع ضرائب ست سنوات مقدما . كل ذلك لم يسمح بوجود طبقات واضحة فى مصر .

ويتناول فى الفصلين الرابع والخامس مشكلة الأقليات فى مصر مع وضع الأتراك تناولا سريعا ، ولكنه حين يصل الى الفصل السادس يقف وقفة طويلة أمام المرأة ووضعها الاجتماعى . فهو قد لاحظ فى تجواله أن المرأة محجبة وأن هذا الحجاب شائع فى كل الطبقات ، وفن العمارة رغم محاولة تطويره لم يمس فكرة الحريم ، فهناك قسم خاص بهن وقسم خاص بالرجال ، والمشربيات التى تستر المرأة ولا تسمح برؤيتها أشبه بحجاب من خلف حجاب، حجاب عن العالم وعن العلم معا . وحاول أن يفسر أسباب الحجاب

فأرجعها جميعا الى الخوف . خوف المحكوم من الحاكم ، وخوف القوى من الضعيف . استبد الحاكم بالمحكوم واستبد الرجل بالمرأة . كان الرجل لا يأمن على ماله أو على عرضه أو على نفسه ، فدفن المال وسجن المرأة وعاش فى فزع من القوة الغاشمة .

ثم يتعثر فى تفسيره فيهاجم الاسلام الذى تدخل فى كل العادات الشخصية للمسلمين ، فهو فى رأيه الذى أمر بذلك الحجاب وكان سببا جوهريا من أسباب استمراره على هذا النحو ، وحينما تحجبت المرأة انعزلت عن الحياة ، وعاشت فى جو من الأوهام والخرافات ملأت بها عقول أبنائها ، ولم تعد تعيش الا للغرائز ، فهى لا تكاد تختلف عن المرأة التى صورتها لنا « ألف ليلة وليلة ». أما المرأة الأوربية فتتنفس فى جو آخر نقى ، يدفعها الى العمل والى العلم والى الحرية ، كل ذلك أبعدها عن الرذائل وهيأها لأن تشارك الرجل فى كل أمر من أمور الحياة .

وينفعل قاسم انفعالا شديدا ، فقد حسب الكتاب دراسة واعية عن مصر ، فاذا به هجوم صريح يمس المصريين وعاداتهم ودينهم . ولكنه يقلب الصفحات الباقية من الكتاب وهى فصول ثلاثة يجمعها القسم الثانى وتعرض لتأثير الاسلام فى المدنية والفن فى مصر وأثر الدين فى حياة المصريين . وفى هذا القسم يعود الدوق داركور الى الاسلام ثانية أشد عنفا وأكثر تجنيا .

فالاسلام عنده هو السبب الرئيسى فى كل تأخر لاحظه فى البلاد الاسلامية . ذلك لأنه لا يحث الا على البحث فى العلوم الدينية أما كل النابغين من رواد النهضة الاسلامية القديمة ، فهم

من غير العرب ، من أصل فارسي أو رومى ، فالنسطوريون كانوا أئمة الطب ، والاغريق هم الذين أدخلوا الرياضة فى الدولة العربية، والفن البيزنطى هو الذى أوحى للعرب أصول فنهم . والدارس للعلم فى العصر الاسلامى الأول يجده لا يخرج عن العلوم الشرعية أو المستمدة من القرآن ، ومن هنا أحرق عمر بن الخطاب مكتبة الاسكندرية حين فتح مصر . والمدنية لا يمكن أن تقوم الا على العلم الحديث ، ومن للمسلمين بالعلوم الحديثة وهم يعيشون على تراث آبائهم ، وقد أثر الاسلام فى حياتهم تأثيرا كان سر اتكالهم فعقيدة القضاء والقدر كفيلة بأن تبعدهم عن كل ميدان للجهاد وتلقى بهم الى زوايا الخمول حيث ينسجون بأيديهم أردية العبودية ويجرون أذيال الفاقة (١) . والواقع أن الكتاب كله سلسلة من المطاعن القاسية ، تناولت الجماعة المصرية بالتجريح ، وكان صادرا عن تجربة قصيرة ولم يكن باعثه الاخلاص ولا حسن النية ، بحيث لم يقف مرة واحدة أو يفه بكلمة واحدة تنفى الشك فى سوء نيته ، وكأنما كان باعثه الوحيد أن يطلع أمته على الدولة التى تركتها بلاده لتفترسها انجلترا وحدها دون أن تشاركها الغنيمة .

قرأ قاسم الكتاب ، فأصيب بحمى لازمته عشرة أيام ، لأن كل هذه المطاعن فى مصر والمسلمين كانت مثيرة لحواس مسلم مصرى مستوفز الأعصاب مثله . ولا شك أن كل كلمة جارحة من كلمات الدوق كانت بمثابة طعنة موجهة الى كرامته ، فقد كان مؤمنا بكثير

---

(١) راجع L'Egypte et les Egyptiens. par Le Duc de Harcourt. Paris 1893

من المثل العليا التى بدأت الطبقة المستنيرة فى مصر توجه نفسها الى تحقيقها ، فأحس بخيبة أمل فى كل ما كان قد عقد العزم عليه . فقد خشى قاسم أن تكون الجماعة المصرية قد قضى عليها التحلل الاجتماعى الذى وصفه الدوق ، وأن لا سبيل الى دفعها خطوات فى سبيل الكمال بجهوده وجهود كل المصلحين . واذا كان الدوق داركور جاهلا بما فى الاسلام من قوة فقد كان على حق حين وصف الجهل والفقر والظلم ، وفيما نقد من اتجاهات التربية والتعليم (١) .

يقول قاسم واصفا مشاعره عند قراءة الكتاب : « لقد وجدت فيه من القسوة ما زاد على كل حد . وكادت تنتزع قراءتى اياه كل آمالى . ثم عادت نفسى فاطمأنت رويدا رويدا ، ففكرت طويلا فى كل ما قال عنا . بحثت كل المسائل التى بسطها وكل الأحكام التى انتهى اليها ، وسلخت نفسى من شخصيتى المزدوجة بوصف أننى مسلم ومصرى ، فحللت الموقف من غير ميـل ولا هوى مسترشدا فى ذلك بالحق وحده . ولذلك فقد عبرت عن عواطفى هنا كما يفعل الغريب الذى يعلم من أمر مصر ما أعلم ويحكم عليها بلا تحيز » . وهكذا بدأ قاسم يؤلف كتابه الذى رد به على الدوق داركور فى أواخر عام ١٨٩٣ ونشره فى أوائل عـام ١٨٩٤ (٢) وكأنما كان رده هذا صورة من صور الكفاح بين الشرق والغرب كما قلنا . فالدوق الفرنسى كان متشبعا بجمـلة من الآراء التى قيدها بعض المفكرين الغربيين فى القرن التاسع عشر مثل «رينان» ،

---

(١) خاكى ص ٦٩ .

(٢) Les Egyptiens . Le Caire , 1864

وقاسم أمين كان مؤمنا برقى العنصر المصرى ، وسمو الاسلام فى أصوله الأولى . ولقد قام كثير من المصلحين فى أواخر القرن التاسع عشر ينتقدون النظم القائمة بمصر مثل جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعبد الله النديم وغيرهم ولكنهم لم يبنوا تقدهم على أساس ازدراء العنصر المصرى أو مهاجمة الاسلام بل على العكس كان نقدهم موجها منصفا ، من أجل رقى مصر ونهضة المسلمين ، ولكن الذى أثار قاسما ، ذلك التعصب الأعمى فى الكتاب كله .

ويبدأ قاسم رده على الدوق داركور وهو مؤمن بمبدأ التقدم ، وأن هذا التقدم قد يتعثر فى بعض الأخطاء ، يتعثر فى زحزحة الظلم ومحاربة الجهل والفقر ولكنه فى النهاية لابد أن يتغلب عليه . فاذا كانت مصر لا تزال فى أول الطريق ، فقد مرت فرنسا بنفس الطريق من قبل لكن الجهل والفقر لم يقفا حجر عثرة فى سبيل تطور الفرنسيين . كان الزراع عبيدا للأرض يباعون معها ويشترون وكان الاقطاعيون يسومونهم ألوانا من العذاب لم تخطر على بال أمير شرقى ، ويتحكمون فى الفلاحين تحكم المرء فى سلعة يمتلكها ، يتحكمون فى زواجهم وفى رزقهم وفى أرواحهم . وكان النبلاء الفرنسيون يحتقرون التجارة والصناعة والعلم والفن فما بال الدوق الفرنسى ينسى ذلك الماضى البغيض ولا يذكر الا حاضر بلاده بعد أن تخلصت من آثار ذلك الماضى ، ومصر ما تزال فى أول طريق النهضة ولن تمنعها أخطاء الماضى من التقدم . ثم ينتقل قاسم الى الفصل الثانى فيتحدث عن المجتمع المصرى وعن ذوبان الطبقات فيه كما لاحظ ذلك الدوق داركور آخر القرن الماضى ،

ويجد الفرصة أمامه ليعرض للاسلام عرضا سليما يوضح جوانب القوة التى جهلها الدوق . فالاسلام قد ساوى بين الناس ولم يجعل لمسلم فضلا على مسلم الا بالتقوى . بل هو قد سبق كل النظم الثورية بألف عام حين أنكر امتيازات المولد والثروة . وليس فى الاسلام طبقة يصل عن طريقها الفرد الى ربه ، طبقة دينية تمثل السلطة الروحية التى كانت للكنيسة فى أوربا .

والاسلام من بين الأديان جميعا هو الذى يقرر أن عمل المرء أو جهده يرفعه حتى يصل الى أعلى المراتب مثلما وصل كثير من العلماء المسلمين الى مرتبة الوزراء والقضاة دون نظر الى نسبهم . والاسلام يفرض الزكاة على أغنياء المسلمين وهى تصل الى جزء من أربعين جزءا تنفق على الفقراء والمحرومين ، ولو طبق هـذا النظام لاستطاع الفقراء أن يعيشوا فى طمأنينة الى جانب الأغنياء ، والرسول يقول « الناس شركاء فى الماء والكلأ والنار » وتلك صورة واضحة من أقوى صور الاشتراكية التى التفت اليها رجال الاجتماع فى العصر الحديث .

وقد وصلنا من تعاليم الاسلام ما يؤيد دائما الاخاء والمساواة بين المسلمين جميعا ، فأبو بكر الصديق يقول للناس : « لقـد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى » وعلى بن أبى طالب يقف أمام القاضى الذى عينه هو نفسه ، وعمر يقول : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . أليس كل ذلك دليلا على هذه المساواة التى لا يتميز فيها انسان على انسان الا بعلمه وعمله وتقواه . وهل الطبقات الاجتماعية فى أوربا التى

يحاول المصلحون الآن أن يذيبوها عن طريق دعواتهم الاشتراكية أكثر صلاحية للمجتمع من نظام الاسلام .. ان على الأوربيين أن يدرسوا الاسلام وعندئذ سوف يجدون من نظمه ما هو جـدير بتطبيقه فى بلادهم نفسها . وليس عيب الاسلام أن تضعف الدولة فيقوم بأمرها طغاة مستبدون لا يعرفون الا مصالحهم الشخصية وليس عيبه أيضا أن يوجد من رجال الدين النفعيون والجهلاء الذين زيفوا على الناس كثيرا من الحقائق .

ويعرض بعد ذلك للفصل الخاص بالروح الحربية للمصريين ويتحدث عن الثورة العرابية كدليل قاطع على وجود هذه الروح القوية عند الجيش وعند المصريين جميعا ، فلولا هـذه الروح ما قامت الثورة . فاذا فشلت الثورة فان للدسائس والخيـانات دخلا ، كما أن القوة المادية لجيش الاحتلال ، التى تدل على ضعف معداتنا ، لا تدل أبدا على فقدان هذه الروح .

ثم يتناول بعض الاصلاحات التى قامت بها الدولة كالغاء الرق والسخرية ، فلم يعد جباة الضرائب يأتون فى كل حين ، ولم يعد من حقهم أن يلهبوا ظهر الفلاح بالكرباج ، فقد حددت مواعيـد الضرائب وثبتت ماليـة الدولة ونظمت ايراداتها ومصروفاتها ، وانتشر التعليم وان يكن فى مراحله الأولى ، ولكن الأمل كبير فى تطور سريع يعود بنا الى النظام الديمقراطى الأول .

وينتقل الى الفصول الثلاثة الخاصة بالمرأة فيتناول الموضوع من جوانبه المتعددة — منزلة المرأة وتعدد الزوجات والطلاق . أما فيما يختص بمنزلة المرأة فليس للدين دخـل فى ذلك ، لأن

الاسلام قد سبق كل شريعة سواه الى تقرير حقوق المرأة كاملة قبل أن تعـرفها أوربا باثنى عشر قرنا فهى حتى ان تزوجت تحتفظ بحقوقها المدنية ، فلها الكفاءة شرعا أن تحتفظ بتلك الحقوق وأن تتصرف فى مالها من غير اذن زوجها كما هو فى فرنسا ، بل ليس للزوج عليها الا سلطان معنوى ومعاملة بالمعروف . واذا كانت المرأة الشرقية محجبة أو متأخرة عن زميلتها الأوربية فان ذلك يرجع الى عصور الجهالة والظلم . على أن الحجاب فى مصر ليس معناه السجن فى المنازل كما رأى الدوق ، فان النساء يخرجن للزيارات وللأسواق ، وهن بعيدات كل البعد عن تلك الصورة المظلمة التى رسمت لهن . ولكن الحقيقة التى لابد من التسليم بها هى الجهل ولكن الأمل معقود على الرغبة الموجودة عند الرجال فى تثقيفهن حتى يكون الجيل الجديد أكثر تبصرا اذا ما تربى على أيدى نساء مثقفات .

ولا يرى قاسم أمين فى تعدد الزوجات ولا فى الطلاق هـذه البشاعة التى يراها كتاب الغرب ، لأن كثيرين من رجال أوربا يصادقون على زوجاتهم ، وهو نوع أسوأ من تعدد الزوجات لأن أثره أقسى على المجتمع من أثر تعدد الزوجات ، فهناك زوجات بلا أزواج ، وأبناء بلا آباء . وقد أدرك المشرع الاسلامى كل هذه الأخطار فحلل تعدد الزوجات ، وسمح بالطلاق . حلل تعـدد الزوجات وجعل الأصل واحدة ، وشدد فى حالات التعـدد حين اشترط العدالة بين الزوجات ، وهو مستساغ فى حالات مرض الزوجة مرضا مزمنا أو فى حالات العقم ، كما أنه أباح الطلاق اذا

ما فسدت العلاقة بين الزوجين ولكنه أوجب الوساطة بين الزوجين وجعل الطلاق أبغض الحلال الى الله .

فاذا ما انتهى قاسم من المرأة المسلمة عاد الى المرأة الأوربية ليكيل للذوق الصاع صاعين ، فيورد احصاء قاسيا يدل على أن ربع المواليد فى فرنسا غير شرعيين ، ويؤكد أن المرأة الباريسية هى التى تعيش لغرائزها ، ولا شك أن مرجع كل ذلك الى الاختلاط الشديد بين الرجل وبين المرأة التى تهيأ لها كل ظروف الرذيلة . فهناك النزهات الطويلة حيث يقضى الرجل والمرأة وقتا فى جو مثير للأحاسيس حين يخلوان الى نفسيهما على العشب ، وهناك حمامات البحر حيث ترتدى المرأة لباسا يبرز كل تقاسيم جسمها ، وهناك الحفلات الصاخبة والولائم المليئة بكؤوس الخمر ، حيث يصطحب الصديق زوجة صديقه ، فتنعقد الألسنة ويفقد الجميع ارادتهم وعقولهم ولا تسيطر فى هذا الجو الا النزوات والعواطف الجامحة. ثم هناك بعد ذلك الحفلات الراقصة حيث تلبس النساء ثيابا شفافة عبث بها المقص من كل ناحية ، وتلتف الساق بالساق وتلتصق الأجسام ، ويحتضن الرجال النساء ويتحركون مع أنغام الموسيقى والرؤوس على الأكتاف . فهل بعد كل ذلك تهتك ، وهل تتوقع الا الانحلال الخلقى .

أما فى مصر ، فنحن نؤثر الفضيلة على كل ملذات الدنيا ، بل على الحياة نفسها ، وتلك تقاليد المسلمين ومشاعرهم على مدى القرون السابقة ، ومن أجل ذلك حافظنا على نسائنا من كل

ما يفتنهن ، وكل هذا قد وثق الروابط الأسرية عندنا بينما أدى التسامح المعيب فى الغرب الى تفككها .

ثم يتناول فى الفصول الأربعة التالية ، الدين والأخلاق والاسلام والبناء ، والعلوم والآداب . فيفسر أصول الاسلام الخمسة وما فيها من بساطة بحيث لم يتبدل جوهر الاسلام مع تطور الحياة طوال مئات السنين لأنه صالح لكل زمان ومكان . أما القرآن فهو كتاب خلقى خالص ، فى آياته فلسفة واقعية فكرية ، كما ينطوى على مبادىء انسانية عامة لها أثرها الجليل فى الاجتماع والتشريع ، والقرآن هو الذى بث فى نفوس المسلمين وحدانية الله، وأشاع بينهم الاخاء والمساواة ، وألف بين قلوبهم بالصدق والكرم والاخلاص والتسامح والأمانة ، وكل هذه الصفات طبعت المجتمع الاسلامى الأول ، فالقرآن هو الذى خلق من القبائل البدائية المتشاحنة ، شعبا موحدا نسى أحقاده وضغائنه ، قويا استطاع أن يهزم أكبر قوتين فى العالم اذ ذاك . وليس عيب الدين أن تنحرف الأخلاق عن تعاليمه لأن المسلمين اليوم قد حادوا عن تعاليم الاسلام ، فتهاونوا وانقسموا على أنفسهم وامتلأت حياتهم بالحقد والهوى والكسل والجهل والتعلق بالخرافات ، وكل المساوىء التى شاعت بينهم .

فالاسلام لم يأمر المستبدين بالاستبداد ولا المستضعفين بالخضوع ، وهو قد وحد بينهم فانقسموا وتفرقوا شيعا ، وأمرهم بالقوة فتكاسلوا وعلمهم التسامح فحقد بعضهم على بعض ، وحين بنى المسلمون كيانهم الاجتماعى على أخلاق الاسلام كان مجدهم

الخالد ، فلما تخلوا عن تلك الأخلاق بدأ ذلك الكيان فى الانهيار .

أما عن موقف الاسلام من العلوم والآداب فقد فصله المستشرق الفرنسى « سنديو » . ولم يحل الاسلام بين المسلمين وبين البحث فى العلوم والآداب ، ولم يقف حجر عثرة فى سبيل استكشاف الحقائق العلمية ، بل هو قد حث على العلم والعمل . وأحاديث الرسول فى ذلك كثيرة منها : « اذا قامت الساعة وفى يد أحدكم غرسة فليغرسها » ومنها « اطلبوا العلم ولو فى الصين » . وفى القرآن آيات تحض المسلم على أن يفكر فى خلق السموات والأرض . « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت » . وانما عاق الجهلاء تقدم الركب حين فسروا القرآن حسب أهوائهم فى عصور الضعف فتسربت الى الدين أوهام وخرافات وفهم الناس كما يفهم السائحون الأوربيون أن الاتكال والفقر والأباطيل مما وعد به المسلمون ، ولكن الاسلام اذا درسه الغربيون دراسة بعيدة عن التعصب كان دين المستقبل تجتمع تحت رايته الانسانية كلها وتستمد منه نظمها . ويبلغ قاسم الفصل الأخير من كتابه فيخصصه للحديث عن « أوربا » وهنا يلتهب حماسة وغيرة على وطنه . فأوربا التى تأخذ علينا الضعف والفقر والجهل هى التى تقيم فى سبيل تطورنا العقبات والسدود . وفى كل مظهر من مظاهر حياتنا نجد الأيدى الأجنبية تعبث بمصالحنا فى سبيل منفعتها الخاصة . ففى ميادين التجارة أحالتنا الدول الأوربية الى سوق لسلعها ومنعت

قيام الصناعات الوطنية ، وعارضت فى فرض رسوم جمركية على بضائعهم ، ورعاياهم يعيثون فى الأرض فسادا فتحميهم المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية .

وقد سيطروا على بلادنا سياسيا وعسكريا وخنقوا كل مشروع وليد وسدوا كل منفذ يصل الينا منه الهواء النقى وأقاموا الحصون التى تمنع تطورنا ، وحتى فى ميدان التعليم تأخرنا درجات عما كنا عليه منذ أعوام ، قبل التدخل الأجنبى ، وملأوا حياتنا بزيف الحضارة الأوربية ، وحاولوا أخيرا أن يهدموا بقية البناء الاسلامى. فكيف يستطيع وطن أن يتقدم وساقاه مكبلتان بقيود الأجنبى وخطواته رهن اشارة منه ؟

وهكذا انتهى قاسم من كتابه ، وأحس أنه قد أضاء نور الأمل فى حياتنا ، بعد أن حاول الدوق الفرنسى اطفاء الشعلة التى كانت تتأجج فى قلوب الشباب وعقول المفكرين . وأحس براحة نفسية كبيرة ، وبأنه قد قام بسد فجوة كان من الممكن أن يتسرب منها الشك فى امكان الاصلاح ، ورد اللطمة بلطمات .

ولكنه منذ ذلك الوقت بدأ يبحث فى عيوب المجتمع ومشاكله، وبدأ تفكيره يتخذ شكلا ايجابيا ، وبدأ يضع أصابعه على كثير من النقط التى أثارها الدوق داركور ، ليعيد البحث فيها بحثا هادئا عميقا ، يقوم به مصرى مسلم يعمر قلبه بحب وطنه ، ولكن الحب الحقيقى ليس معناه السكوت على المساوىء وليس مفهومه عنده أن يرد عيب الناقدين ويبرز المحاسن ، ولكن الحب الحقيقى قد

يتمثل فى النقد اللاذع والتوجيه ما دام الهدف حسن النية [1] .

وكأنما كان هذا النقاش الحاد نهاية ليل مظلم طويل ، رماه فى جنبات الشك حينا ، لكنه كان يؤذن بصباح جديد . وأحس قاسم أنه يستطيع أن يحمل عبء الاصلاح ولو سار وحده ، وأن فى عنقه دينا لابد أن يوفيه كاملا .

---

(١) خاكى ص ٨٠ .

الفصل السابع

براعم الإصلاح

مضى عام مسرعا على قاسم أمين ، فأيام الهناء تمضى دائما عجلة لا تتأنى فى مسيرها . وأحس أنه حقق فى هذا العام أشياء كثيرة لنفسه ، فقد أصبح مستشارا ، وأصبح رب أسرة ، ولكنه لم يحقق الا القليل لوطنه . وأعقبت هذه السنة فترة كانت تشعل قاسما فيها أمنيات كبيرة ، فترة كانت تمهيدا لظهور المصلح الاجتماعى ، فقد ظهرت بواكير نزعاته الاصلاحية منذ أن رد على الدوق وأخذ يلتفت حوله فيجد الميدان الاجتماعى قد أعرض عنه أكثر الرواد ، فبدأ يكتب سلسلة مقالاته التى جمعت فيما بعد تحت عنوان « أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ » ، ونشرها فى جريدة المؤيد متتابعة حتى عام ١٨٩٨ .

رأى قاسم بعد أن فكر مرة ومرات فيما كتبه الدوق الفرنسى أن بعض ما عرض له كان على حـق فيه ، وأنه قد وقف موقف المدافع عن دينه وعن وطنه وعن نفسه وعن آماله أيضا . أما اليوم فان عليه أن يكشف الستار عن عيوب مجتمعه مهما كانت مرة المذاق — من أجل الاصلاح . فنحن الذين ارتكبنا الأخطاء ونحن

الذين نستطيع أن نتلافاها . فأسباب السعادة والشقاء ليست وليدة المصادفة ولكنها وليدة عوامل ومسببات اذا تغيرت ، كان التطور المنشود مؤكدا .

وقد تضمنت هذه السلسلة تسعة عشر مقالا تدور حول ثلاثة عناصر . أولها حول المال ويشمل المقالات السبع الأولى ، وثانيها حول أسس التربية السليمة ويستغرق المقالات السبع التالية ، وتلك هى المقالات التى جعل عنوانها « أسباب ونتائج » . أما العنصر الثالث فهو يدور حول موظفى الدولة ويستغرق خمس مقالات أسماها « أخلاق ومواعظ » .

والواقع أن وطنية قاسم كانت الدافع ، وما أقوى هذا الدافع من أجل اصلاح الوطن ، وكانت شخصيته بما فيها من جرأة وحب للتعمق الى جذور المشاكل وتجاربه المكتسبة من حياته فى أوربا ومن توليه منصة القضاء ، كفيلة بأن تهيىء له سبل النجاح فى ذلك الطريق الوعر الذى اختار السير فيه .

يعرض قاسم فى مقالاته الأولى لفكرة عرضها من قبل « الدوق داركور » عرضا سيئا ، وهى انصراف المصريين عن حب المغامرة . فيرى قاسم الحقيقة ماثلة أمامه فنحن نقنع دائما بما دون اليسير ، بالكفاف من العيش ، فى حين أن الحياة مجال تنافس حر من أجل حياة أفضل ، وليس حب المال هو الدافع للصراع ، ولكنه حب الحياة الكريمة ، والبقاء للأصلح دائما . والأمر لا يقتصر على النتيجة الحتمية للتكاسل عن جلب الرزق ، وهى الفقر ، ولكن الأهم أننا قد أصبحنا مجال صراع الأمم الغربية من أجل السيطرة

علينا ، ونحن نحول وجوهنا بعيدا عن ميادين الصراع ، كأننا أبناء كوكب آخر حضرنا الى هذه الدنيا للنزهة والتسلى بالنظر الى أهلها أياما ثم العودة الى أوطاننا بعد ذلك بسلام .

ان الوطن مجموعة من الأفراد أولا ، فهل يمكن أن يثرى الا اذا ثرى أبناؤه ؟ وهل يمكن أن يثرى الأفراد اذا لم يتعودوا الاعتماد على أنفسهم والمغامرة بجهدهم فى كل سبيل ؟ ان الأجنبى يأتى خالى الوفاض يحترف أصغر الحرف وهى أشرف من التكاسل والبطالة على أية حال . واذا ربح اليوم قليلا فغدا سيربح كثيرا حتى يصبح من الأثرياء بعد سنوات قليلة . لأن العمل شغله الشاغل فى النهار وفى الليل ، فهو يلاحظ كل شىء ويجرب كل شىء ، جسمه يتحرك باستمرار ، وذهنه يعمل دائما ، كأنه آلة متى غادر الفراش أدار لولبها فتدور حتى آخر الليل . وكأنما كان يحس أن وظائف الحكومة سوف تضيق دائرتها بعد حين فهل يموت المصريون جوعا ؟ لا ، فالحياة فسيحة ومجال العمل الحر هو الميدان الحقيقى لذوى الهمم والباحثين عن الدر ، أما «الميرى» فليس وراءه الا التراب .

وبعد أن عرض للموضوع عرضا عاما وضرب الأمثلة بالأجانب ، بدأ يلتقط صورا لأبناء وطنه وتجول عيناه فى الأسواق حيث التجارة ، فيجدها بدائية كأنما هى من مخلفات الطوفان كما يقول ، بضائع قليلة نادرة الاستعمال ، موضوعة دون تنسيق ، وصاحب المتجر يطرد الذباب عن وجهه لا عن بضاعته ، جالسا جلسة بهيمية لا يتخللها تفكير ثم يحول عدسته الى قطاع آخر ، قطاع الأطباء

والمهندسين من موظفى الحكومة ، فلا يجدهم فى معاملهم ولا فى مكاتبهم وانما يعثر عليهم يملأون أرصفة المقاهى ، خلت حياتهم من كل طموح شريف فيردد الحديث الشريف : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا .. » . اعمل لدنياك من أجل ترقية عقلك وتربية أولادك، ومن أجل المجتمع الذى تعيش فيه . اننا نشكو جميعا ، ولكننا نحب أن تمطرنا السماء ذهبا وأن تنبت الأرض فضة .

ثم يحاول أن يتعمق جذور المشكلة فيجدها ترتد الى عاملين : سوء معاملة الحكومات السابقة فانها بغدرها وظلمها أفقدتنا ملكة الاقدام على العمل ، ثم بعد ذلك سوء التربية ، فان الأمثال المثبطة للهمة التى يلقنها النشء ، وتكرار سماع القصص التى وضعها الحكام لتسلية الفقير وازالة ضغائنه ، قد اتفقت مع رغبتنا فى التكاسل ، فنشرناها ووشيناها حتى تشربت بها أرواحنا وعقولنا ، فضعفت قوانا حتى اذا ناديناها خانتنا . « وهذا هو السر فى أن جميع الأعمال القليلة التى شرعنا فيها كتأسيس مدرسة أو انشاء جمعية أو تشكيل ناد أو عقد شركة ، لم تعش الا بقدر ما تعيش الوردة » .

وقد يحتقر أصحاب الرتب والألقاب والعاطلون بالوراثة ، الذين يزاولون الأعمال الحرة عن طريق المتاجرة ، ويرون أنهم بتلك النياشين أرفع انسانية من أولئك الذين يباشرون بأنفسهم حل وعقد البضائع ويقفون فى محالهم باشين فى وجوه الوافدين . ولهذا لم يدخل ميدان التجارة الا فئة قليـــلة برهنت على ارادة واقدام وأصالة رأى . « ولو قارن أى انسان لم يعمه الجهل بين

هؤلاء التجار الذين دخلوا فى ميدان الحياة وألقوا بأنفسهم فى معامع الكفاح والتنازع حتى خرجوا منها فائزين ، وبين أولئك الذين أثروا من العطايا والمنح التى كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج أو لسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى أى فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر. وقد مرت على أوربا أزمان كان فيها أمراء البلاد متى قدم لهم رجل يسألونه : ابن من أنت ؟ ثم أتى حين بعد ذلك كانوا يسألونه فيه : ماذا تصنع ؟ ..

« ان الأوربيين يجمعون الأموال الهائلة لا لأن الله خلقهم أشد منا عضلا وأتم تركيبا ، ولا لأنهم أوتوا مفاتيح كنوز خفية لا يمكن أن نصل اليها نحن ، بل لأنهم فهموا أن التجارة هى علم الثروة وهى علم حقيقى لا يقل فى الفضل عن أشرف العلوم »[١] .

ومع قلة المكافحين فى مجتمعنا من أجل الحصول على الثروة المعقولة ليعيشوا حياة كريمة ، فما مصير تلك الثروات من بعدهم؟ التبديد ولا شىء وغير ذلك . فقبل أن تجف دموع الباكيات تستطير نيران الشقاق بين الورثة بدافع الغباء والطمع وتنفق الأموال على القضايا ، فاذا بقيت بقية بعد ذلك فنهايتها وشيكة على موائد القمار وجحور الراقصات . وذلك البيت الذى كان يعمر بالقصاد وكان مظهرا للجلال ، أصبح خاويا يسكنه العنكبوت أو يسكنه غلام سفيه . ليت هذا التبديد يعود بالنفع على المجتمع فى صورة من الصور ، ولكنه كثيرا ما يخرج الى أيدى المرابين

(١) أسباب ونتائج ص ٣٢ — ٣٤ .

ومصاصي الدماء ممن يتزاحمون على كل وارث جديد يفسدونه ويقرضونه حتى يحين الوقت لينقضوا عليه . وهل يرجع كل ذلك الا الى سوء تربيتنا لأبنائنا ؟ لقد حاول بعض الآباء أن يتجنبوا ذلك المصير بوقف أملاكهم ، فهل أدى الوقف الى النتيجة المرجوة؟

ان مقصد الشرع الشريف ألا تكون هناك حوائل بين نية الخير وعمله ، وهذا هو الهدف الأول من الوقف . وهذه الحرية فى التصرف أمام نزعة الخير لم يصل الى درجتها كثير من الشرائع والقوانين الأجنبية وعلى الأخص القانون الفرنسى .

ان قاسما لا يزال متأثرا بحديث الدوق فيما يختص بالأفراد ، موافقا له فى آرائه ، ولكنه ان تعرض للشريعة السمحاء اختلف معه ، وحاول أن يجنبها تحمل النتيجة التى وصل اليها المسلمون ، بل حاول أن يوضح مزاياها اذا ما قورنت بقانون وضعى آخر .

ويعود قاسم الى الوقف وقد عرفنا رأيه فيه كلما عرضت عليه قضية من قضاياه ، يعود اليه الآن أقسى هجوما بعد أن تحول عن مقصده الأول . « فالمســاجد والتكايا والكتاتيب والمارستانات والمرتبات التى تعطى لطلبة العلم والفقراء ، ونرى آثارها العديدة أو معالمها القائمة منتشرة فى البلاد طولا وعرضا تشهد لأجدادنا (أولئك الصالحين المحسنين المتبصرين) أنهم كانوا رجالا يعملون بعقل وروية لاصلاح شئون بلادهم ومنافع أمتهم . أما الآن فقد صار الوقف عملا من الأعمال الاحتياطية التى يتخذها الأغنياء ضد أولادهم »[1] .

---
(١) أسباب ونتائج ص ٣٩ .

ولكن الوقف لم يؤد حتى هذه الوظيفة ، فان الأبناء السفهاء يستدينون ويستدينون حتى يستغرق الدين ايراد الوقف لسنوات طويلة مقبلة . والأملاك الموقوفة نفسها قد تحولت الى خرائب لاهمالها وسوء ادارتها وتنـازع الورثة الذى لا ينتهى . اذن فلا سبيل أمامنا الا أن ننظر الى الوقف على أنه قد حاد عن مهمته فى أصلها الأول فنطالب بالغائه أو أن نحاول الاصلاح ان كان لدينا بقية أمل . ولا يكون الاصلاح الا بشرطين : الأول أن يخصص الواقف جزءا من ريع أملاكه الموقوفة للانفاق منه على الصالح العام كانشاء مدرسة أو مستشفى أو مساعدة الأسرة الفقيرة التى فقدت عائلها أو منح مكافآت سنوية تشجيعية لمن يؤلف أحسن كتاب فى تاريخ الاسلام أو يترجم عددا من الكتب الأجنبية التى يجب نشرها فى بلادنا . أما الشرط الثانى فهو أن يعين الواقف الأشخاص الذين يديرون الوقف من أهله أو أصدقائه أو غيرهم ممن يثق بهم ويرى فيهم الاستعداد لأن كل وقف تمسـه يد الحكومة ليس للأمة منه نصيب .

ألا نرى من ذلك أن قاسما قد سبق عصره بأكثر من نصف قرن حين طالب بالغاء الوقف ؟ وأن كل تفكيره كان يتجمع فى بؤرة واحدة رغم تعدد جوانبه ، هى الوطن ؟ ولكن قاسما حتى الآن قد وضع أيدينا على مواطن الضعف فى جانب هام من حياتنا الاقتصادية ورأى أن المغامرة فى التجارة بعد التسلح بالعلم كفيلة بانعاش حياتنا الاقتصادية ، ثم وضع أيدينا على موطن آخر من مواطن الضعف حين وجد الثروات تتبدد فى غير الصالح العـام

للمجتمع ، تارة على أيدى الراقصات وتارة أخرى بسبب اللعنة التى حلت بالأملاك الموقوفة ، فكيف ينفق المال اذن ؟

ان رأى قاسم فى هذا الموضوع يعتبر رأيا تقدميا من مصلح واع لمشاكل مجتمعه ، مطلع على الحيـاة الاجتماعية فى البيئات الأخرى . فان كان كسب المال عسيرا ، فأعسر منه معرفة الوجوه التى ينبغى أن ينفق فيها . ان المحافظة على صحة الجسم ورقى العقل أمران جوهريان . فالتقتير على النفس فى الغذاء الجيـد والمسكن الأجود ، والتقتـير على الذهن بحبسـه عن القراءة والسياحة ، اضرار بالهيئة الاجتماعية بحرمانها من العقل السليم والجسم السليم .

وحبس المال عن تربية الأبناء كفيل بأن يؤدى الى النتيجة السيئة السابقة ، حيث يرث الجهلاء من بعد هذا المال فلا يدرون سبل انفاقه ومن هنا يتسرب الى حجور الغانيـات أو الموائد الخضراء ، بينما انفاقه من أجل التربية الواجبة للأبناء تكون عاقبته الخير دائما من أجل الأبناء أنفسـهم ومن أجـل المجتمع الذى يعيشون فيه .

ثم يضرب المثل بالغربيين ويرى أن أغنياءنا لو عرفوا كيف ينفق الأوربيون أموالهم ، « لماتوا خجلا ان كانوا يألمون ويخجلون » . ففى كل مدينة أوربية عشرات الجمعيات الخيرية ، هـذه تهتم بالفقراء ، وتلك بالمرضى ، وثالثة تعين المخترعين والمكتشفين ، ورابعة تنفق على المدارس الأهلية ، وغيرها كثيرات .

« فلو فرضنا أن رأس مال أحدهم يساوى مائة ألف جنيه ،

فأوصى بنصفه أو ثلثيه الى وجه من وجوه الخير وحفظ الباقى لورثته ، فقد وفق بين مصلحتهم الخصوصية وبين المنفعة العامة . وليس من النادر كذلك فى أوربا أن يحرم شخص جميع ورثته من كل ماله ويعطيه لجمعية خيرية اذا تبين له أنهم على أخلاق فاسدة . فما لنا لا تقتدى بأمثال هؤلاء ونحن أولى بأعمالهم منهم اذ أننا على دين من أركانه الزكاة وفيه أن اطعام المساكين كفارة للذنب »[1] .

أليست هذه النظرة قريبة قربا شديدا من فكرة الاشتراكية الاسلامية ؟ ان الحكمة وراء نظام الارث فى الاسلام تكمن فى مصلحة الجماعة . فالاسلام رغم أنه يقر الملكية الفردية فانه يقدر ما فى قيام الملكية الكبيرة واستمرارها من خطر الطغيان من جانب الأغنياء ، والشعور بالظلم الناشىء عن تفاوت الحظوظ المادية من جانب الفقراء ، لذا تجد أن نظام الارث أداة لتفتيت الثروات الكبيرة على توالى الأجيال الى ثروات متوسطة . ولقد وضع الاسلام للتكافل الاجتماعى التشريعات والتوجيهات التى تحققه عمليا فى المجتمع كالزكاة وهى حق اجتماعى وليست منحة ، كما أنها عبادة من العبادات ، وكالكفارة للذنوب باطعام المساكين . وهكذا حاول قاسم أمين — الرجل الثرى — أن يوجه الأغنياء فى بلده الى حق المجتمع فى مالهم والى تقصيرهم فى أداء ما عليهم من حقوق ليتساند المجتمع فى تلك الفترة التى يحاول فيها المصلحون اعادة بنائه .

---

(١) أسباب ونتائج ص ٤٥ .

ثم يعود فيتعمق المشاكل الاجتماعية ، فيجد أكثرها ترتد الى سبب جوهرى ، هو اهمال التربية الروحية ، التى تعود الطفل أن يفهم الفضيلة والرذيلة ، وأن يمارس الفضيلة ويتجنب الرذيلة ، ولا سبيل الى ذلك الا أن تكون الأسرة التى نشأ فيها الطفل قد فهمت دورها حق الفهم .

« وأول أساس يقوم عليه بناء التربية الشريفة هو الأساس الدينى . فالدين للانسان هو الشىء الوحيد الذى يمثل بين يدى كل نفس صورة الكمال الحقيقى . وغرس بذور محبة الدين فى نفس الطفل يجعل وجهته فى كل حركاته وسكناته نحو الكمال فى كل شىء ، ويخلق عنده رغبة كاملة فى كل ما يراه جميلا »[1] .

واذا تغذى بعد ذلك غذاء عقليا قوامه التاريخ الإسلامى وسيرة الرسول والخلفاء الراشدين والسلف الصالح الذين نعتبرهم من الأمثلة العليا فى حياتنا ، بدلا من القصص الخرافية التى تجترها الأمهات ليلا ونهارا ، اذا حدث ذلك فلا شك فى أن أطفالنا سوف يجدون أمامهم معينا لا ينفد من قوة الخلق وعزة النفس ونبل الاحساس ينهلون منها ويشبون عليها ويقتدون بها فى حياتهم ومستقبلهم . وقد يحسب الناظر للوهلة الأولى سيطرة هذا الاحساس ولكن الواقع أن جذور الاحساس الدينى غير عميقة فى حنايانا ، حتى أولئك الذين تربوا فى الأزهر تربية دينية خالصة ، يحفظون عن ظهر قلب الأحكام الشرعية ، أما التطبيق العملى فى الحياة فشىء آخر .

(١) أسباب ونتائج ص ٥٦ .

أما الأساس الثانى فهو تنمية المشاعر الوطنية عن طريق النظر الى الوطن كشىء جليل مقدس ، والحديث عنه بهذه الهالة . وليس لعمل فرد منا قيمة ولا لوجوده اعتبار ذاتى ، ولكن انضمام الفرد للأمة يخلق قوة عظيمة ، وعمله من أجله هو العمل الخالد . وهذا التراث الذى نعيش عليه عمل أجيال وأجيال من أجلنا ، فينبغى أن نعمل من أجل الأجيال القادمة . والوطن هو الذى يمثل للذهن هذه السلسلة مرتبطا بعضها ببعض ، ولسنا الا حلقة فيها .

والأساس الثالث هو مراقبة الوازع النفسى أو تنمية الضمير. وأى الناس يحاسبون أنفسهم عن أعمالهم وعلاقاتهم بالناس ؟ ان أكثر الناس يراقبون دائما غيرهم ويصدرون أحكامهم باداتتهم فى أكثر الأحيان . فلو عودنا أطفالنا أن يحاكموا أنفسهم أمام محكمة الضمير لتجنبوا تأنيب الضمير الواعى ، وحاسبوا أنفسهم قبل غيرهـــم .

وبعد أن تحدث قاسم عن أهمية التربية وأسسها ، بدأ ينظر نظرة نقدية تلحظ عيوب التربية فى مجتمعنا ، وتلك هى الخطوة الأولى للاصلاح دائما . وأول ما تقع عليه عينه هو حب النفس . وحب النفس فطرة فى الانسان ، ولكنه اذا تضخم بحيث يصل الى درجة الأنانية ، والسعى من أجل الصالح الخاص بغض النظر عن الاضرار بالغير ، كان رذيلة مدمرة . والواقع أن الدين والتربية قد رسما لهذا الاحساس حدوده ، فكل منفعة لا تضر بالغــير مباحة . وأعلام التاريخ اذا درسناهم لم نجدهم مجردين عن هذا

الاحساس ولكنهم استطاعوا أن يلائموا بين حب الذات وحب المجموع ، فجعلوا المصلحتين كلا لا يتجزأ .

ولكننا ننظر فنرى الفرد من أجل منفعته الشخصية لا يتورع عن ارتكاب كل كبيرة ، ولعل هذا كان نتيجة حتمية للاستبداد الذى عانينا منه زمنا ، فهو أصل كل فساد فى الأخلاق . ولذلك ينبغى أن نعود أبناءنا على حب الاجتماع حتى يصبح فطرة مثل الغربيين ، فلا تؤدى الأنانية الى انحلال روابط المجتمع .

فكرة الاستبداد أصل كل فساد فى الأخلاق سبق بها قاسم ورددها من بعد عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه «طبائع الاستبداد» وفصل الحديث عنها فبين كيف يؤدى الاستبداد الى فساد الثقافة وفساد الاقتصاد وفساد السياسة وفساد الحياة الاجتماعية والعلاقة بين الأفراد . والفكرة كما قلنا كانت معروفة عند رجال الاجتماع فى أوربا قبل قاسم والكواكبى .

واذا كانت الأنانية من العيوب الخطيرة ، فان التراخى والتكاسل لا يقل خطورة . « نحن كسالى فى الصباح وفى المساء ، نقوم من النوم كسالى ونذهب الى النوم كسالى ونعيش بين هذين الوقتين كسالى » . تاريخ حياة كل فرد منا يضيع أكثره فى لا شىء، يضيع فى الأكل والشرب والنوم واللهو التافه والأقوال الفارغة والجلوس على المقاهى دون أن نهتم بسلامة الجسم وصحة العقل. متى حصل أحدنا على وظيفة انتهى كل طموحه الثقافى فلم يعد يفكر الا فى العلاوات والترقيات وقلما يفكر فى أن يزيد ثقافته فى فنه بالبحث مثلما يفكر غيرنا . ومن هنا ادعى بعض الغربيين أن المصريين

جنس لا يصل الى مستوى الجنس الأوربى الراقى . وهو زعم استعمارى واضح الهدف والتاريخ أعظم شاهد على بطلانه . وكثيرا ما رأينا طلبتنا يتفوقون على الطلبة الأوربيين فى البعثات . ولكنهم حين يعودون يألفون جو التراخى فى أغلب الأحيـان .

والسبب الحقيقى هو اهمالنا التربية ، واهتمامنا بالتعليم وحده ، فعرفنا الأنانية ، وتراخينا عن طلب العلم نفسه ، وفقدنا الاحساس بالاحترام .

والاحساس بالاحترام للحكومة من قبل الفرد واجب ما دامت لم تنحرف ولم تستغل ، وما دامت تسعى الى ما فيه صالح الأمة كما ينبغى . ورباط الأسرة يلزم أن يكون أساسه الاحترام المتبادل ، فلا يتغلب هوى النفس ، ونجد الرجل يتزوج ليطلق ، ويشيد ليهدم ، ويستخدم أبغض الحلال الى الله بطريقة شائنة تجنى على المجتمع وعلى الأبناء بتشريدهم .

ومن أقبح ما يشين أخلاقنا القسم بالطلاق كل حين ، حتى فيما لا علاقة له بشئون الأسرة . ولو اقتفينا أثر واحد ممن اعتادوا هذا القسم ، « وأردنا حصر أعداد الطلاق فى الايمان الكاذبة التى يلفظونها بهذه الطريقة السخيفة لوجدناها تفوق حد النصاب الشرعى تكعيبا وجذرا » . ولا يمكن أن تصبح الفضيلة مطلوبة والرذيلة مكروهة الا اذا أحس الناس بقوة حكم الرأى العـام وسلامته . .

واذا كانت الأم فى العائلة هى المربية الأولى ، فهل من الحكمة أن تكون هى نفسها مجردة من كل حلى التربية ؟ سؤال ألقـاه

قاسم على نفسه مرات قبل أن يلقيه على الناس وأسمعه اياه الدوق الفرنسى من قبل ولكنه كان فى شغل عنه بمحاولة الدفاع عن دينه وعن وطنه وعن أهله . أما اليوم فهو يحاول أن يبحث مستأنيا متعمقا فيسمع صدى السؤال ويفكر فيه ويسأل نفسه : أم لا نستفيد من علم الغربيين وحياتهم فيما لا يمس ديننا ، ونحن بصدد الاصلاح ؟ لقد تردد قاسم قبل أن يقتنع بحديث الدوق عن المرأة المصرية لأنها الأم والأخت والزوجة والبنت ، ولكن هل يمكن السكوت طويلا وهى على ما هى عليه من جهل ؟

ان حديثه عنها أقوى ما فى الكتاب كله ، يبين لنا مدى احساسه بقيمة هذا الموضوع الخطير ، وشدة تحمسه له ، تحمس الوطنى الغيور ، لا تحمس الناقد الذى يلتقط العيوب ، كما يؤكد لنا أن قاسما قد وضع يده على النتيجة القاسية لاهمال التربية ، وعلى المفتاح الحقيقى للاصلاح ، ذلك الذى كان يبحث عنه منذ أعوام .

يقول قاسم أمين : « وانى ليؤلمنى أن أكتب حرفا واحدا ليس فيه معنى الاحترام العظيم لكل والدة ، لأن الاحترام والأمومة فى نظرى شيئان لا يسوغ فصل أحدهما عن الآخر . ولكن للحقيقة سلطان يصعب على كل ذى نفس أن لا يحس به وأن لا يخضع لحكمه . وعلى ذلك فأرانى مضطرا أن أجهر باعتراف يشق على كثيرا ، ألا وهو أن الأم المصرية لم تهيأ مطلقا لأن تقوم بوظيفتها فى العائلة ... واذا صرح لى أن أبدى كل فكرى أقول ان الأم فى بلادنا صارت مدرسة ثابتة عملها الوحيد مكافحة كل ما يتلقاه الطفل من سواها . وقد يحتار هذا الضعيف المسكين بين من يصدق ومن

يكذب ، من يتبع ومن يخالف ، الا أن مدرسة الأم لاشك فائزة على كل حال ، لأن الطبيعة تشتغل معها وتساعدها بما أودع الله فى نفس الطفل من الميل الى الوالدة ، ولأنه يعاشرها أضعاف ما يعاشر غيرها . ويكفى الواحد منا أن يلتفت الى الوسط الذى هو عائش فيه الآن ، ثم يرجع بفكره الى عهد شبوبيته الأولى فمهد طفوليته ليحكم بنفسه أن حالة الأمهات لا يمكن السكوت عليها ..

« هى مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا يجمعه بعالم الرجال فكر أو عمل . وأمة داخل أمة لها أخلاقها وعوائدها ومعتقداتها . وفى الحقيقة انهن آثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا أزمنة بعيدة .

... هى نفسها طفل كبير لا تزيد عن ولدها الصغير من جهة العقل ولا من جهة العواطف ولا تختلف عنه الا فيما ينتج حتما من اختلاف السن بينهما . فهو يحب اللعب وهى تحب اللغط وكثرة الكلام ، وهو يضرب أقرانه بيده أو بالعصا وهى تضرب قريناتها بحد لسانها ...

« وليس مرادى أننا صرنا الى حالة نكره فيها قريباتنا النساء أو أننا مجردون عن الحنو لهن ، ولكننى أقول ان المحبة الجوهرية التى تكون من اتحاد الفكر واتحاد الاحساس — هذه المحبة الحقيقية الكلية التى تمزج الشخصين وتجعلهما شخصا واحدا ، هذه المحبة التى تتمتع بها حتى مع الصديق الأجنبى عن عائلتنا عندما نأنس معه بالحديث فى الجهر وبالسكوت فى السر ، كأنما

الأرواح تناجي بعضها وتتواخى بأشياء لطيفة — لا يمكن أن توجد بين رجل وامرأة مصريين »[1] .

أما المقالات الخمس الأخيرة فهي تحت عنوان «أخلاق ومواعظ»، وتعالج وضع الموظف المصرى . ويجمع قاسم فى هذه المقالات صور الموظف الكبير الذى أعمته الأنانية عن كل حب الا عن حبه لشخصه . ويبدأ هذه المقالات فيرى « أن من يتأمل فى حركات الموظفين يشاهد منظرا عجبا ذا فصول متقنة التمثيل لنوع أخلاقهم، وفصول تتجدد فى كل آن بطرق مختلفة » . فها هو ذا موظف كبير يدعى الفضل لنفسه ونصدقه ، كثير الحديث عن أمجاده وعبقريته ونحن نؤسس شهرته بأيدينا حين ننقل عنه تلك الأمجاد ، ونحسبه من الأفراد الذين يعدون على الأصابع والذين ندخرهم لوقت الحاجة . ولكنه نجح فى أن يتخذ من حوله آلات لقضاء أطماعه . يلبس ثوب الغيور على مصلحة وطنه أمام الناس ، ولكنه أول من يأخذ طنبورته ليغني عليها نغمة المديح للمستعمرين ثم للخديو ثم للنظار جميعا . تراه فى مكتبه وحوله الزوار ، وفى بيته وحوله الهدايا ، ولا يكشف حقيقة أمره الا نفر قليل اذا تكلموا ضاع صوتهم الضعيف كما تضيع قطرة الماء فى البحر العظيم . أيحب الناس من يغشهم ، أم أن قوة التمييز عندنا لا تزال ضعيفة ؟

وهناك موظف آخر « كان دائما يتأوه معنا على حالة الانحطاط الاجتماعى من حيث الأخلاق التى نحن فيها . وكان يقول كما نقول

---

(١) أسباب ونتائج ص ٧٢ وما بعدها .

نحن : ان أكبر أعداء مصر هم المصريون الذين نسوا واجباتهم نحو وطنهم واعتبروا أن الوظائف ما خلقت الا لكى تخدمهم لا لكى يخدموها . وكنا قبل تعيينه نحكم عليه حكمنا على أنفسنا لأنه كان مثلنا يرى من الواجب على الموظف أن يقوم بالمسئولية الملقاة عليه خير قيام » . ولكنه بعد أن تبوأ مركزا كبيرا نسى كل ما قاله ولم يعد يذكر شيئا منه . كانت كلماته قلاعا اختارها للدفاع عن نفسه وحسب .

وتلك صورة ثالثة لأصحاب المعاش الذين فارقتهم الوظيفة ، فراحوا يقتلون الوقت بالجلوس على المقاهى ، ولم يفكر واحد منهم فى عمل يعود عليه وعلى وطنه بالنفع . لم يفكر واحد منهم — وأكثرهم فى صحة جيدة — أن يشترك فى جمعية ، أو حتى أن يقرأ كتابا ، كأنما كان خروجه من الوظيفة ، خروجا من الحياة نفسها ، فليس أمامه الا أن يجتر ذكرياته عندما كان يأمر هـذا وينهر ذاك ، ويلجأ اليه الناس لقضاء مصالحهم .

وتلك فى الواقع صور صادقة ، فنحن ما زلنا نشكو من اهتمام الموظف بنفسه قبل اهتمامه بمصالح الناس ، وما زلنا نرى فى كل حين أصحاب المعاش يملأون المقاهى ، كأنما الصور التى التقطها قاسم أمين للموظف منذ تلك الأيام ، لم يتبدل شىء من معالمها ، برغم تبدل معالم الحياة نفسها .

على أن فكرة التربية تسرى فى كل مقالاته ، ولكن الفكرة التى طغت على كل فكرة سواها ، هى تربية النشء . وحين فكر فى تربية

النشء فكر فى الأسرة وفى المرأة ، حتى ارتبط اسمه بعد ذلك بإصلاحها . والحقيقة أنه كان يقـارن بين المرأة المصرية والمرأة الأوربية بعد المعركة التى دارت بينه وبين الدوق الفرنسى ، وقد تمخضت هذه المقارنة فى النهاية عن مولود جديد ، هو « تحرير المـرأة » .

الفصل الثامن

محرر المرأة

عندما اختمرت فكرة « تحرير المرأة » فى ذهن قاسم عرض على صديقه أحمد شفيق أن يشاطره العمل فى تأليف الكتاب ، فاعتذر بأن الأفكار لم تتهيأ بعد لقبول مثل هذه الدعوة [1] . وزاد اعتذار الصديق من حماسة قاسم أمين ، فلو انتظر المصلحون دائما رضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه فى العصور البدائية[2] .

انه يستطيع أن يمضى وحده ليهيىء الأفكار للاصلاح الاجتماعى ، اصلاح نصف المجتمع ، يستطيع أن يمضى دون أن يخشى طعنة من رجال الدين فى اسلامه ، فمحمد عبده أستاذه مفتى الديار المصرية ، فليمض اذن فيما اعتزمه . وهو لن يكون أول داعية الى تحرير المرأة من الجهل فأمامه نخبة من المصلحين . فهناك رفاعة الطهطاوى فى كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » الذى تحدث فيه عن تعليم الفتاة « فان هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام

(١) أعمالى بعد مذكراتى ص ٣٥٢ .
(٢) كلمات ص ٢٦ .

والرأى ، فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال ما فيهن من سخافة العقل والطيش مما ينتج من معاشرة المرأة الجاهلة لمرأة مثلها » . وهناك الشيخ محمد عبده الذى كان يرى أن من محاسن الاسلام مساواة المرأة بالرجل فى الأمور الجوهرية ، أما تعـدد الزوجات فان الاسلام لم يجوزه الا لضرورات اجتماعية ، ولذلك ينبغى اصلاح الحياة الاجتماعية فيما يمس حياة المرأة[1] .

وتناول الموضوع أحمد فارس الشدياق فى كتابه « الساق على الساق » كما تناوله عبد الله النديم على صفحات الأستاذ وعلى مبارك فى الجزء الثانى من كتابه « طريق الهجاء والتمرين على القراءة فى اللغة العربية » وكلهم تحدثوا عن وضع المرأة وحقها فى التعليم ، ولكن أحدا منهم لم يتناول سجن المرأة وحجابها ورأى الدين فى الحجاب الشرعى .

ويعود فيذكر يوم رأى فى شارع الدواوين « امرأة تمشى وأمامها خادم ، يظهر من هيأتها أنها من عائلة كبيرة ، طويلة القامة ممتلئة الجسم عمرها بين العشرين والثلاثين ، فى وسطها حزام من الجلد مشدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقا تاما . الجزء الأسفل بارز عند الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل ، والقسم الأعلى غير مستور ، وانما الملاءة مشبوكة فى رأسها مسدولة على كتفيها وذراعيها الى المرفقين . على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق ، أقل عرضا من الوجه تحجب فاهها وذقنها

---

(١) الاسلام والتجديد ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ .

حجابا لطيفا شفافا ، كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر ، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر الى منتصف الرأس مكشوفة . كانت تمشى خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجا كما تفعل الراقصة على المسرح ، وكانت تخفض جفونها بحركة بطيئة وترفعها كذلك ، وترسل الى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام ، وبالاجمال كان مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم»[١].

أهذه هى المرأة المحجبــة التى يحتج بعفتها المحافظون ؟ انه يذكر أيضا يوم أن رد على الدوق الفرنسى وعرض بالسفور وظنت الأميرة نازلى فاضل أنه يعرض بها ، فاحتال ســعد زغلول حتى جمعه بها فى مجلسها ، ورآها سافرة تناقش محمد عبده وعلى يوسف وعبد الكريم سلمان والمويلحى وغيرهم ، مناقشة عميقة مهذبة[٢] .

انه يذكر ذلك ، ويتمنى لو كانت كل امرأة فى بلده مثلها ، أو مثل زميلته الفرنسية ، يتمنى أن تخرج المرأة المصرية من قوقعتها الى الحياة الطليقة تستنشق نسيم المعرفة وتخبر الدنيا وتناقش الرجل وتتمسك بدينها . وهذا هو الذى دفعه الى أن يعيد النظر فى رأيه السابق عندما رد على الدوق ، وأن يرجع الى الشريعــة السمحاء يدرس نصوصها ، وغاية ما يريد أن يلفت المجتمع الى ما وصل اليه ، لا أن يحقق كل ما يريد « لأن تحويل النفوس الى

---

(١) كلمات ص ٣٥ .

(٢) السياسة الأسبوعية ١٩٢٨/٥/٥ قاسم أمين لعبد العزيز البشرى .

وجهة الكمال فى شئونها مما لا يسهل تحقيقه ، وانما يظهر أثر العاملين فيه ببطء شديد فى أثناء حركته الخفية » .

وهو يعلم أن الناس لن تتقبل آراءه ببساطة ، ولكنه لا يرجع عما يعتقد أنه الحق ، ولذلك يبدأ الصفحات الأولى من تحرير المرأة قائلا : « سيقول قوم ان ما أنشره اليوم بدعة ، فأقول نعم أتيت ببدعة ولكنها ليست فى الاسلام ، بل فى العــوائد وطرق المعاملة التى يحمد طلب الكمال فيها » .

ويرى قاسم المسلمين منتشرين فى أطراف الأرض ، فهل هم أنفسهم متحدون فى عاداتهم وتقاليدهم وأساليب حياتهم ؟ أليست الحقيقة فى أن لكل أمة فى كل فترة من الزمن آدابا خاصة بها ترتبط بمدى تقدمها العقلى والاجتماعى ؟ ان بقية الحقيقة أن هنــاك تلازما بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة . ان الغربى الذى يحب أن ينسب كل شىء الى دينه ما دام راقيا ، يعتقد أن المرأة الغربية قد ترقت لأن دينها قد ساعدها على نيل حريتهــا ، والواقع أن الاسلام قد سبق كل الشرائع فى تقرير مساواة المرأة للرجل ، فأعلن حريتها واعتبر لها كفاءة شرعية يوم كانت فى حضيض الانحطاط عند كل الأمم .

لماذا اذن هوت المرأة الى هذه المنزلة السيئة ؟ لا دخل للاسلام فى ذلك ، ولكنها عادات ورثناها عن الأمم التى انتشر فيها الاسلام، فلم تبــدل تقاليدها بعــد أن أســلمت ، ثم كانت الحكومات الاستبدادية سببا فى استمرار تلك التقاليد القاسية . فالحاكم يستبد بالمحكوم والرجل يستبد بالمرأة ، ودائرة الاستبداد تحيط

المجتمع كله وتفسد كل جانب فيه ، وهكذا بقيت حالة المرأة وبقى حال الرجل معها حتى الآن . « له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، له الأمر والنهى ولها الطاعة والصبر ، له كل شىء فى الوجود وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه » .

وبعد هذا التمهيد الذى عرض فيه لحالة المرأة السيئة وحاول أن يتتبع الجذور التاريخية لتلك المنزلة وينبه الى براءة الاسلام منها ، بدأ يرد على سؤال كان يتردد على صفحات الجرائد فى ذلك الوقت عن « الرجل والمرأة وهل يتساويان » مع وضوح قوته الجسدية والعقلية ؟[1] فيرى قاسم أن الرجل اذا فاق المرأة فى القوة البدنية والعقلية فذلك انما يرجع الى أن الرجل قد مارس الأعمال العضلية والعقلية فقويت بنيته ونما عقله بدوام الممارسة ، فى الوقت الذى كانت فيه المرأة تكاد تكون محرومة من استعمال القوتين . والى الآن لا يزال كثير من الناس يتساءلون : هل تعليم المرأة القراءة والكتابة مما يجوز شرعا ؟ ثم يعلق على ذلك السؤال بأن لا شىء يمنع المرأة المصرية من الاشتغال بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجارة والصناعة مثل المرأة الغربية ، الا جهلها واهمال تربيتها .

ولكن البيئة مختلفة هنا والعقول غير مهيأة كما قال له صديقه أحمد شفيق فيتواضع فى مطالبه حتى تتهيأ تلك العقول بفعل

(١) راجع مقالات الدكتور شبلى شميل فى المقتطف ابتداء من عام ١٨٨٦ حول ذلك الموضوع .

التطور لقبول المزيد . « فيجب أن تتعلم كل ما ينبغي أن يتعلم الرجل من التعليم الابتدائي على الأقل حتى يكون لها المام بمبادىء العلوم يسمح لها بعد ذلك باختيار ما يوافق ذوقها منها واتقانه بالاشتغال به متى شاءت »[1] .

ولم يدع قاسم الى خروج المرأة لميدان العمل الا فى حالات الضرورة كأن يتوفى زوجها ، أو يكون فقيرا محتاجا الى مساعدة ، أو لم تتزوج اطلاقا وليس لها أقارب مستعدون لمعاونتها . فلا بد لها اذن من التعلم لتتمكن من العمل فى وظيفة شريفة بدلا من الانزلاق الى هاوية الرذيلة . ولكن الدعوة الى العمل رغم الشروط التى وضعها ، كانت غريبة على مجتمع شديد المحافظة ولم يكن من الممكن أن تجتذب أنصارا عديدين فى وقت سريع .

وتستبد به مشاعره وكل حماسته حين يتصور المرأة زوجة وأما فيقول : « نرى نساءنا يمدحن رجالا لا يقبل رجل شريف أن يمد يده لهم ليصافحهم ويكرهن آخرين ممن نعتبر وجودهم شرفا لنا ، ذلك لأن المرأة الجاهلة تحكم على الرجل بقدر عقلها . فأحسن رجل عندها هو من يلاعبها طول النهار وطول الليل ويكون عنده مال لا يفنى لقضاء ما تشتهيه من الملابس والحلى والحلوى ، وأبغض الرجال عندها من يقضى أوقاته فى الاشتغال فى مكتبه »[2] .

أهذه هى صورة الزوجة عندنا ، انها صورة مشوهة معكوسة للمرأة التى يتمناها الرجل المثقف الباحث عن السعادة . ولا سبيل

---

(١) تحرير المرأة ص ١٨ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٤ .

الى سعادة الأمة اذا لم يسعد الزوج فى بيته ولم تسعد الزوجة مع زوجها ولم يسعد الأبناء فى بيئة صالحة . والوراثة والتربية هما الأصلان اللذان ترجع اليهما شخصية الأطفال ، جيل المستقبل الذى نبنى عليه آمالنا الوطنية .

والطفل لا يعيش فى الفترة الأولى من حياته التى يكون فيها عقله ونفسه أشبه بصحيفة بيضاء قابلة لكل ما ينقش فيها سواء أكان خيرا أم شرا — الا بين النساء . ومن جهل الأم أن تترك طفلها مشردا فى الطرقات يتمرغ فى الأتربة تمرغ صغار الحيوانات ، وأن تملأ قلبه فزعا بالجن والشياطين ، وأن لا تعرف من وسائل صيانته سوى تعليق التعاويذ والطواف حول القبور والتمسح بالأضرحة .

اننا نجد فى هدى نبينا ما ينبغى أن نقتدى به حين قال فى شأن عائشة : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » . وعائشة امرأة لم تؤيد بوحى ولا بمعجزة ، وانما سمعت فوعت ، وعلمت فتعلمت. ولذا ينبغى أن نبدأ بتربية المرأة تربية تنقذنا من جميع العيوب التى يقذفنا بها الأجنبى كل يوم ، وترتد كلها الى اهمالنا تربية المرأة .

ولكن ما بال أكثر الرجال يعارضون تعليمها وتثقيفها فى الوقت الذى يشكون فيه من الشكوى من جهالتها ؟ لقد رسخ فى أذهانهم أن تعليمها وعفتها لا يجتمعان ! وقال بعضهم فى ذلك حكايات غريبة ونوادر سخيفة استدلوا بها على أن تعليم المرأة يزيدها براعة فى الاحتيال ويعطيها سلاحا جديدا تتقوى به على تنفيذ شهواتها .

الواقع أن البطالة التى ألفتها النساء عندنا وصارت طابع حياتهن

هى أم الرذائل . والتعليم يرفع من قدر المرأة ويرد اليها احساسها بشخصيتها وكيانها ويسمح لها أن تفكر وتتبصر فى أعمالها . والمرأة المتعلمة تخشى عواقب الأمور أكثر مما تخشاه الجاهلة ، ويكون لها من كرامتها ما يصونها عن الدنس .

« والمعول فى كل ذلك على الأخلاق التى نشأت عليها المرأة فى تربيتها الابتدائية . فان اعتادت على أن تشغل أوقاتها بالمطالعة ومزاولة الأعمال المنزلية ، وتربت بين أهل وعشيرة رأت فيهم أسوة الجد والاستقامة ، وغاب من بينهم كل ما يؤثر فى مشاعرها أثرا غير صالح أو يهيج حسها الى أمر غير لائق ، وتعودت على أن تقيم من عقلها حاكما على قواها الحسية ، كان من النادر أن تحيد عن الطريق المستقيم وأن تلقى بنفسها فى غمرات الشهوات التى لا تسلم مهما كانت من الخطر والعذاب والندم . وبالجملة فانا نرى أن تربية العقل والأخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل . بل هى الوسيلة العظمى لأن يكون فى الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف وطرق المحافظة عليه . وأرى أن من يعتمد على جهل امرأته مثله كمثل أعمى يقود أعمى مصيرهما أن يترديا فى أول حفرة تصادفهما فى الطريق »[1] .

الى هنا كان قاسم يعرض لموضوع تربية المرأة وتعليمها عرضا منطقيا ، يسوق فيه الأدلة العقلية ، ولكنه حين ينتقل للموضوع الثانى الخاص بحجاب المرأة سنرى أثر قراءاته الدينية لأنه

---

(١) تحرير المرأة ص ٥١ .

موضوع قد عرض له من قبل القرآن الكريم والحديث الشريف وهو يمس جوهر الحياة الاجتماعية الاسلامية . ثم ان قاسما قد أيد الحجاب من قبل حين رد على الدوق الفرنسى ، فلا ينبغى حين يدعو الى السفور اليوم أن يكون متناقضا مع نفسه . ولكن هل دعا قاسم حقيقة الى السفور ؟

لنستمع اليه يقول : « اننى لا أزال أدافع عن الحجاب واعتبره أصلا من أصول الأدب التى يلزم التمسك بها . غير أنى أطلب أن يكون منطبقا على ماجاء فى الشريعة الاسلامية » . هذا هولب رأيه فى مسألة الحجاب ، فالغربيون قد غالوا فى السفور الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة ، ونحن غالينا فى الحجاب حتى صيرنا المرأة متاعا من المقتنيات ، وحرمناها نعمة الحياة الحقة، وبين هذين النقيضين درجة تسمو عليهما ، هى درجة الحجاب الذى حدده الاسلام .

وينقل قاسم عن (لاروس) أن نساء اليونان كن يستعملن الخمار اذا خرجن ويخفين وجههن بطرف منه ، كما هو الآن عند الشرقيين . معنى هذا أن الحجاب لم يستحدثه المسلمون ، وأن المغالاة فيه كانت معروفة قديما عن كثير من الأمم ، فاذا كنا قد غالينا نحن أيضا فيه ، فما ذلك الا اتباع لعادة موروثة ، ألبسناها لباس الدين كسائر البدع التى تمكنت من الناس باسم الدين . وقد اتفق الأئمة على أن الوجه والكفين مما يباح للمرأة أن تظهر بها دون حجاب أمام الأجنبى ، والمذهب الشافعى يبرر ذلك بأن المعاملة والشهادة تستدعى سفور الوجه واليدين . والمالكية

والحنابلة يتفقون على هذا أيضا ، وينقل نصوصا كثيرة للفقهاء تؤكد هذا الرأى ، حتى اذا خلص منه ، راح يسوق من الحجج المستخلصة من واقع حياتنا ما يثبت به ضرورة الاقتصار على الحجاب الشرعى . فمن الغريب حقا أن تحضر المرأة مغلفة من رأسها الى قدميها ثم تبيع أملاكها أو توكل فى زواجها ، وكثيرا ما أظهرت الوقائع القضائية مآسى التزوير فى مثل هذه الأحوال ، فتتزوج المرأة بغير علمها وتجرد من أملاكها على جهل منها . ثم كيف يمكن امرأة محجبة أن تزاول عملا تعيش منه ان كانت فقيرة ؟ وكيف يمكن تاجرة أو زارعة أو عاملة أن تتحرك فى قيدها ؟ لا شك أن هذا لم يسمح به الشرع ولا يسمح به العقل .

أخوف الفتنة اذن هذا الحجاب ؟ هل اعتبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة ، حتى أبيح للرجال أن يكشفوا وجوههم لأعين النساء ، ومنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال ؟ ان على من يخاف الفتنة من الرجال أن يغض بصره ، كما أنه على من تخافها من النساء أن تغض بصرها والقرآن صريح فى ذلك حين يقول : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم ، ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها».

على أن أسباب الفتنة ليست فيما ظهر من أعضائها وما خفى ، بل فيما يصدر عنها من أفاعيل أثناء سيرها ، والنقاب من أشد أعوان المرأة على ذلك ، اذ هو يخفى شخصيتها . ولو كان وجهها

مكشوفا فان كرامتها أو نسبتها الى عائلتها يشعرانها الحياء والخجل في كل عمل يتوهم منه أدنى رغبة منها في استلفات الأنظار .

ولكن الحجاب من مفاهيمه أيضا قصر المرأة فى بيتها والحظر عليها أن تخالط الرجال . ونساء النبى كن مأمورات بالاستقرار فى بيوتهن ، فماذا عن نساء المسلمين ؟ ان قوله تعالى فى نساء النبى (لستن كأحد من النساء) « يشير الى عدم الرغبة فى المساواة فى هذا الحكم وينبهنا الى أن فى عدم الحجاب حكما ينبغى لنا اعتبارها واحترامها ، وليس من الصواب تعطيل تلك الحكم مرضاة لاتباع الأسوة . وكما يحسن التوسع فيما فيه تيسير أو تخفيف ، كذلك لا يجمل الغلو فيما فيه تشديد وتضييق أو تعطيل لشىء من مصالح الحياة »(١) .

والحجاب على ما ألفناه مانع عظيم يحول بين المرأة وارتقائها ، وبذلك يحول بالتالى بين الأمة وتقدمها . وربما يقال ان فى امكان المرأة أن تستكمل دراستها وتربيتها فى بيتها ، ولكن الحقيقة أن الحجاب يحجب المرأة عن العالم ، فلا ترى الا سفاسف الأحداث فى بيتها ، ويقتل الرغبة فى التفكير وفى الحركة نفسها . ولو أخذنا رجلا بلغ الأربعين من عمره وحجبناه عن العالم ، وألزمناه أن يعيش بين أربعة جدران وسط النساء والأطفال والخدم لشعر بانحطاط تدريجى فى قواه العقلية والجسمية .

لذلك تصاب أغلب نسائنا بالتشحم أو فقر الدم ، ومتى ولدت

---

(١) تحرير المرأة ص ٦٧ .

مرة تداعت بنيتها وذبل جسمها وظهرت عجوزا وهى فى ريعان شبابها . على أن المرأة التى تخالط الرجال تكون — بعد كل ذلك — أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجبة ، لأنها اعتادت الاختلاط بحيث أصبح أمرا طبيعيا . وبديهى أن المرأة التى تحافظ على شرفها وهى مطلقة غير محجوبة لها من الفضل أضعاف ما لزميلتها لأن عفتها اختيارية ، أما تلك فعفتها قهرية ، ولا أدرى كيف نفتخر بعفة نسائنا ونحن نعتقد أنهن مصونات بقوة الحراس وارتفاع الجدران . أيقبل من سجين دعواه أنه رجل طاهر لأنه لم يرتكب جريمة وهو فى السجن ؟

وبعد أن أحس قاسم أنه قد فنّد حجج رجال الدين بالرجوع الى مفاهيم الاسلام فى أصولها ، وأوضح أثر السياسة التى اتبعت فى فساد الطبائع وتزييف الحقائق ، وفنّد الآراء الشائعة لم يبق أمامه الا أن يستثير النخوة ويستحث المشاعر فيقول : « أليس من الغريب أن لا يوجد رجل فينا يثق بامرأة أبدا مهما اختبرها ومهما عاشت معه ؟ أليس من العار أن تتصور أن أمهاتنا وبناتنا وزوجاتنا لا يعرفن صيانة أنفسهن ؟ ... متى خرج أحدنا من منزله أو سمح لامرأته أن تخرج بسبب من الأسباب فعلام يتكل اذ لم يكن على صيانتها وحفظها نفسها بنفسها ؟ ثم ماذا يفيد الرجل أن يملك جسم امرأته وحده اذا غاب عنه قلبها ؟ »[1] .

ثم بعد ذلك ألا يبدد الرجل منا أمواله دون مبرر حين يبنى

---

(١) تحرير المرأة ص ٨٠ .

بيتين ويؤثث بيتين ، ويأتى بفريقين من الخدم ، فريق يخدم الرجال وفريق يخدم النساء فى قسم الحريم ، ثم لابد له من عربة للنساء وعربة للرجال ، لأننا لا نقبل أن يركب الرجل مع زوجته أو حتى مع والدته عربة واحدة ؟

ان الجرائم ترتكب من حولنا ، فالقتل والنهب والقذف وغيرها تزعج الساكن وتقلق المطمئن ، ومع ذلك نحتمل مصائبها ونجتهد فى تطهير المجتمع منها بالطرق المشروعة عن طريق التربية أو القانون. وخطيئة المرأة لا تقل عن جريمة الرجل ، فلم استثنينا تلك الخطيئة، وصنعنا بالمرأة ما لم نصنع بالرجل ؟

وعرف قاسم أنه قد بلغ مداه من هذه الناحية ، فليكن نذيرا لهم ان لم يقتنعوا بكل ما جاء به . ويشتد وقع كلماته حتى لتشبه دقات الطبول فى ساعة الخطر : « طرقت ديارنا حوادث وداخلنا ضرب من الاختلاط مع أمم كثيرة من الغربيين ، ووجدت علائق بيننا وبينهم ، علمتنا أنهم أرقى منا وأشد قوة ، ومال ذلك بالجمهور الأغلب منا الى تقليدهم فى ظواهر عوائدهم خصوصا ان كان ذلك ارضاء لشهوة أو اطلاقا من قيد . فكان من ذلك أن كثيرا من أعليائنا تساهلوا لزوجاتهم ومن يتصل بهم من النساء، وتسامحوا لهن فى الخروج الى المتنزهات وحضور التياترات ونحو ذلك ، وقلدهن فى ذلك كثير ممن يليهن ، وعرض من هذه الحالة بعض فساد من الأخلاق »[1] .

---

(١) تحرير المرأة ص ٨٣ .

والحجاب نفسه قد رق حتى أصبح فتنة لا سترا ، وستستمر مرحلة التطور هذه حتى تبلغ مـــداها ، فالحكمة أن تتداركها لا بالوقوف أمام التيار ، ولكن بتنظيمه عن طريقين . أولهما أن يكون حد السفور هو الحجاب الشرعى ، وثانيهما التحصين عن طريق التربية السليمة . فليس تقليد الغربيين اذن هو الدافع لكل هذا ، ولكن أحوالنا الاجتماعية أصبحت تملى على كل مصلح أن يقول هذا كخطوة أولى من خطوات التطور الاجتماعى الذى نسير اليه . ولكن هل قال قاسم كل ما يريد فى هذه الناحية ؟ لا ، فقد كان يعلم أن الطفرة مهلكة ، وحتى التطور والانتقال لابد أن تحدث فيه أخطاء ، ولكنه يؤمن بأن امكانيات المرأة تستطيع أن تخدم المجتمع ، وأنه لا يستطيع أن يسبق عصره بمدى طويل ، فلا يستطيع أن يقول الا ما يمكن أن يستسيغه جانب على الأقل من أهل عصره ، وعلى مدى الأيام سينتقل التطور من مرحلة الى مرحلة ولذلك نسمعه يقول :

« انى لا أقصد الآن رفع الحجاب دفعة واحدة ، والنساء على ما هن عليه اليوم . فان هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة ، لا يتأتى معها الوصول الى الغرض المطلوب كما هو الشأن فى كل انقلاب فجائى . وانما الذى أميل اليه هو اعداد نفوس البنات فى زمن الصبا الى هذا التغيير »[1] .

وبعد أن ناقش قاسم مسألة الحجاب وانتهى فيها الى رأى

---

(١) تحرير المرأة ص ٩٢ .

قاطع ، انتقل الى موضوع من أخطر الموضوعات وأكثرها أهمية ، وهو موضوع المرأة والأمة . وهو يبدؤه متسائلا عن سر ضعف الأمة الاسلامية ، ذلك السؤال الذى طالما ردده من قبله أساتذته . ثم يجيب عنه بأن ضعفنا العقلى وانصرافنا عن العلوم العصرية هو السبب الجوهرى ، فقد سبقنا عصر البخار والكهرباء ولم نلحق به ، فأتانا الغربى غازيا ، لأنه ملك القوة العلمية .

فما السبيل اذن ؟ « لا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها . وهى أن تستعد الأمة لهـذا القتال ، وتأخذ له أهبتها ، وتستجمع من القوى ما يساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت ، خصوصا تلك القوة المعنوية ، وهى قوة العقل والعلم التى هى أساس كل قوة سـواها . فاذا تعلمت الأمة كما يتعلم مزاحموها ، وسلكت فى التربية مسالكهم ، وأخذت الأعمال مآخذهم وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا به ، أمكنها أن تعيش بجانبهم ، بل تيسر لها أن تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم . لأن البلاد بلادها ، وأرضها أبر بها منها بالغريب عنها ، وأبناءها أقدر على المعيشة فيها »[1] .

والذى ينظر الى الأمم الاسلامية يجد الظاهرة واحدة والعلة واحدة ، ومن هنا اتهم الأوربيون الدين الاسلامى وحسبوه سبب الانحطاط ، وجاراهم جمع من المسلمين الأفاضل ، ولكن المسلمين لم يقصدوا الاسلام فى أصوله الصافية الأولى ، وانما قصدوا ذلك الخليط من التقاليد الذى اعتبره الناس دينا .

(١) تحرير المرأة ص ٩٥ .

ومن الغريب أن علماء الدين أنفسهم — فى ذلك الوقت — يتمسكون بكثير من البدع ، ومن الغريب أيضا أن ينصرفوا عن العلوم العقلية التى لها صلة مباشرة بالمصالح الدنيوية فى الوقت الذى يصرفون فيه كل طاقاتهم فى الحواشى بعيدا عن الأصول ، وان سألتهم عن أمة تجاورهم لم تكد تجد من يعرف موقعها الجغرافى ، بل لو سألتهم عن مكان عضو من أعضاء جسدهم أو وظيفته هزوا أكتافهم استهزاء بالسائل والسؤال . فان تطرقت لنظام حكومتهم وقوانينها وحالتها السياسية والاقتصادية لم تجد أذنا صاغية ، كأنما فهموا القضاء والقدر بمعنى الاتكال والاستسلام التام [1] .

ومن المحال أن نأمل فى نهضة علمية شاملة ما لم تكن الأمهات قادرات على تهيئة جيل جديد للنجاح . فانحطاط المرأة اذن هو أكبر عقبة تقف أمامنا ، ولا بد أن نزيل تلك العقبة . وقد أثبتت المرأة فى أوربا أن انحطاطها كان عارضا لا طبيعيا ، فقد وصلت

---

(١) شبيه بهذا ما رواه محمد عبده عندما زاره الأمير شكيب أرسلان سنة ١٨٩٠ ، فأوصى رفيقه الشيخ عبد الكريم سلمان بالذهاب معه الى كبار مشايخ الأزهر ، فلما زارا الشيخ الأنبابى وجدا عنده عالما . فلما ذكر الشيخ عبد الكريم اسم الأمير شكيب وقال انه من جبل لبنان ، قال الشيخ ... : وأين جبل لبنان هذا أفى الغرب؟ قال الأمير شكيب : فكدت أصعق من الدهشة لجهل هذا الشيخ الى هذا الحد بمعرفة البلدان . ولما رجعنا الى البيت أخبرنا الأستاذ محمد عبده بما وقع لنا فقال : نعم ، وهذا الشيخ ... الذى يجهل أين جبل لبنان هو من علماء الطبقة الأولى . (راجع محمد عبده لقدرى قلعجى ص ٩١) .

الى درجة لم يكن يحلم بها أكبر المصلحين فى يوم من الأيام . فهى رأس مال عظيم نحن مقصرون فى الانتفاع به مثلنا كمثل الغنى الذى يدفن ماله ، ولو استثمره لعاد بالنفع عليه وعلى بلده .

واذا كانت المرأة الغربية قد دخلت الوظائف العامة ، فالمرأة الشرقية تستطيع متى ترقت أن تخدم بلدها على الأقل عن طريق الجمعيات الخيرية . وما أكثر حاجتنا الى تلك الجمعيات ، وما أشد قدرة المرأة على العمل فيها لما جبلت عليه من رقة الاحساس والصبر الطويل الذى لا يتحمله أعظم الرجال جلدا .

هل نضرب الأمثلة من التاريخ ؟ ان طائفة عظيمة من الأحاديث النبوية قد رويت عن عائشة وأم سلمة وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة . وهل ننسى أن عائشة قد تدخلت فى مسألة الخلافة وكانت رئيسة للحزب المعارض فى يوم ما ؟ وهل ننسى أيضا أن عددا غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم أو جودة الشعر ؟

ان الناظر الى هذه الفروع كلها يجدها ترتد الى أصل واحد ، هو تربية المرأة . حرمناها التربية السليمة وحجبناها عن الدنيا وعن نور المعرفة ، فعشنا معها فى الظلام ، فلكى تشرق الشمس ثانية علينا ، ليس أمامنا الا أن نفتح النوافذ ، لنرى شروق صباح جديد .

وبعد أن انتهى قاسم من عرض فكرته وتحليلها ، رأى أن أحكامنا الشرعية نفسها بحاجة الى الوقوف عندها . فينظر الى

آراء الفقهاء فى الزواج وتعدد الزوجات والطلاق ، ويعود ينظر مرة ثانية الى نصوص التشريع فتتملكه الحيرة .

فالقرآن يقول : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . والفقهاء يعرفون الزواج بأنه « عقد يملك به الرجل بضع المرأة » . فأى اختلاف بين مفهوم القرآن ومفهوم الفقهاء حول الزواج ، انه فى عرف الفقهاء صلة مادية محضة ، وفى عرف القرآن صلة قوامها المحبة .

ولما وصلت منزلة الزواج الى هذه الدرجة عند الفقهاء سرى أثرها بين المسلمين ، وكان من نتائج ذلك أن يتم عقد الزواج قبل أن يرى كل من الزوجين صاحبه ، فى حين أن أحاديث الرسول تبيح أن ينظر الرجل الى خطيبته ، لأن العلاقة الزوجية تقوم على توافق بين نفوس الزوجين وائتلاف بين الطباع والأخلاق . وفرح القلب فى كل لحظة تمر على زوجين متحابين يحيى فى القلب شعورا بلذة الحياة ويخفف ثقلها ، فأين نحن من كل هذا ؟ ان الجيل الجديد لا يرضى الزواج بزوجة لم يرها ، وأم جاهلة لأبنائه ، فلا ينبغى أن نرميه بالتفرنج قبل أن نزن مطلبه بميزان العقل والشرع . وهو فى الحقيقة ليس الا رجوعا الى الأصول النقية للاسلام .

واذا رجعنا الى تلك الأصول وجدنا آية تعدد الزوجات تعلق وجوب الاكتفاء بزوجة واحدة على مجرد الخوف من عدم العدل ، ثم تصرح آية أخرى بأن العدل غير مستطاع . ولا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة الا فى حالة الضرورة ، كأن تصاب امرأته

بمرض مزمن أو تكون عاقرا . أما تعدد الزوجات فى غير هـذه الحالة ، فليس الا نتيجة لاعتبار المرأة متاعا كسائر المتاع الذى يملكه الرجل . على أن قيام العداوات بين أعضاء العائلة الواحدة نتيجة لتعدد الزوجات كفيل بأن يصرف الرجل العاقل عن هـذا التعدد وأن يكبت شرهه فى طلب اللذائذ .

« وهذا الحلال هو كسائر أنواع الحلال ، تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى من المنع والكراهة وغيرهما بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح . فاذا غلب على الناس الجور بين الزوجات كما هو مشاهد فى أزماننا أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات وتعدٍّ للحدود الشرعية الواجب التزامها وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة ، وشيوع ذلك الى حد يكاد يكون عاما ، جاز للحاكم رعاية للمصلحة العامة أن يمنع تعدد الزوجات بشرط أو بغير شرط على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة » .

وكذلك الأمر بالنسبة للطلاق ، فالمطلع على احصائيات الطلاق فى مدينة القاهرة خلال السنوات الماضية يدرك أن كل أربع زوجات يطلق منهن ثلاث وتبقى واحدة فقط ، وهى نسبة مزعجة توضح مدى الانهيار الذى أصاب الأسرة عندنا . ومن العجيب أن يعتبر الفقهاء أن تلفظ الزوج بحروف الطلاق ولو لم يقصد أن يطلق زوجه يكون قد طلقها فعلا . والحقيقة ان الطلاق « عمل يقصد به رفع قيد الزواج وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج » . فالثائر الذى يقسم بالطلاق وقت غضبه على غير نية لا يكون قد طلق بالفعل . على أن اطلاق الحرية للزوج فى

الطلاق مهما كان أرعن أو عابثا أمر خطير بالنسبة لكيان العائلة . واذا رجعنا الى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وجدنا أبغض الحلال الى الله الطلاق ، ووجدنا أن مضمون القرآن يحتمل أن يكون الطلاق أمام القاضي الذى يحاول التوفيق واصلاح ما بين الزوجين قبل أن يمزق وثيقة الرباط المقدس .

وأخيرا ، أليست الزوجة المثقفة الواعية ، قادرة على رأب الصدع فى أكثر الأحيان ؟ أليست قادرة على أن تستولى على قلب زوجها وعلى احترامه لها فلا يفكر فى تعدد الزوجات ولا يفكر فى الطلاق ؟ يرى صديقة ورفيقة له فى رحلة الحيـاة الشاقة ، فتهون متاعب الرحلة وهو يستند الى ذراعها ولا يعود يفكر الا فى سعادة بيته وأبنائه . وهكذا حاول قاسم أن يجتهد فى الشريعة الاسلامية بالنسبة لتلك الأمور ، مثلما اجتهد فيها من قبل سيد أمير على المصلح الهندى [1] ، ورأى نصوص القرآن والحديث تحت النور الذى أضاءه فقهاء مجتهدون مثل الشيخ محمد عبده .

والواقع أننا اذا نظرنا الى آراء قاسم اليوم رأينا أنه لم يكن مسرفا فيما رآه . تقول زوجته : « لم يكن قاسم أمين فى دعوته يؤمن بالطفرة ، وانما كان يرجو تحقيقها تدريجيا ، ولذلك فانه لم يرغمنى على السفور عندما كان ينادى اليه ، وبالرغم من أننى لم أكن أعارض فى دعوته ، بل كنت على الدوام مطيعة له راضية

---

(١) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ١٤٣ .

عن آرائه ، الا أننى أرتدى البرقع والحبرة شأنى شأن سيدات ذلك العصر . ذلك لأن قاسم بك كان يرى أن الطريق لم يمهد بعد لتنفيذ فكرته ، فكان يكتفى بالمناداة بها . ولكنه لم يطبقها فى أسرته الا على النشء الجديد ، أعنى على بناته » .

« ان بنات الجيل الحالى وشبابه قد أخطأوا فهم هذه الدعوة وتجاوزوا مداها . فالمظهر الذى تظهر به فتيات هذا العصر ليس سفورا بل هو بهرجة فظيعة لم يكن يخطر على بال قاسم أن ينادى بها أو يدعو اليها . وانما كان قاسم ينادى بالسفور الشرعى الذى لا يزيد عن اظهار الوجه واليدين والقدمين ، ولا يتجاوز الى اظهار العورات والى اختلاط المرأة بالرجل بالشكل الحاصل الآن . وانى أعتقد أن قاسم بك لو كان حيا ، لما رضى عن هذه الحال ، بل لانبرى الى محاربتها » [١] .

ونخلص من كل ذلك الى أن قاسم أمين لم يدع الى السفور بالصورة التى تخيلها الناس ، وانما دعا الى الحجاب الشرعى ، ودعا الى تربية المرأة وتحميلها مسئولية جيل جديد يطمح الى نهضة قومية شاملة . ومن الواضح أنه قد أعاد التفكير فى قول الدوق الفرنسى ، ورأى أن هجومه وان يكن مليئا بالمفتريات ، فقد كان فيه بعض الحق . على أنه ينبغى أن نذكر دائما أن قاسم أمين كان ساخطا على مظاهر التهتك ، فاذا رأينا الآن بعض تلك المظاهر تروح وتغدو أمامنا ، فقد نسبنا اليه ما هو برىء منه ..

---

(١) خاكى ص ١٠٦/١٠٧ .

الفصل التاسع

في المعركة

لم يكد يصدر كتاب « تحرير المرأة » حتى أثار ضجة كبيرة ، وشغل الرأي العام في مصر أولا ، وفي الوطن العربي بعد ذلك . وقد كانت هذه الثورة متوقعة ، لأن الأمة المصرية أمة محافظة على الموروث بطبيعتها الزراعية التي اعتادتها . وربما لو كان المجتمع المصري في ذلك الوقت صناعيا تجاريا اعتاد الانقلابات في عالم الصناعة والمغامرة في عالم التجارة ما قامت هذه الثورة .

يقول العقاد : « هي أمة توارثت العقائد والمأثورات جيلا بعد جيل ، وأصبح لها من بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من غيرتها على المال والثروة ، ثم هي أمة ذات أرزاق مطردة .. فاذا أصيبت في عقائدها وموروثاتها أو ظهر لها الجور على أرزاقها ومرافقها فهناك يستعصي قيادها كأشد ما يستعصي قياد أمة ، وهناك تصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول عليها .. ولا شك في أن هذا الخلق الذي امتزج بالفطرة المصرية هو باعث الحاكمين جميعا الى مجاملة الأمة في عقائدها والحذر من المساس بموروثاتها ومألوفاتها ، فمن لم يفطن

من الحاكمين لهذه السياسة الرشيدة لم يعرف الراحة معها فى سياسة أخرى ، ولم يأمن أن يزول حكمه ويفسد الأمر عليه فسادا لا اصلاح بعده . وكثيرا ما انتهت المجاملة بالحاكمين الى التدين بالدين المصرى والتخلق بالأخلاق المصرية اذا كانوا من الغرباء .. ولو أحصيت الثورات فى تاريخ مصر القريب لما كانت فى عددها دون ثورات الأمم التى اشتهرت بالتمرد ولم تشتهر بالاستسلام . فقد ثار المصريون على الفرنسيين ، وثاروا على الترك والمتتركين ، وثاروا على الانجليز فى نحو قرن واحد . وكان للعقيدة والموروثات فى معظم هذه الثورات دخل أظهر من دخل المصلحة والمرافق القومية أو الفردية » (١) .

ثم يذكر أن من الأخلاق التى تلازم هذا التمسك بالموروث حب الأسرة والمحافظة عليها ، ومتانة الوشائج البيتية والغيرة وصيانة العرض . واذا كان العربى قد عرف قديما بصيانة عرضه وغضبه الشديد ان مس هذا العرض ، فالدافع الى ذلك هو احساسه بالانهزام لأنه رجل محارب ، وانما الدافع لغضبة المصرى احساسه بقرابة تقطع أو محراب مقدس يهان..

واذا كان الغربيون قد أنكروا مقام المرأة فى الحياة الشرقية فذلك لاختلاف البيئتين ، فمن المؤكد أن الأم كانت دائما موضع الاكبار والاحترام .. لهذا قد يثور الناس ان مست عقائدهم الموروثة ، وخاصة فيما يتصل بالأسرة والنظام البيتى . « وقدم

(١) سعد زغلول ص ١٩/٢٠ .

العهد بالمدنية يتلخص فى حب الأسرة واستقرار النظام البيتى على أساس بعيد القرار . فنحن لا نستطيع أن نفهم كيف يكون المصرى محافظا شديدا فى المحافظة ثائرا متأهبا للتمرد — الا اذا فهمنا حبه للأسرة وحبه من أجـل ذلك للموروثات والتقاليد . فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها ، وهو من أجـل المحافظة عـلى التراث مستعد للثـورة أبدا لصيانة موروثاته وتقاليده . وقد يبدو غير معقول فى ثورته وهياجه لأن العهـد بالناس أن يستغربوا الثـورة من المحافظين المقلدين ويزيدهم استغرابا أن لا يجدوا تفسيرا لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع . فيقولون مدهوشين : أمثل هذا الشعب الوادع المستقر يثور هذه الثورة لمثل هـذا الضرر اليسير أو لغير ضرر عـلى الاطلاق ؟ والواقع أن الذى يثور هذه الثورة غالبا هو المحافظ المغرق فى المحافظة لأنه لفرط المحافظة ينسى المصلحة فى سـبيل العادات . ولطول الكبت أثر فى هذا الجنوح الى التمرد كلما سنحت الفرصة التى تنطلق فيها الغرائز وتخرج فيها على القيود . فالمصرى يستمتع بهذه الفرصة ويسترسل فيها الى أمد بعيد ، لأن كبت العادات وكبت الخضوع الأعمى أمران لا يطاقان الى زمن طويل ، فاذا سنحت المناسبة فقد يكون الكبت الذى تعانيه النفس من العادات الطويلة سببا من أسباب التمرد والشذوذ ، وتلك نقيضة فى النفس الانسانية تظهـر أبدا مـع كل افراط وكل استغراق . ان المصرى لينسى كل شىء الا وشائج الرحم وآداب الأسرة . وقد يسف المجرم اسفاف الخبث والنذالة أو يسفه

المسكين اسفاف الضعة والمتربة ، ولكنه لا يزال فى صميم نفسه ذلك الخلف المنحدر من أجيال وراء أجيال عاشت جميعا فى ظل الأسرة ، ودانت جميعا بآداب العرف الاجتماعى والعلاقات البيتية والأخلاق المصطلح عليها » [1] .

فكان من الطبيعى أن يثير الكتاب تلك الضجة ، فهو خطوة جريئة جدا فى ذلك الوقت الذى كانت الدعوة فيه الى تعليم المرأة مجرد بصيص ضئيل من النور يتسرب متلصصا ، فاذا بقاسم لا يدعو الى تعليم المرأة فحسب ، بل يدعو كذلك الى كشف الوجه واليدين ، والى خروجها الى العمل ان اضطرتها الظروف ، ويحاول أن يجتهد فى نصوص الدين بما يراه ملائما للعصر .

وبلغ الأمر أن حرم قصر عابدين عليه ، فلم يثبطه شىء من هذا ، بل وجد فيه نوعا من الاغراء بالاستمرار والثبات [2] . وذهب الناس فى فهم قاسم وكتابه كل مذهب ، فمن قائل ان محمد عبده هو صاحب الفكرة [3] ، ومن قائل بل كرومر نفسه هو صاحبها [4] ، ومن الثابت أن قاسم أمين وغيره من تلاميذ الأستاذ محمد عبده كانوا يجتمعون لديه ، ويستمعون الى أحاديثه عن ضعف المسلمين وجهلهم وانتشار البدع بينهم ، وأن قاسما اجتمع بمحمد عبده عام ١٨٩٧ فى جنيف وتلا عليه بعض فصول

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .
(٢) تراجم مصرية وغربية ص ١٨٧ .
(٣) الجريدة ٢٦ ابريل ١٩٠٨ .
(٤) الجريدة ٢٨ ابريل ١٩٠٨ .

كتابه فى حضور سعد زغلول ولطفى السيد [1] . لعل ذلك هو الذى دفع بعض الناس فى شدة غضبهم الى أن يرجفوا بما قالوا ، ونسوا مقالاته « أسباب ونتائج » التى تحدث فيها من قبل عن جوهر هذا الموضوع ، ونسوا أن كرومر حين تحدث عن المرأة هاجم الاسلام واعتبره مسئولا عن حقارة منزلتها [2] ، وتناسوا ما كان لقاسم من ماض وطنى ، وأن دعــوته كان لها مبررها القــوى .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فقد اتهمه غير هؤلاء بالمروق من الدين ، وبتحريض النساء على الفساد [3] . وبلغ السفه بأحد المعارضين حد الايذاء ، فقــد ذهب الى بيته وطلب أن يجمتع بزوجة قاسم على انفراد تطبيقا لدعوته [4] ، فكلمته من وراء ستار كلام الزوجة المؤمنة برأى زوجها ، وأفهمته أن قاسما لم يدع الى السفور ولا الى الخلوة بأجنبى .

وحمل « اللواء » على قاسم حملة شعواء شهورا طويلة . وقال مصطفى كامل انه قد زار بلادا أوربية كثيرة ودرس أحوال المرأة الغربية فوجد الحرية قد أفسدت على المرأة آدابها ، ومحت كثيرا من الأخلاق الفاضلة حتى عمت الشكوى هناك . وما وافق تلك

---

(١) تطور النهضة النسائية لابراهيم عبده ص ٧٥ .

(٢) Modern Egypt Vol. 2 P. 581

(٣) السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين ٣١٠/٣١١ .

(٤) من حديث بينى وبين حفيده الأستاذ مصطفى درويش .

البلاد غير ما يوافق البلاد الاسلامية لأن العادات والتقاليد مختلفة .

ولكن مصطفى كامل لم يعارض على طول الخط ، فقد اتفق مع قاسم أمين على وجوب الالتفات الى تربية النساء فهى دعوة يوافق عليها كل مثقفى الأمة . أما الحرية للمرأة فلا محل للحديث عنها الآن ، وعملية التطور الطبيعى تسير سيرها المحتوم ، وفرق بين التطور والتطوير القسرى ، الذى لا يؤمن معه من سوء العاقبة . فان الرجل منا أهون عليه أن يموت من أن يرى من أهله أو من بيته امرأة فاسدة ولو كانت بهجة العلم وحليته . ثم يخدش قاسماً فى مصريته فيقول : « ولست أدرى اذا كان هذا الشعور شعورا طبيعيا عند كل الرجال أو منشؤه الميراث الذى يحمله كل منا فى دمه من أخلاق آبائه وأجداده . وسواء كان هذا أو ذاك فان الحرية التى تقتل العصمة شر عندى من الحجاب القاتل للرذائل » [1] .

ويترك « اللواء » صفحاته لأقلام المعارضين يهاجمون قاسما ويرمونه بأنه ممن تخطف زخارف التمدن الأوربى بصائرهم . يرى المحاسن ولا يبصر المساوىء ، ويقتنع بآراء الدوق داركور ولا يقتنع بمن هم أكثر شهرة وأوسع ثقافة وأرجح عقلا من كتاب الغرب مثل چول سيمون وموليير ولامنس وزولا وهوجو وأمثالهم ممن هاجموا المرأة الأوربية فى حريتها التى عبثت بها [2] .

(١) اللواء ٣١ يناير ١٩٠١ .
(٢) اللواء ٢٤ فبراير ١٩٠١ .

ويسأله بعض الناس على صفحات اللواء : كيف استطاعت اليابان أن ترقى سريعا حتى أصبحت احـدى الدول العظمى ونساؤها لم ينلن شيئا من الحرية الغربية ، وانما تنشأ المرأة هناك لتكون زوجة مطيعة وحسب ، بل انهن يتزوجن دون معرفة سابقة ويطلقن لأسباب تافهة ؟ (١) وأية امرأة مثقفة أوربية اخترعت القطار أو اكتشفت الكهرباء ؟ (٢) .

أما « المؤيد » فقد فسحت صدرها للمعارضين والمؤيدين معا . فنشر فيها محمد فريد وجدى — كما نشر فى اللواء — بضع مقالات ، بدأها متسائلا : هل المرأة مساوية للرجل فى سـائر الحيثيات ؟ ثم يجيب متسائلا : « وهل لدينا دليل حسى على هذا الجواب السلبى أصدق من وجود المرأة من ابتداء الخليقة للآن تحت سيطرة الرجل يوجهها كيف يشاء ويحكم عليها بما تقتضى أمياله . اذا كانت المرأة مساوية للرجـل من الجهتين الجسمية والعقلية ، فلماذا خضعت كل هذه الألوف المؤلفة من الأعـوام لسلطان الرجل وجبروته ؟ » (٣) .

ويخلص من ذلك بأن المرأة لو ساوت الرجل لحدثنا التاريخ بأخبار التدافع بين الجنسين شأن كل عاملين متساويى القوة فى هذا الوجود . ولكن المرأة الأوربية لم تنل حريتها الا بسعى الرجل

(١) اللواء ٢٧ فبراير ١٩٠١ .
(٢) اللواء ١٦ ابريل ١٩٠١ .
(٣) المؤيد ١٨٩٩/٩/٣٠ .

نفسه .وأقل نظرة لحالة المرأة الطبيعية من حيث الأنوثة وعوارضها تكفى لأن نحكم بتفوق الرجل قوة ونشاطا .

ولا يسلم بأن المرأة اذا تحررت يمكنها أن تبلغ شأو الرجل ، فها هى ذى اناث الحيوان تؤكد أن الخالق قد خلق اناث الحيوان أضعف من الذكور فى كل الأنواع الحية . ولكن قوة الرجـل العضلية لا تفسر لنا خضوعها له ، لأن القوة العضلية لا تكفى للغلبة والا لتغلبت الوحوش على الانسان وأجلته عن الوجود . لابد اذن أنه أقوى منها عقـــلا وادراكا ، فان كل الاخـــتراعات والاكتشافات العلمية صدرت عن الرجل الا بعض الاستثناءات النـــادرة .

وربما يعن للبعض أن يفسر ذلك بأنه نتيجة طبيعية لحرمان المرأة من الثقافة والحرية زمنا طويلا ، ولكن الواقع أن وظيفة المرأة الرئيسية المتعلقة بالحمل والتربية لصغارها وتدبير البيت تجبرها أن تنفق أكثر وقتها فيما يتعلق بغريزتها بعيدا عن مصادر الغذاء العقلى . حتى التى تنفق وقتها فى العلم ، تقصر فى وظيفتها الطبيعية .

هذا فيما يتعلق بتحرر المرأة وعملها أما فيما يتعلق بالحجاب ، فاذا أشرنا اليوم بوجوب كشف الوجه واليدين فان سنة التدرج سوف تدفع المرأة الى خلع العذار للنهاية فى الغد القريب كما فعلت المرأة الأوروبيـــة التى بلغت بها حالة التبـــذل درجة ضج منها الأوروبيون أنفسهم ، وبدلا من أن نضرب الأمثلة بالغرب دائما ، ينبغى أن نولى وجوهنا الى عظمة مدنيتنا الاسلامية الماضية .

ويتهكم أحـد الكتاب بالدعوة الى خروج المرأة للعمل ، ويحاول أن يتصور المرأة وقد خرجت الى معترك الحياة تعمل ، فاذا البيوت مقفرة والشوارع مزدحمة بالرجال والنساء ، والمحال التجارية وقف بها المتحككون بالنساء البائعات ، أما الزى فخليط عجيب ، امرأة بقبعة وامرأة بغيرها ، والمقص قد تحيف الجيـوب والذيول والأكمام والتصقت الملابس بالمرأة حتى صارت كبعض جسمها . أهذا ما نريده ؟ ان ما نريده حقا هو تربية المرأة قبـل كل شيء (١) .

وتصل الصحف المصرية الى العراق والى الشام فينقسم الناس على أنفسهم هناك كما حدث فى مصر . فلم يكن المعارضون أقل عنفا فى الشام أو فى العراق ، فهم يرون الدعوة الى خروج المرأة اقتداء بالغربية دعوة لا تستند الى حجة مقبولة لأن الغـربية لم تناد بالخروج الى الحياة والى الحرية المطلقة ، وانما الرجال هناك هم الذين دفعوها الى العمل تخلصا منها وطمعا فى الانتفاع بتعبها فكانت النتيجة أن استدرجت الى مواقف لم تأمن معها من الزلل ، وفقدت بيتها وفقدت أنوثتها . واذا كان التاريخ يستفظع وأد بعض رعاع العـرب لبناتهم تخلصا من العار ، فكم يكون استفظاعه لحياة كثيرات من الفتيات فى هـذه المدنية التى يود البعض أن نقتدى بها .

أما فى العراق حيث كان يصله خمسة آلاف نسخة من الجرائد

---

(١) المؤيد ١٩٠١/٢/١٩ .

المصرية أسبوعيا — فقد كانت ثورة رجال الدين عنيفة ضد قاسم أمين ومؤيديه ، فدعاة السفور فى رأيهم دعاة فساد ، لأنه يخالف ما أمر به الدين ، ولأن السفور يقود الناس حتما الى المجون وهدم القيم ، وبذلك تنحل كل الروابط الاجتماعية [1] .

وكذلك الشأن فى الشام فثقافة المرأة ينبغى أن تكون محدودة لأنها اذا توغلت فى عباب العلوم ، واندفعت نحو الحرية ، قصرت عن القيام بواجباتها الأصيلة ، وهى فى غنى عن سعة الثقافة بمركزها كأم فى البيت . أما مساواتها بالرجل فخدعة كبرى لا ينبغى أن تتملق النساء بها أو نضحك عليهن لأن اختلافهما طبيعى ، والعلم نفسه قد أثبت ضعف المرأة [2] . ومن الواضح أن نقاش أهل الشام كان أكثر هدوءا من نقاش العراقيين ، لأن المرأة هناك كانت أكثر حرية من المرأة العراقية بتأثير الجاليات الأجنبية ومدارس الارساليات والصلة القوية بالحياة الغربية .

ولم يكتف دعاة الحجاب فى الوطن بمقالاتهم العنيفة ، بل ألفوا الكتب التى تدعم وجهة نظرهم ، وقد بقيت هذه الكتب لتؤرخ لهذه الحركة ، اذا ما طويت المقالات . ومن هذه الكتب « تربية المرأة والحجاب » لمحمد طلعت حرب و « السنة والكتاب فى حكم التربية والحجاب » لمحمد ابراهيم القاياتى

---

(١) راجع تنوير الأفكار السنة الأولى (١٣٢٨ هـ) ابتداء من العدد الثالث .

(٢) راجع بعض هذه المقالات جمعها جميل صليبا فى كتابه (الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام) ص ١٤٠ وما بعدها .

و « الجليس الأنيس فى التحذير عما فى تحرير المرأة من التلبيس » لمحمد أحمد حسنين البولاقى و « خلاصة الأدب » لحسين الرفاعى و « نظرات فى السفور والحجاب » لمصطفى الغلايينى و « قولى فى المرأة » لمصطفى صبرى ورسالة مصطفى نجا فى « مشروعية الحجاب » و « رسالة الفتى والفتاة » لعبد الرحمن الحمصى وغـيرها .

على أن أهم هذه الكتب جميعها وأكثرها عمقا هو « تربية المرأة والحجاب » لمحمد طلعت حرب ، ولذا سنقف عنده لنتبين حججه ومواقفه . وهو يبدؤه بمقدمة يحاول أن يثبت فيها أن المستعمر الغربى يجاهد بكل الطرق ، ليغير وضع المرأة المسلمة ، كأنما قد وكلتهم المرأة للدفاع عنها ، وما ذلك الا ليثبتوا أن الشريعة الاسلامية قد ظلمتهن ، أما هدفهم البعيد فهو التدخل فى شئون المسلمين باسم الانسانية ، وفرنجة المرأة فى المجتمع الشرقى لتنحل كل مقوماته الاجتماعية .

وهو يذكر أن الخديو اسماعيل حين أراد أن ينفصل بمصر عن الدولة العثمانية وعد ملوك أوربا ان أيدوه من أجل تحقيق هدفه ، أن يبدل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية . فيفصل السياسة عن الدين ويطلق الحرية للنساء بحيث يسرن فى أثر المرأة الغربية ، وينقل الى مصر معالم المدنية الأوربية .

ولكنه يعود فيبرىء قاسما من مثل هذه الأهداف ، فهو وطنى يسعى الى ما فيه خير وطنه ، ولكنه يختلف معه فى أمور

وردت بكتابه « تحرير المرأة » ومن أجل ذلك فله الحرية فى مناقشته مناقشة موضوعية . والحرية كانت دائما شعار الاسلام فكان أولى بقاسم أن يجعل عنوان كتابه : تربية المرأة بدلا من تحريرها . ثم يقول طلعت حرب :

ومن عجيب المصادفات أن الذى يقرأ « الرحلة الأصمعية » التى طبعت باللغة التركية سنة ١٨٩٣ فى مصر ، يقرأ فيها الاعتراضات التى وجهها الأوربيون الى مؤلف الرحلة فيما يختص بوضع المرأة المسلمة ، فاذا ما قرأنا « تحرير المرأة » لقاسم أمين وجدناه يردد نفس الاعتراضات ، فهل هذا يرجع الى توارد خواطر ؟ وواضح من هذه المقدمة أن المؤلف يحاول التشكيك فى أصالة رأى قاسم .

على أن قاسم أمين لم يدع أنه أول من بحث قضية المرأة فأمامه نخبة من المصلحين كما ذكرنا ، ولكنه كان أجرأ هؤلاء جميعا ، لأنه حين اقتنع بسوء وضع المرأة وأراد التوفيق بين نصوص الدين ومتطلبات العصر ، لم ينكر أنه تأثر بالمرأة الأوربية فى أسمى صورها ، كما تأثر بالمرأة المسلمة فى صدر الاسلام ، فناقش القضية من جميع فروعها مناقشة موضوعية هادئة .

ويبدأ طلعت حرب الباب الأول من كتابه بالحديث عن مستوى المرأة ووظيفتها . فيقرر أن الأديان جميعا تنفى مساواة المرأة بالرجل مساواة كاملة ، ويورد النصوص من التوراة والانجيل والقرآن ، التى تؤكد وجهة نظره من حيث السيادة للرجل وحسن المعاملة

والتقدير للمرأة . وسعادة الأسرة لا تكون بوجود قائدين فى بيت واحد ، وانما تكون بتوجيه الرجل توجيها حكيما .

ويخلص من ذلك الى أن الطبيعة قد فرقت بين عمل المرأة وعمل الرجل فيقول : « ان للمرأة أعمالا غير ما للرجل ، ليست بأقل أهمية من أعماله ولا بالأدنى منها فائدة ، وهى تستغرق معظم زمن المرأة ان لم نقل كله : الرجل يسعى ويكد ويشقى ويتعب ويشتغل ليحصل على رزقه ورزق عياله ، وامرأته ترتب له بيته وتنظف له فرشه وتجهز له أكله ، وتربى له أولاده وتلاحظ له خدمه وتحفظ عينه عن المحارم ، وهو يسكن اليها .. » (١) .

هذا التخصص اذن من عمل الطبيعة الحكيمة ، فالمرأة بحكم عوارض أنوثتها لا تقوى على الأعمال الشاقة ، فاذا قامت بهـا فلن يقدر لها النجاح فى تربية أبنائها وفى عملها الأصلى داخل بيتها ، ولا فى خارجه ، لأنها تكون فى هذه الحالة كمن يحاول خرق سياج الطبيعة وتبديل السنة الفطرية ، ولذلك نجد فى البلاد التى خرجت فيها المرأة الى العمل — وخاصة الولايات المتحدة — أن نسبة الطلاق فيها قد ارتفعت بحيث أصبحت تشكل خطرا جسيما على كيان الأسرة ، والمجتمع كله ، فماذا جنى الغرب من حرية المرأة ؟

وينتقل الى البــاب الثانى فيتناول تربية المرأة . ويرى أن الشريعة قد حثت على وجوب التربية الخلقية التى تضمن اصلاح النفس وعمار الكون وضمان السعادتين . وكان السلف الصالح

---

(١) تربية المرأة والحجاب ص ١٧ .

يعودون أبناءهم عليها ، فيشبون وقد تشبعوا بمكارم الأخلاق . ولم تول الدنيا عنا الا يوم أهملنا تلك التربية . ثم دهمتنا المدنية الغربية بما بها من مظاهر خادعــة ، فحسبناها منتهى ما يدركه الانسان من الكمال ، فتسابقنا الى التشبه والتقليد .

فاذا كنا نريد اصلاحا حقيقيا فلننظر الى مدنيتنا الاسلامية ، ولنقتبس منها أسس التربية السليمة لكل أفراد المجتمع من بنين وبنات ، لأن تربية البنين عندنا عاجزة بما فيها من نقص عن خلق جيل من الرجال الأفاضل ، وتربية البنات وحدها لاتخلق المجتمع الفاضل . أما الحضارة الأجنبية فان بناءها الاجتماعى لا يلائمنا .

ولكن المؤلف يعود بعد ذلك فيسلم برأى قاسم أمين حين يقول : « على أن لا شيء يمنع المرأة من التوســع فى العلوم والمعارف اذا وجدت عندها قابلية من نفسها وكان وقتها يسمح لها به . كما أنه لا شيء يمنعها عند اقتضاء الحاجة من أن تتعاطى من الأعمال بعض ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقاتها » (١).

ثم ينتقل الى أهم نقاط البحث وهى مشروعية الحجــاب ، فيعرض لقوله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .. » وينقل من الأحاديث المروية وسيرة الصحابة أن المقصود ستر الوجه لأنه أعظم زينة للمرأة ، أما ما ذكرته الآية « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » ، فهى الكحل والخضاب . ثم كيف يمكن الاختلاط مع غض البصر ؟ واذا كان قاسم أمين يرى أن الحجاب

---

(١) تربية المرأة والحجاب ص ٥٩ .

خاص بنساء النبى ، وأن قوله تعالى « يا نساء النبى لستن كأحد من النساء » فيه معنى التخصيص ، فان قوله تعالى فى آية أخرى : « يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » قد قطع كل شك فى وجوب الحجاب . وقد اعتمد قاسم على رأى بعض الفقهـاء فى اباحة كشف الوجه واليدين والقدمين ، مع أن رأى الفقهاء فى هذه الاباحة كان خاصا بالصلاة وحدها ، لا بقضية الحجاب والسفور .

على أن من يقول بجواز النظر لوجه المرأة عند أمن الفتنة قد قضى بتحريم ذلك على الاطلاق خصوصا فى هذه الأيام ، حيث نشاهد تبذل الشباب واستهتارهم كل حين ، فما بالنا لو خلعت المرأة الحجاب وأطلقنا لها الحرية ؟ ان الاحصائيات تثبت أن المرأة الشرقية — بسبب الحجاب — أكثر نساء العالم تعففا ، ولا نريد أن نمزق ستار العفاف .

واذا كان قاسم يتسـاءل لماذا اختص النسـاء بالاحتجاب والتبرقع دون الرجال وكلاهما مأمور بغض الابصار ، فالاجابة واضحة . اذ من المسلم به أن لكل من الزوجين وظيفة اختص بها ، وكانت وظيفة الرجل خارج بيته للسعى على معاشه ووظيفة المرأة منزلية داخل البيت وخروجها للضرورة فتكليفها بالتبرقع دون الرجل أكثر ملاءمة لظروفها .

أما ما قيل عن علم عائشة فهو حجة على قائله لأنها كانت محتجبة حجابا تاما بالاجماع ، ولم يمنعها الحجاب من التفقه فى أمور الدين والمشاركة فى أمور الحياة وكذلك كان كل النساء

المسلمات اللائى نبغن وبلغن درجة من العلم والكمال . فالحجاب لم يمنع من تحصيل العلم ولا تدريسه . واذا كان الحجاب هو المانع من الترقى فلم لم يترق كل الرجال ؟

ولو نظرنا الى المرأةالأوربية ،لوجدنا الأمر يرجع الىحاجةأوربا للأيدى العاملة بسبب ظروف حياتها ، فخرجت النساء لمساعدة الرجال على الكسب والتعمير . فلما ابتذلت المرأة هناك أعرض الشباب عن الزواج ، فاضطرت المرأة الى أن تستمر فى العمل لتعيش . على أن الناظر الى المرأة الشرقية الآن ، يراها قد خرجت وأقبلت على ملاذ الدنيا ، وأغرتنا الحضارة الأوربية على التساهل ، وسيسير الزمن بنا — باسم الحرية والمدنية — حسب التخطيط الذى يدفعنا الأجنبى اليه الى أن تصبح المرأة الشرقية مثل الأجنبية ، مالم نبادر الى تقييد تلك الحرية لا الى اطلاقها ، والى تحرير الرجل قبل المرأة من الجهالة والفساد .

ويختتم المؤلف كتابه بعد هذه المناقشة الموضوعية الهادئة متمسكا برأى قاسم نفسه حين قال :

« الحجاب أصل من أصول الأدب فيلزم التمسك به ، الا أن المطلوب أن يكون منطبقا على ما جاء به الشرع » [1] . وهكذا نرى المؤلف يكاد يعود بعد مناقشة كل موضوع مسلسابوجهة نظرقاسم وان اختلف معه فى جزئية من الجزئيات أو تفسير من التفسيرات .

كان قاسم يقرأ ما يكتب حول الموضوع بأقلام المعارضين

(١) تربية المرأة والحجاب ص ١٠٥ .

فلا يغضب للمناقشات الموضوعية وان كان يضيق بالاتهامات ، ولكنه كان يعلم أن كل مصلح قد لقى أكثر مما لاقى ، وكان يتوقع أكثر من ذلك ، خصوصا فى مثل بيئته التى اعتادت أن تتمسك بالموروث باعتباره شيئا مقدسا . ولكن كان يخفف من وقع ذلك عليه أن أساتذته وبعض أصدقائه قد وقفوا الى جانبه يؤيدونه ، ولا سيما صديقه سعد زغلول ، الذى كان يلازمه فى تلك الفترة ويعينه على احتمال ما يلقى [١] .

وكانت « المنار » — التى يصدرها محمد رشيد رضا تلميذ الأستاذ محمد عبده — أول صحيفة بادرت الى تأييد قاسم فقالت فى أحد أعدادها : « ان أكثر المنتقدين يسيرون فى انتقادهم على غير هدى ، ويثرثرون بما تمليه عليهم خيالاتهم التى أثارتها أهواؤهم وعاداتهم » [٢] . ثم عادت تقول فى عدد تال : « اذا توهم بعض القراء أن ما ورد فى كتب الفقهاء من استحسان عدم كشف وجه المرأة وعدم مخالطتها بالرجال دفعا للفتنة ، هو من الأحكام الدينية التى لا يجوز تغييرها ، فنقول ان هذا الاعتراض مردود بأن الأحكام الشرعية جاءت فى الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق ، ووكلت فهم الجزئيات الى أنظار المكلفين ، ووضعتها تحت اجتهادهم ، وعلى هذا جرى العمل بعد وفاة النبى بين أصحابه وأتباعه » [٣] . وكان أنصار المرأة

(١) سعد زغلول للعقاد ص ٥٢٧ .
(٢) المنار ١٥ يوليو ١٨٩٩ .
(٣) المنار ٢٦ أغسطس ١٨٩٩ .

— على قلتهم فى ذلك الوقت — يقابلون التهكم بتهكم أشد والهجوم بهجوم مثله . ومن ذلك التهكم العنيف قول ولى الدين يكن : « قالوا ان تعليم المرأة مهيع الى افسادهن ، وما فى القائلين بذلك من تعلمت أمه وعرف فسادها ان هو الا لجاج مبين . أبى القدماء مزايلة عاداتهم فضلوا وأضلوا وحسبوا عصر أبنائهم مثل عصرهم فشقوا وأشقوا . حتى اذا كانت العاقبة اذا هم فى أجداثهم راقدون . لا يسمعون فتقص عليهن قصص من خلفوا ، ولا يتعظ بمصارعهم من عاش بعدهم ورأى خطأهم ، ومن لا تعظه العبر لا تؤلمه وقعات الصروف » (١) .

ومثلما طالعتنا كتب المعارضين من قبل ، طالعتنا كتب المؤيدين ، مثل « رسالة فى نهضة المرأة المصرية والمرأة العربية » لعبد الفتاح عبادة ، و « اكليل غار على رأس المرأة » و « النسائيات » لجرجى نقولا باز ، وغيرها من الكتب التى ألفتها النساء بعد ذلك ، دفاعا عن قضيتهن .

وكان لابد أن تنتقل هذه المعركة الضخمة التى وصل صداها قويا الى العراق والشام — الى الشعر . والشعراء أشد انفعالا بالأحداث ، وخصوصا فى هذه الفترة التى كان للشعر فيها دور توجيهى ، وله قراؤه العديدون . والدعوة تمس الدين من قريب أو بعيد فى عرف المعارضين وتلك دعوة غربية — كما يقول الشاعر جواد الشبيبى — فلن يستسيغها مجتمعنا ما دام متمسكا بتقاليده المقدسة :

---

(١) الصحائف السود ص ٩ .

منع السـفور كتابنا ونبينـا
فاستنطقى الآثـار والآيـات
تلك الوجـوه هى الرياض بها ازدهت
للنـاظرين شقائق الوجنـات
كانت تكتم فى البراقع خفيـة
من أن تمس حصـانة الخفـرات
واليـوم فتحها الصـبا فتساقطت
بعواطف الألحـاظ والقبـلات
صـونى جمـالك بالبراقع انهـا
ستر الحسان ومظهـر الحسنات
وضعى الصـدار عـلى الترائب انه
حق عليـك فحق نهـدك نات
وتماثلى فى البيت صـورة دميـة
مكنونة الأعضـاء فى الخبرات (١)

ويلجأ الشاعر عبد الحسين الأزرى الى الدين أيضا ، وهو لا يرى خلافا بين الناس على تثقيف الفتاة ، ولكن ما شأن الحجاب بالثقافة ؟ ثم يرى أن وراء هذه الدعوة الى السفور ، دعـوة مستترة الى المجون :

نص الكتاب على الحجاب ولم يبح
للمسلمين تبرج العـذراء

---

(٦) الشعر العراقى الحديث ٢٦٣ (نقلا عن مخطوطة للشاعر) .

ماذا يريبك من حجاب ســــاتر
جيـد المهاة وطلعة الذلفـــــاء
ماذا يريبـــك من ازار مـــانع
وزر الفؤاد وضـــلة الأهـــواء
ما فى الحجاب سوى الحياء فهل من
التهذيب أن يهتكن ستر حيــــاء
هل فى مجالسة الفتاة سوى الهوى
لو أصـدقتك ضـــمائر الجلساء
شيد مدارسهن وارفع مســـتوى
أخلاقهن لصـــالح الأبنـــاء
أسفينة الوطن العزيز تبصـــرى
بالقعر لا يغررك سطح المـــاء (١)

ويهاجم أحمد محـرم الشاعر المصرى (قاسم أمين) ويراه واهما فى دعوته الاصلاحية ، فكيف تقدر النساء على مالم يقدر عليه الرجال ؟ وكيف يحسب أن المرأة ان سفرت وخرجت الى الحياة تستطيع أن تفيد المجتمع وأن تأتى بمالم يأت به الرجال ؟

أغرك يا أســـماء ما ظن قاســـم
أقيمى وراء الخـــدر فالمرء واهم
سلام على الاســلام فى الشرق كله
اذا ما استبيحت فى الخدور الكرائم

---

(١) الأدب العصرى ج ٢ ص ٥٦ .

أقاسم لا تقذف بجيشك تبتغي
بقومك والاسلام ما الله عالم
أسائل نفسي اذ دلفت تريدها
أأنت من البانين أم أنت هادم ؟
وان امرأ يلقى بليل نعاجه
الى حيث تستن الذئاب لظالم
أتأتي الثنايا الغر والطرر العلى .
بما عجزت عنه اللحى والعمائم
ألا ان بالاسلام داء مخامرا
وان كتاب الله للداء حاسم [1]

ونفس النظرة نجدها عند « أديب التقى » الشاعر الشامي : فقد بدأت الدعوة الى السفور ، ثم بعد حين سوف تتعداها الى الخلاعة ، التي تؤدى الى دمار اجتماعي :

كيف ترضى بأن ترى حاسرات
يتملى وجوهها الفجار
واتخذن الخلاعة اليوم خلقا
هو للشعب لو أفاق دمار [2]

أما الفريق الآخر الذي أيد سفور المرأة ، فقد اضطر أن يرد على دعاة الحجاب حملتهم الدينية ، فرأى أن الدين لم يدع الى هذا الحجاب أو الى سجن المرأة ، وانما هو قديم ورثناه .

---

(١) ديوان محرم ج ٢ ص ٦٣/٦٥ .
(٢) الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام ص ١٤٤ .

وللرصافى قسم خاص فى ديوانه سماه « النسائيات » وخصصه للدفاع عن قضية المرأة ، حتى لقد بلغ به تحمسه لقضية المرأة أن تعرض لرجال الدين . ومما قاله دفاعا عن السفور قوله :

وأكبر ما أشـــكو من القـــوم أنهم
يعدون تشديد الحجاب من الشرع

على أن أشد أنصار المرأة من الشعراء كان الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى . وكان فى دعوته متسرعا من دعاة الطفرة ، ثائرا من دعاة الانقلاب . فهو لا يدعو المرأة الى خلع الحجاب ولكن يدعوها الى تمزيقه ، وهو لا يدعوها الى المطالبة بحقها ، ولكن يدعوها الى الثورة على الرجال ، بل الى رجمهم ان لاموها على شعورها ورغبتها :

أسفرى فالحجـــاب يا ابنة فهـــر
هو داء فى الاجتمـــــاع وخيم
كل شىء الى التجـــــدد ماض
فلماذا يقـــــر هـــذا القـــديم
انزعيه ومزقيــــه فقــــد أنكر
ه العصر ناهضـــــــا والحلوم
وارجمى من يلومـــــك فيه
ان شـــيطان اللائمـــين رجيم
لم يقل بالحجـــاب فى شكله هذا
نبى ولا ارتضـــــــاه حكيم

هو فى الشرع والطبيعـــة والأذوا
ق والعقـــــل والضـمير ذميم
السفور الســـفور فالهلك للشعـ
ـب أخـــيرا بدونه محتـــوم
لا يقى عفة الفتــــاة حجاب
بل يقيها تثقيفها والعــلوم (١)

ولم يكن الوقت يسمح فى تلك الأيام ، وخصوصا فى العراق — بمثل هذا القول ، فقد ثار عليه الثائرون ، واتهموه بالتحامل على الاسلام ، وعزل من وظيفته ، حتى قبع فى داره خشية أذى الناس ، وكتب الى (ناظم حكومة بغداد) يقول : « أسمع أن أحد المشايخ المتلبسين بالتقوى فى بغداد — هذا البلد الذى يسيطر عليه حكم الدستور وعدلك الواقى — أخذ يدير رحى فتنة ، فقام يحرض الجاهلين على الايقاع بى باسم الدين البرىء من الظلم ، جزاء مقالة اجتماعية نشرت بامضائى فى المؤيد الأسبوعى — كما فى تنوير الأفكار — دفاعا عن المرأة . وهى عدا كونها شبهات ضعيفة استفهامية تزول من نفسها ، لم يتعين بعد أكاتبها أنا ، أم هى مزورة على لسانى من عدو لى فى العراق . والذى أرجو من الحكومة الدستورية أن لا تقتص من الصابغين أكفهم بدمى اذا كان ما يريده المحرضون — أظنهم أكثر من واحد — بل تعنى بتعليمهم وانقاذهم من الجهل لئلا تمتد أيديهم فى المستقبل

(١) محاضرات عن جميل الزهاوى ٥٤ (مجموعة معهد الدراسات العربية) لناصر الحانى .

الى منكد آخر مثلى ، يتمنى فى كتاباته اصلاحا للأمة اجتماعيا»[1].

وفى الشام ، لم يندفع المؤيدون بمثل هجوم الزهاوى ، وانما هاجموا من رجال الدين من جهلوا يسره وسماحته ، فأثقلوا كاهل المرأة بهذه الحجب ، وحرموا ما حلله الله :

ظلموك يا حـــواء جهلا مطبقـــا
والمـــــرء مظلـــوم اذا لم يظلم
غلبوا نواميس الحيـــــاة فأثقلوا
عطفيك فى عبء الحجـــاب المؤلم
ما الدين الا نفحة روحيــــــــة
بثت لترشـــــد كل ذى قلب عمى
تلك العقائد فصلت من جاهـــــل
متغطرس أو أحمـــــــق متعمم
هم حرموا للنـــاس كل محـــلل
هم حللوا للنـــاس كل محرم[2]

وأما فى مصر فقد أيد حافظ ابراهيم الدعوة الى تثقيف المرأة والى حجاب لا يميل الى الارهاق والتضييق ولكنه فى الوقت نفسه لم يستطع أن يدعو الى حرية كاملة للمرأة :

الأم مدرسة اذا أعددتهـــــــا
أعددت شعبا طيب الأعـــــــراق

---

(١) الشعر العراقى الحديث ص ٢٥٨ (نقلا عن جريدة الرقيب ٧ شوال ١٣٢٨ هـ) .

(٢) الشعر الحديث فى الاقليم السورى ص ٣٢١ .

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا
بين الرجال يجلن فى الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع
يحذرن رقبته ولا من واقى
يفعلن أفعال الرجال لواهيا
عن واجبات نواعس الأحداق
فى دورهن شؤونهن كثيرة
كشؤون رب السيف والمزراق (١)
كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا
فى الحجب والتضييق والارهاق
ليست نساؤكم حلى وجواهرا
خوف الضياع تصان فى الأحداق
ليست نساؤكم أثاثا يقتنى
فى الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان فى أدوارها
دولا وهن على الجمود بواقى
فتوسطوا فى الحالتين وأنصفوا
فالشر فى التقييد والاطلاق
ربوا البنات على الفضيلة انها
فى الموقفين لهن خير وثاق

---

(١) المزراق : الرمح .

وعليكم أن تستبين بنـــــــاتكم

نور الهدى وعلى الحياء الباقى [1]

ولم تنته المعركة عند هذا الحد ، فقد نقل مؤيدو المرأة المعركة الى الأقصوصة الشعرية ، وصوروا المرأة بصورة المجنى عليها دائما ، والرجل هو الجانى دائما . فهو يغريها على عرضها ثم يفر هاربا ، أو يبيعها أبوها لزوج عجوز من أجل المال ، فتكون النتيجة أن تنتحر غـير آسفة [2] . واضطر المحافظون الى نقل المعركة للجانب الآخر ، وهو جناية المرأة على المرأة أو على نفسها . ودارت فعلا المعركة على صفحات المقطم .

على أن الرواية لم تتم فصلا ، فقد كان قاسم يقرأ كل ما يكتب حول المعركة ، ليقول كلمة أخيرة فى الموضوع ، وكان يجمع مادة غزيرة يدحض بها حجج المعارضين ، وتكون أشبه بكرة من نار تلقى فى كهف دامس فتبدد الأوهام والأشباح .

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٢٧٠ .
(٢) راجع ديوان الخليل ج ١ ١٠٥ ، ١٩٩ ، الأدب العصرى فى العراق ج ٢ ص ٢٤ ، ٤٧ ، ديوان الملاط ص ٣٢٩ .

الفصل العاشر

قاسم والمرأة الجديدة

كان قاسم يقلب النظر بين آرائه وبين حجج المعارضين ، فيجدهم حين يلتفتون الى الشرق يضعون نصب أعينهم امرأة مثالية ، وحين يلتفتون الى الغرب يتمثلون امرأة مبتذلة ، والمعتقدات الموروثة تقيدهم قيدا لا فكاك منه فى كل خطوة يخطونها . ومن هنا نهج فى كتابه الجديد « المرأة الجديدة » منهجا علميا دقيقا ، فهو يرفض أن يقبل أى دعوى من الادعاءات الشائعة دون أن يقوم عليها الدليل العلمى القاطع . وينبه الى وجوب الأخذ بالأسلوب العلمى ، اذا أردنا أن نصل الى نتيجة صحيحة فى معرفة حقوق النساء ، فننظر فى الوقائع التى تمر أمامنا ، ونتصور نظريتنا مطبقة فى قرية ثم فى مدينة ثم فى اقليم . ونتمثل النساء فى جميع أعمارهن وأحوالهن وطبقاتهن ، بنات ومتزوجات ومطلقات وأرامل ، ونتصورهن فى المدرسة وفى البيت وفى الغيط وفى الدكان وفى المصانع . ثم نستعرض حال النساء فى غير بلادنا ، ونقف على حالة المرأة فى الأزمان الخالية والتقلبات التى طرأت عليها . ثم يبين قاسم أمين أن معظم الكتاب يبنون

أحكامهم على الشهوات ، وان وجد بينهم المنصف كان نصيبه أن يتهم بالتجرد من الوطنية وبالعـداوة للدين ، توهما منهم أن الاعتراف بفضل الأجنبى فى ناحية من نواحى حياتنا مما يزيد طمع الأجانب فينا . والواقع أن السبب فى طمع الأجانب ليس هو اعترافنا بتأخرنا ، وانما هو ذلك التأخر نفسه .

ويناقش قاسم أمين كثيرا من الادعاءات الشائعة التى توارثها الناس والتى يتناقلونها ويبنون عليها تفكيرهم كأنها مسلّمات . فمن هذه الادعاءات ما يزعمون من أن المرأة مخلوق ناقص العقل والتفكير ، وأنها أضعف عزيمة من الرجل وأقل قدرة منه على مقاومة الشهوات . وهو يرد على ذلك بأن التشريح الفسيولوجى والتجربة فى البلاد التى منحت المرأة حريتها قد أثبتت أن المرأة مساوية للرجل فى الملكات ، مثلما حدث فى ولاية « يومنج (١) الأمريكية » . وهنا يقف قاسم ليفصل تاريخ المساواة بين المرأة والرجل فى تلك الولاية تفصيلا دقيقا ، حين دخلت المرأة الحياة العامة ، وحين نالت حريتها السياسية ، ثم يترجم أقوال رؤساء الحكومة فيها عام ١٨٦٩ وعام ١٨٧٣ وعام ١٨٧٥ ثم عام ١٨٨٢ ، وقد تحدثوا جميعا عن نجاح هذه التجربة التى لفتت الأنظار .

ومن الغريب أنه فى الوقت الذى لا يعفيها القانون من العقوبة اذا ما ارتكبتها ، ولا تعفيها الشرائع السماوية من المسئولية ، ولا يعفيها الرأى العام من الخطأ ، بل ان مسئوليتها فى نظره

---

(١) ولاية غربيـة فى « الولايـات المتحـدة » تكتب اليوم « وايومنج » :

أكبر من مسئولية الرجل فى خطيئة واحدة ، فانه مع ذلك لا يود أحد أن يعترف بأنها مختارة ، بل هى فى نظرهم — رغم ذلك — ناقصة عقل بحيث تحرم من حريتها فى شئون الحياة العادية ، ولكنها تعتبر مسئولة فى الوقت نفسه .

ثم يبدأ فى مناقشة أهم الردود التى احتج بها المعترضون على « تحرير المرأة » . فاذا كان هناك خلاف بين الفقهاء حول ما يباح كشفه وما لا يباح ، فمن المسلم به آن الدين يسر ، ومن الأولى الأخذ بالحرية لا بالقيد . والاحصائيات التى أوردوها عن خطيئة المرأة الغربية المتمتعة بالحرية لا يمكن أن تكون دقيقة أو معقولة لأنها نشرت فى مجلة هزلية هدفها تفكهة القارىء ، والخطيئة نفسها لا يمكن حصرها بهذه السهولة . ولا خلاف فى أن نسبة الزواج فى أوربا أقل منها فى الشرق ، ولا يرجع ذلك الى خروج المرأة أو تكسبها وانما الفرد هناك لا يتزوج بالسهولة التى يتزوج بها الشرقى ، لأنه يبحث عن قرينة ترافقه طول الحياة وتشاركه أعماله وأفكاره وعواطفه . كما أن الحالة الاقتصادية فى البلاد المتمدينة لا تسمح للفرد أن يكون قادرا على الكسب المعقول الا فى سن متأخرة لأنه يصادف فى طريقه مزاحمات ، وعليه أن يخترق الصفوف . ومن الاحتياط عندهم ألا يتزوج المرء قبل أن يكون على ثقة من وسيلة للرزق تكفيه أن يعيش فى مستوى معقول . ومن المسلم به أن متوسط سن الزواج عندنا قد زاد عما كان عليه فى الماضى ، لهذا يمكن التأكيد أن عدد النساء اللاتى

يعملن لابد أن يزيد كل عام لأننا سائرون فى الطريق الذى سارت فيه أوربا من قبل .

والذى يقرأ قول العالم الأزهرى « ما سمعنا فى تاريخ من التواريخ ولا فى سفر من الأسفار ولا فى خبر من الأخبار أن أمة من الأمم تقدمت بنسائها . فأى من هذه العلوم والمعارف وأى أمر من مخترعات الحرف والصنائع اشتهرت به امرأة » — الذى يقرأ قوله يحق له أن يظن أنه لم يطلع على تاريخ من التواريخ ولا سفر من الأسفار ولا خبر من الأخبار ، فالنساء اللاتى خلدهن التاريخ لاشتهارهن بالعلوم تضمهن مؤلفات ضخمة . على أننا قد عنينا بتقدم الأمم عن طريق نسائها ، دور المرأة المثقفة فى اصلاح العائلة وبالتالى نهضة الأمة .

ومنذ سنوات انتقد « على مبارك » قول الشاعر القديم :

كتب الحــرب والقتال علينا   وعلى الغانيات جــر الذيول

ومع ذلك أورده أحد المعترضين كحجة يستند اليها . ولو قدر لهذا الشاعر أن يطلع — فى زمننا — على أعمال المرأة الأمريكية فى الحياة العامة كمحامية وأستاذة فى الجامعة وخطيبة وطبيبة لما قال مثل هذا البيت ، لأنه لا ينطبق على الحقيقة الواقعة الآن ، فلم يعد عمل الرجل الحرب والقتال ولم يعد عمل المرأة جر الذيول أو القعود دون عمل ، فليس من المعقول الاستناد الى قول شاعر عاش فى زمنه ، للرد على « تحرير المرأة » .

ويعترف قاسم أمين بأنه اطلع على مقالة السيد أمير عــلى

الهندى فى المقتطف وينقل فقرات منها تبين رأيه فى الحجــاب الشرقى وما أتت به الشريعة من سماحة ويسر ، ويتتبع تطوره وارتباطه بضعف الأمة الاســلامية ، ودعوته الى تحرر المرأة . ويعجب لما يقوله رجال الدين فى مصر وما يقوله مسلمو الهند . ففى الوقت الذى تأثر فيه الهنود بالدعوة الى الحرية ، وبالحركة النسائية العالمية ، وقدروا أثر هذا التطور فى الحياة الاجتماعية ، ما زال المعارضون فى مصر لحركة التطور العالمى يصمون آذانهم عما يعتبره العالم المتمدن من المسلمات .

وهناك من المعارضين كثيرون يسلمون بتربية المرأة وتعليمها لأنهم أدركوا أثر الجهل فى بيئتهم الخاصة ، ولكنهم يعترضون على خلع الحجاب وخروجها الى الحياة ويعتقدون أن من الممكن تربية المرأة وهى قعيدة بيتها أو وهى محجبة . والخلاف يرجع الى مفهوم التربيــة ، ففرق بين تعلم القراءة والكتابة وبين التربية الجسمية والعقلية ، والخلاف كبير حتى بين المتعلم الحاصل على أعلى الشهادات وبين المثقف ، لأن العلم ان لم تصاحبه التجربة فقد كثيرا من قيمته ، ومن هنا لا نجد أحدا يسلم نفسه الى طبيب يوم تخرج ، ولا يختار محاميا للدفاع عنه يوم حصــوله على الشهادة مالم يتمرن زمنا كافيا على العمل ، والنظريات لا يمكن أن تنتج معانى الا بنسبة التجارب المكتسبة .

ثم يرى قاسم أن الحكم على استعداد المرأة لا يكون عادلا ومنصفا ومستوفيا لشرائط البحث العلمى المحايد الا اذا منحنا المرأة الفرصة التى منحها الرجل لتثقيف عقله ودعم ملكاته خلال

الأجيال الطويلة . ويرفض أن يصدق ما يذاع من أثر حرارة الجو فى اثارة الشهوة ، مما يتذرع به الداعون الى الحجاب فى البلاد الشرقية الحارة ، مالم يقم على صحة هذا الزعم دليل علمى . ويستشهد برأى عالم ايطالى يقول ان العفة تكتسب بمنح الحرية للمرأة وان اختلاف الأجواء لا أثر له فى ذلك . ويعتمد على علم النفس وعلى علم وظائف الأعضاء فى التدليل على أن قوة البنية وسلامة الأعصاب هما أهم ما يعين الانسان على ضبط نفسه ، وأن ضعف البنية واعتلال الأعصاب هما من أهم الأسباب التى تجعل الانسان آلة تلعب بها الشهوات والأهواء ثم يعود فيطبق هذه النتائج العلمية على نسائنا ، فيرى أن نظام الحياة عندنا بما فيه من سجن للمرأة وتضييق عليها فى وسائل الرياضة ، يعرضها دائما لضعف الأعصاب ومتى ضعفت الأعصاب اختل التوازن فى القوى الأدبية . ثم ان زيادة الحجر على الفتاة كلما تقدمت فى السن والتشدد فى نهيها عن مخالطة الرجل ، يلفت ذهنها فى سن مبكرة الى ما بين الجنسين من اختلاف . هذا الى أن الألفاظ والصور التى تستقر فى نفوس الأطفال نتيجة الأحاديث التى تترامى الى آذانهم بغير تحفظ من الأمهات الجاهلات ، تترك أثرها العميق .

ويقيم قاسم أمين الدليل من حياتنا السياسية على أن الحرية هى منبع الخير للانسان وأصل ترقيته وكماله الأدبى ، ثم يطبق ذلك على المرأة فيقول : « اعتاد القوم شيئا فشيئا على الحرية — فى مصر — وبدءوا يشعرون بأن اختلال عيشهم لا يمكن أن يكون ناتجا عنها ، بل له أسباب أخرى . وتعلق بنفوس الكثير

منا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون للوجود معنى بدونها .. وهكذا يكون الحال بالنسبة لحرية النساء . أول جيل تظهر فيه حرية النساء تكثر الشكوى منها ويظن الناس أن بلاءً عظيما قد حلّ بهم لأن المرأة تكون فى دور التمرين على الحرية ، ثم مع مرور الزمن تتعود المرأة على استعمال حريتها وتشعر بواجباتها شيئا فشيئا وترتقى ملكاتها العقلية والأدبية » (١) .

ويعود قاسم فيبين أن النمو الأدبى لا يختلف فى سيره عن النمو المادى ، فالطفل يحبو قبل أن يمشى ، ثم يتعلم المشى بالتدريج مستندا الى الحائط أو الى قائد يقوده ، فاذا استقل بالمشى لم يحسنه الا بعد أن يتعرض للوقوع على الأرض مرات ، فلا ينبغى أن نكون كالأب الأحمق الذى يخاف على ولده اذا مشى أن يسقط فيمنعه من المسير ، حتى اذا كبر عاش مقعدا مشلولا .

ويقسم مسئوليات المرأة تقسيما علميا الى ثلاثة أقسام : ما تحفظ به نفسها ، وما تفيد به أسرتها ، ثم ما تفيد به المجتمع الانسانى . ويترك الحديث عن القسم الثالث الذى يتصل بمشاركة المرأة فى الأعمال العامة، ، لأن دورها فيه لم يكن فى نظره قد جاء وقتذاك . أما عن القسمين الآخرين ، فمهما اختلف الناس فى فهم طبيعة المرأة ، فليس فيهم من ينكر أنها لا تستغنى عن الأعمال التى تحافظ بها على قوتها الحيوية ، وتعدها للقيام بحاجات الحياة الانسانية وضروراتها . كما أنها لا تستغنى عن الأعمال

(١) المرأة الجديدة ص ٧٧ — ٧٨ .

والمعارف التى تتعلق بواجباتها فى الأسرة . ثم يوضح أننا قد ورثنا الصورة التى كوناها عن المرأة من العرب الذين قامت حياتهم على الغزو والحروب ، ومن ثمّ لم يكن فيها للمرأة نصيب تشارك به فى الدولة ، ثم لم يكن لها نصيب كبير فى تربية الولد ، لأن تربيته كانت مقصورة فى أغلب الأحيان على تربية جسمه ليشب مقاتلا لا عالما . فصورة المرأة هذه التى ورثها المسلمون عن العرب قد تكون صحيحة بالقياس الى الماضى ، ولكنها باطلة اذا نظرنا الى الحاضر والمستقبل ، لأن الحياة الاجتماعية والاقتصادية قد تغيرت تغيرا تاما . فقد اتسع الميدان لتجادل العقول ، والمرأة انسان مثل الرجل ، زينته الفطرة بموهبة العقل ، فمن حقها أن تسمو الى مرتبة الرجل أو ما يقرب منها على الأقل . ويعتمد قاسم على احصاء عام ١٨٩٧ ، الذى يدل على أن جملة النساء اللاتى يشتغلن بحرفة أو صنعة يمثل ٢٪ من مجموع النساء ، ولا يدخل فيه الفلاحات اللاتى يعملن بالزراعة ، ولا النساء اللاتى لا عائل لهن ممن يعشن عالة على أقاربهن . ثم يتساءل بعد ذلك : ألا ينبغى لهذا العدد من النسوة اللائى تقضى عليهن ضرورات الحياة بمزاحمة الرجال أن يزودن بما يعينهن فى معركة الحياة ؟ وهو لا يعارض فى أن الفطرة قد أعدت المرأة للاشتغال بالأعمال المنزلية وتربية الأولاد ، ولكن من الخطأ أن نبنى على ذلك أن المرأة لا يلزمها أن تستعد بالعلم والتربية للقيام بمعاشها وما يلزم لمعيشة أولادها عند الحاجة ففى النساء من لم تتزوج ، وفيهن من انفصلت عن الزوج بالطلاق أو الموت ، وفيهن المحتاجات لمعاونة

الزوج لفقره أو لعجزه أو لكسله . وفى المتزوجات عدد غير قليل ممن ليس لهن أولاد . ثم يعجب للذين يعارضون تعليم المرأة ، فهم يبيحون للمحتاجات منهن أن يعملن ، ويقولون ان الضرورات تبيح المحظورات ، ولكنهم ينسون أن مذهبهم هذا ليس له الا دلالة واحدة ، وهو أنهم يريدون قصر المرأة على الأعمال الحقيرة الممتهنة كالخدمة فى البيوت ، وبيع السلع الزهيدة فى الطرقات .

أما القسم الثانى الذى يتصل بمسئولية المرأة أمام أسرتها ، فيعتمد فيه قاسم على احصائية وفيات الأطفال فى القاهرة ، ويقارنه بوفيات مدينة ضخمة كلندن ، فيرى ان عدد الموتى من أطفال القاهرة يزيد على ضعف عدد الموتى من أطفال لندن ، ويرجع ذلك الى جهل الأم المصرية بالثقافة الصحية ، هذا الجهل الذى يحول بينها وبين فهم زوجها وتربية أبنائها وادارة بيتها ، لأن أعمال الانسان تصدر عن أصل واحد هو علمه واحساسه . ويضرب الأمثلة لجهل الأم وأثره فى فساد تربية الأبناء ، كمنع الطفل من اللعب حتى لا يزعجها ، واخافته بموهمات تثير فى ذهنه خيالات قد تلازمه طول عمره ، ووعده بوعود لا تفى بها ان أرادت مكافأته .

وبالرغم من هذه المناقشة العلمية ، فهو يعلم أن كثيرين سوف يحكمون على كتابه بالادانة قبل أن يقرءوه ، ولذلك فهو يضع أمله فى الشباب الذين يستطيعون تقدير الأمر فى توجيه مستقبل حياتهم وحياة أمتهم ، بعد أن تخفت أصوات الناعقين . « نحن

لا نكتب طمعا فى أن ننال تصفيق الجهال وعامة الناس .. وانما نكتب لأهل العلم وعلى الخصوص للناشئة الحديثة ، التى هى مستودع أمانينا فى المستقبل ، فهى التى بما اكتسبته من التربية العلمية الصحيحة يمكنها أن تحل مسألة المرأة المكان الذى تحله من العناية والبحث » [1] .

ولهذا نرى قاسما قد خطا خطوة أخرى فى كتابه « المـرأة الجديدة » ، فبعد أن كان ينظر الى المرأة الأوربية ، اذا به ينظر الى المرأة الأمريكية ، وهى قد ظفرت بحرية أكبر من زميلتها الأوربية ، وبعد أن كان يطلب للمرأة تعليما محدودا ، أصبح يطلب لها ثقافة أوسع فى كل مراحل التعليم ، وبعد أن كان يطلب من الرجل السماح لنسائه بالحجاب الشرعى ، اذا به يطلب من المرأة نفسها تمزيق الحجاب بيديها ومحو آثاره [2] ، وبعد أن كان يتحفظ فى حديثه عن عمل المرأة عند الضرورة ، يحاول أن يلفت نظر النساء والرجال معا ، الى الوظائف التى يمكن اذا ما تعلمتها المرأة أن تحسنها اذا ما طرقتها كالتدريس والطب والتجـارة والحرف الأدبية [3] .

ويعود الى السؤال الذى سأله فى تحرير المرأة « عن سر تأخر الدول الاسلامية ، ويجيب هذه المرة اجابة علمية دقيقة ، وينهج منهجا استقرائيا فيفترض لذلك ثلاثة أسـباب هى : الاقليم

---

(١) المرأة الجديدة ص ٨٦ .
(٢) المرأة الجديدة ص ٤٩ .
(٣) المرأة الجديدة ص ١٠٨ .

والدين والأسرة . ثم يستبعد الفرضين الأولين ، لأنه لم يثبت بأدلة علمية صحيحة أن الحرارة تؤثر فى الجسم والعقل تأثيرا سيئا . ولأن المسلمين قد برهنوا فى ماضيهم على أن دينهم عامل قوى من عوامل الترقى فى المدنية . ولذلك فهو يرد تأخر المسلمين الى نظام الأسرة الفاسد بسبب جهل المرأة . ويؤيد ذلك بأن الأمم الشرقية التى لا تدين بالاسلام تشاركهم فى ذلك لأن وضع المرأة فيها لا يختلف عن وضعها فى الأمم الاسلامية . والعلوم التى يتلقاها الأبناء فى المدرسة لا تزيد قيمتها عن أن تكون محفوظات لا ينفذ منها شيء الى باطن نفوسهم ، فتكون داعية للعمل حافزة له . وذلك لأن تربيتهم الأولى لم تتناول وجدانهم فى الصغر . « هذا الوجدان الذى هو المحرك الوحيد للعمل ، لا يظهر ولا يقويه ولا ينميه الا التربية البيئية ، ولا عامل له فى البيت الا الأم ، فهى التى تلقن ولدها احترام الدين والوطن والفضائل ، وتغرس فى نفسه الأخلاق الجميلة ، وتنفث فيها روح العواطف الكريمة » (١) .

وقد اتسم كتاب « المرأة الجديدة » الى جانب هذا الطابع العلمى الغالب بالاعتماد على آراء العلماء الغربيين . وقد اضطر أمام مهاجمة رجال الدين الى القسوة فى الحكم على الحضارة الاسلامية فى بعض الأحيان . فقد كان معارضو قاسم يرون أن نهضتنا يجب أن تعتمد على تراثنا الموروث وعلى حضارتنا الاسلامية وحدها . ولذلك فهو يرد بأن الحضارة الاسلامية قامت

(١) المرأة الجديدة ص ١٤٠ .

على دعامتين : الأساس الدينى الذى كون من القبائل العربية أمة واحدة ، والأساس العلمى الذى ارتقت به الأمة الاسلامية وآدابها . ثم يقول ان العلم كان وقتذاك ضعيفا فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضربا من الظنون التى لم تؤيدها التجربة ، ولذلك كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت رقابتهم ، وزجوا بأنفسهم فى المسائل العلمية ، ينتقدونها ويفتون بمخالفتها لنصوص القرآن والحديث التى يؤولونها ، وبذلك حملوا الناس على اساءة الظن بالعلم ، فنفروا منه وهجروه ، وانتهى بهم الأمر الى الاعتقاد بأن العلوم جميعا باطلة سوى العلوم الدينية . بل قالوا فى العلوم الدينية نفسها انها يجب أن تقف عند حد لا يجوز لأحد أن يتجاوزه . ثم تقدمت العلوم ، وظهرت المكتشفات الحديثة ، واستطاع العلم أن يشيد بناء متينا لا يمكن لعاقل أن يفكر فى هدمه ، وبذلك تغلب رجال العلم على رجال الدين . وينتهى قاسم من هذا العرض الى أن التمدين الاسلامى قد بدأ وانتهى قبل أن يكشف الستار عن أصول العلم ، فكيف يمكن الاعتقاد أن هذا التمدين كان نموذج الكمال البشرى ؟ ثم يبين أن كثيرا من ظواهر التمدين الاسلامى لا يمكن أن تدخل فى نظام حياتنا الاجتماعية المعاصرة ، ثم يتساءل : ما الذى يطلب منا أن نستعيره ؟

ويدعو قاسم فى آخر كتابه دعوة صريحة إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية فيقول — بعد أن يبين أن اعجابنا الشديد بالماضى هو نتيجة لشعورنا بالضعف : « هذا هو الداء الذى يلزم أن

نبادر الى علاجه ، وليس له دواء الا أن نربى أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصـــولها وفروعها وآثارها . واذا أتى ذلك الحين — ونرجو ألا يكون بعيدا — انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أن من المستحيل أن يتم اصلاح ما فى أحوالنا اذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة . وان أحوال الانسان مهما اختلفت ، وســواء كانت مادية أو أدبية ، خاضعة لسلطة العلم . لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما فى شـــكل حكومتها وادارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ولغاتها وكتابتها ومبانيها وطرقها ، بل فى كثـــير من العـــادات البسيطة كالملبس والتحية والأكل .. هذا هو الذى حملنا على أن نستلفت الأنظار للمرأة الأوربية » (١) .

ثم يشير فى النهاية الى ما انبعث فى الشرقيين من شوق الى مجاراة الغربيين بعـــد أن اختلطوا بهم فتبينوا ســـوء حالتهم الاجتماعية ، ويرى أن الكتاب قد فاتهم أن آراءهم لا تترك أثرا الا اذا وصلت الى حجر الزاوية فى تربية الأجيال — الى المرأة . فاذا أردنا اصلاحا فلنتعاون معا على أن نبدأ الاصلاح من أوله ، فما من اصلاح أجدى على الأمة من عمل امرأة تهدى الى الأمة رجلا يفيد نفسه وأهله وأمته . واذا آمن المجتمع بمبدأ التقدم

---

(١) المرأة الجديدة ص ١٨٤ .

استطاع أن يتخلى عن كل تلك التقاليد التى تحد من تفكيره وتربطه رباطا وثيقا بالموروث وحده .

هذه الآراء جميعا اذا نثرتها ، وجدتها تأييدا للآراء الأولى التى وردت فى تحرير المرأة ، لكنها فى بعض نواحيها أكثر طموحا . فاذا كانت فكرة قاسم قد نشأت عندما كان يرد على الدوق داركور فانها بلغت تمام نضجها فى « المرأة الجديدة » حين أوضح فكرته عن الحرية وعن مبدأ التقدم .

وهذه الوحدة الفكرية نستطيع أن نلحظ نشأتها فى كتاباته من مؤلف الى مؤلف . وعلى الرغم مما لقيت هذه الفكرة من نقد فانها لم تكن الا تعبيرا عن آمال رجل كان يرى أن حرية المرأة لازمة لبلوغ الكمال الانسانى [١] ، وكان يتمنى لو يكون فى العمر بقية ليكتب عن شهيرات النساء .

وبذلك أنهى قاسم أهم دور فى المعركة التى دارت فى الوطن العربى . ولكن المرأة نفسها استطاعت أن تحسم الموقف ، فقد سفرت ودخلت المدارس والتحقت بالأعمال والوظائف وأصبح لها صحفها التى تدافع عنها وجمعياتها التى تتكلم باسمها . ولعبت الصحف دورا هاما فى المعركة بما كانت تروى من أخبار النشاط النسائى العالمى . ولم يمض جيل واحد حتى كان دعاة المحافظة على الموروث قد تركوا الميدان .

ثم جاءت الثورة ، فكرمت المرأة حين منحتها الحقوق

---

(٢) خاكى ص ١٢٧ .

السياسية ، فى الوقت الذى نجد فيه المرأة الأوربية فى بعض المجتمعات ، لم تنل حظ زميلتها المصرية فى ميدان السياسة ، على الرغم من كفاحها الطويل . واشرأبت الأعناق تتطلع الى ما تصنع الثورة بعد هذه الخطوة ، فاذا بالميثاق ينص على « أن المرأة لابد أن تتساوى بالرجل ، ولابد أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة ، حتى تستطيع أن تشارك بعمق وايجابية فى صنع الحياة » (١) .

ونقف اليوم لننظر الى مطلع القرن العشرين ، الى أيام قاسم أمين ، ونسمعه ينادى بالحجاب الشرعى فتتعالى الصرخات ضده ، ونعود ننظر الى الحاضر فنرى المرأة قد تبوأت مقعد الوزارة ، فلا تعلو وجوهنا الدهشة ، ذلك أن قاسما حين فتح لها باب الحياة الطليقة ، أدرك كثير من المفكرين أن الأيام لابد أن تسير بها الى نهاية الطريق .

---

(١) الميثاق ص ٨٧ (طبعة مصلحة الاستعلامات) .

الفصل الحادي عشر

قاسم الكاتب المبدع

يمتاز الأديب باحساس مرهف يتأثر وينفعل ، يلتقط ما حوله من جلائل الأمور ودقائقها فيستوعبها ويختزنها حتى تحركها تموجات مشاعره ، فتخرج تجارب أدبية . وهكذا كان قاسم أمين تقع عينه النفاذة على الصور الجزئية فلا يلبث بعد حين أن يصوغها في أسلوب أدبي مثلما نرى في كتابه « كلمات » ، ولعله قد تأثر بكتاب « لارو شفوكولد » الذي أسماه Les Maximes ، فهو يشتمل على حكم ومواعظ في جمل مستقلة ، وهذا هو الطابع العام لكلمات قاسم أمين (١) .

وكان يرى أن الكاتب المحب لفنه لا يتملق القراء ، فهو أشبه بعاشق يعتقد الكمال فيما يحبه وما يصوره لأنه بضعة من نفسه . « في الكتب والجرائد والمجلات أرى الكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء أكثر من عنايته بابداء فكره . ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر أفكاره كما هي . ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة

---

(١) سبق أن أبدى قاسم أمين اعجابه بكتاب فرنسي يشتمل على حكم ومواعظ في جمل قصيرة (كلمات ص ١٩) .

والنقصان ، لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأى أمر كان . هو العاشق الذى يعتقد الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شيء يعادله ولا يبالى بذم الناس بل يجد فيه نوعا من حماسة الغضب منبها لأعصابه منشطا لقواه مغريا له على الاستمرار والثبات » (١) .

والذى يقارن بين أسلوبه وأسلوب بعض معاصريه مثل عبد الله فكرى ، يدرك أن قاسما كان من الكتاب الذين تحللوا من قيود الصنعة وكتبوا بأسلوب حر جديد . والواقع أن الربع الأخير من القرن الماضى كان فترة الصراع الذى انتهى بالتمهيد لأسس الأسلوب الجديد . فقد كان أسلوب الكتاب مسجوعا لا يخلو من المحسنات البديعية . ولكن حركة الاحياء كانت قد بدأت تعمل عملها فى تطوير أسلوب النثر ، فبدأ الكتاب يقرأون للجاحظ وابن المقفع وأمثالهما ، وبدءوا يتخلصون من الركاكة والمحسنات فى كثير من الأحيان . ثم كانت حركة الترجمة التى أطلعت الكتّاب على الأسلوب الحر المرسل الذى يهتم بالمعنى وتزينه الأفكار . وانتشرت الصحافة فلم يعد لدى الكاتب وقت لمثل هذه الزخارف اللفظية ، ووجد مساحة محدودة لابد أن يعبر فيها عن كثير من المعانى ، فكان ذلك ايذانا بانطلاق الأساليب من قيودها على أن هذه المرحلة لم تخل من صراع بين الأساليب التى حرصت على الجزالة والفخامة ، وتلك التى نشدت البساطة

---

(١) كلمات ص ٨ .

فى التعبير .

يقول طه حسين : « واستطاع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان أن يكتبوا فصولا لا تخلو من آثار القديم ، فيها السجع وفيها تكليف البديع والبيان ، ولكنها بعيدة كل البعد عما كان يكتب فى أوائل القرن الماضى وفى منتصفه أيضا ، فيها حرية لفظية ومعنوية ظاهرة ، وفيها اجتهاد فى اختيار الحر من اللفظ » (١) .

ولكن أصحاب الجديد كانوا يحاولون أن يخطوا به خطوة أخرى ، فهم يرون السجع وسائر أنواع البديع أشبه شىء بالوشم عند الشعوب البدائية ، وكان أكثر الذين نهجوا هذا النهج أصحاب الثقافات الأوربية . وهكذا نجد أديب اسحق يقول : « النثر هو الكلام المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة الا ما يكون من وضع الكلام فى مواضيعه ، وايثار ما يألفه السمع والطبع منه ، فهو من هذا الوجه مقدم على سائر أنواع الكلام ، بل هو الأصل فى الانشاء » (٢) .

عاش اذن قاسم أمين فى عصر تحول لغوى أدبى ، وكان من هذه الفئة التى تحررت بأسلوبها من كل قيد ، فهو الى جانب قراءاته العربية ، واسع الاطلاع على الفكر الغربى ، فخرج من ذلك وله أسلوب عربى سلس ، فكان ينظر الى اللغة على أنها

---

(١) النثر العربى فى نصف قرن (من كتاب حافظ وشوقى لطه حسين ص ٧٨) .

(٢) مجالى الغرر ج ١ ص ٥ .

تعبير عن نفسية الكاتب ، فلا محل للتصنع والتكلف ، ومن هنا لا نجده وقف مرة واحدة ليوفق سجعة ، ولا ترك لفظا يسيرا واضحا ليكتب لفظا غريبا . ولقد عبر هو عن موقفه من أسلوب الكتابة حين قال : « الكاتب الحقيقى يجتنب استعمال المترادفات ، فلا يأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فى مكان واحد ، لأن ذلك يكون حشوا فى الكلام مستهجنا ، ودليلا على فقر فى الفكر والخيال ، ولكن اذا كان المقال يستدعى ذكر عدة معان متقاربة يجمعها معنى واحد ، فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن ، وقد يكون مطلوبا اذا كان لازما لتسهيل فهمها أو اظهار الفروق التى بينها » (١) .

كان قاسم اذن يود من الكاتب أن يتجنب الحشو فى الكلام بأن ينطلق أسلوبه سلسا حرا ، وذلك حد من حدود البلاغة ، لأن الحشو والتكلف بكل ألوانه دليل على فقر فى الفكر يستره الكاتب بصناعته . ولا يمكن الكاتب البليغ أن يكتب وليس عنده ما يقوله ، ولا يمكنه أن يكون كاتبا بليغا اذا قعد خياله عن أن يغلف الحقيقة . فالكاتب المقلد الذى تذوب شخصيته فى الأصل الذى يحاكيه ، والشاعر الذى يجتر ما استوعبته حافظته كلاهما لا يعيش فى عصره ، وكلاهما غير خالد . وانما الأديب الخالد هو الذى يعبر عما فى نفسه هو ، يعبر عن أحاسيسه وتجاربه التى عاشها واستوحاها (٢) . وفكرة التعبير عن النفس وتجنب التقليد

(١) كلمات ص ٤٠ .

(٢) كلمات ص ١٤ .

والأسلوب الحر الخالى من الصنعة والخيال المبتكر ، كلها كانت أسسا قامت عليها نهضتنا الأدبية فى الربع الأول من القـرن العشرين .

ولقد كان لقاسم آراء ثورية فى اللغة ، فهو يرى فتح باب الاجتهاد فى اللغة — كما كان يرى فتحه فى التشريع — لأن اللغة العربية أيام ابن سينا وابن رشد وابن مسكويه وأضرابهم كانت لغة العلم والأدب والفلسفة فكانت من أوسع وأغنى لغات العالم ، ولكنها وقفت مكانها زمنا فى الوقت الذى أخذت فيه اللغـات تتطور وترتقى حتى أصبحت نموذجا فى السهولة والوضـوح والدقة والحركة والرشاقة . فاذا أتحنا للغة العربية أن تستوعب المصطلحات الأوربية الجديدة الخاصة بالاختراعات أثرينا اللغة ، واذا انتقينا من العامية الكلمات الفصيحة أو التى لها أصل عربى فصيح ، لم نحتج الى الاشتقاق والنحت . فنحن خلفاء العرب ، وما تخترعه ملكاتنا فى اللغة يعد عربيا (١) . وعلماء اللغة فى أوربا يشبهون لغاتهم بأشجار ضخمة تسقط أوراقها الجافة كل حين وتنبت مكانها أوراق خضراء نابضة جديدة .

يقول أحمد خاكى مؤيدا رأى قاسم : « وقد كان فى مصر فئة من الكتاب يحسبون أن اللغة العربية قد وسعت كل شىء ، وأنها ليست بحاجة الى أن تتزود أو تستعير من اللغات الأخرى . كان عند هؤلاء نعرة جافة أو قل انها كانت اقليمية متزمتة . كانوا يرفضون كل أسلوب جديد وكل كلمة جديدة . أما قاسم أمين

(١) كلمات ص ١١/١٣ .

فقد كان يرى أنه لا حياة للغة لا تتطور . فاللغة نفسها تتأثر بالبيئة التى هى فيها ، ومادامت البيئة الانسانية فى تطور مستمر ، فان اللغة فى تطور مستمر أيضا » [1] .

ثم يضرب المثل باللغة الانجليزية التى عاشت عالة على اللغات الأخرى ، فأصبحت وفيها هـذا الفيض من الكلمات الاغريقية واللاتينية والفرنسية والايطالية والاسبانية . وهناك أيضا الكلمات التى انتحلتها أو استعارتها من البلاد التى استعمرتها ، ومن أجل ذلك أصبحت أغنى لغات العالم . ويعود فيضرب المثل أيضا باللغة العربية نفسها ففيها ألفاظ عبرية وسريانية وفارسية ، ولقد كانت لغة العرب مرنة فى عصورها الزاهرة ، وهذه المرونة نفسها هى التى دعا اليها قاسم أمين . وهذه الفكرة كما هو واضح تنقسم قسمين . الشق الأول خاص بتنقية الكلمات الفصحى أو التى لها أصل فصيح من العامية ، وهى فكرة لا بأس بها حاولها أحمـد عيسى عضو مجمع اللغة العربية بعد ذلك فى كتابه « المحكم فى أصول الكلمات العامة » ، وأتى فيه بذخيرة من الألفاظ كلها عربية أو من أصل عربى ، كنا نخشى استعمالها لترددها على ألسنة العامة . وقد طبق المازنى ذلك عمليا فى مجموعات مقالاته مثـل « صندوق الدنيا » و « خيوط العنكبوت » وغيرهما . ومن الحق أن هذه الكلمات ليست لها الايحاءات التى للكلمات الفصحى تلك التى اكتسبتها بعمرها الطويل على مدار الزمن ، ولكن لها دلالاتها

---

(١) خاكى ص ١٤١ .

القريبة التى اكتسبتها بدورانها على الألسنة فى أسلوب الحديث ، ومن هنا كانت صالحة كل الصلاحية لأسلوب الحوار فى القصة وفى المسرحية على وجه الخصوص .

أما الشق الثانى الخاص بفتح الباب على مصراعيه للكلمات الأوربية ، فقد كان الدافع له حركة الترجمة التى اتسعت دائرتها فى ذلك الوقت ، وانتشار الصحافة انتشارا كبيرا . فقد كانت الصحف تنقل فى كثير من الأحيان الألفاظ الأوربية ، وكانت حركة الترجمة تحاول التعريب ، وقامت منذ ذلك الوقت فكرة انشاء مجمع للغة العربية ليعين المترجمين فى عملهم ويثرى اللغة بتعريب المصطلحات الجديدة التى تفرض نفسها على قاموس العصر ، ويكون حصنا للغة يصد ذلك التيار الأجنبى .

يقول قاسم أمين : « لا أدرى ما هى غاية الكتاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد ، يجهدون أنفسهم فى البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الأجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من الأوتوموبيل . ان كان المقصد تقريب المعنى الى الذهن ، فالكلمة الأجنبية التى اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية ، وان كان مقصدهم اثبات أن اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم أمرا مستحيلا ، اذ لم توجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها » [1] .

---

(١) كلمات ص ١١ .

كان اثراء اللغة وتقريب المعنى الى الذهن اذن هما هدفا قاسم، واذا كانت اللغة الانجليزية قد استعارت من اللاتينية والفرنسية وغيرها فهى لغة قصيرة العمر لا تقارن من هـذه الناحية باللغة العربية . واللغة العربية فى مرحلة اكتمالها قد صنعت ما صنعته الانجليزية حين أخذت من الفارسية، ولكنها حتى فى ذلك الوقت عربت أكثر ما أخذته وهضمته حتى صار بضعة منها . ومن المهم أن نذكر أن المترجمين فى أول القرن التاسع عشر قد عربوا المصطلحات الطبية والهندسية وغيرها دون أن يعنّوا أنفسهم أو يجهدوها . ولو فتحنا هذا الباب على مصراعيه لاضطربت أصول اللغة وقوالبها التى تكسبها شخصيتها بهذا التيار الوافد من الغريب . وكلمة سيارة التى كانت غريبة على أذن قاسم لجدتها أصبحت الآن هى وأمثالها قريبة الدلالة بكثرة الاستعمال . فالمسألة لا تعدو أن تكون مسألة وقت حتى تستقر الكلمة الجديدة وتمرن على سماعها الآذان .

على أن لقاسم رأيا آخر أشد ثورة وأبعد من رأيه الأول من ناحية التنفيذ . فهو حين رأى اللحن شائعا بين الذين يقرأون أو يتحدثون باللغة العربية ، ورأى أن قواعد النحو نفسها تحول أحيانا دون الفهم ، أخذ يشرح رأيه ، الذى ما يزال بعض الناس يرددون أمثاله كلما ضاقوا بالاعراب وقواعد اللغة : « لم أر بين جميع من عرفتهم شخصا يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهانا على وجوب اصلاح اللغة العربية . لى رأى فى الاعراب أذكره هنا بوجه الاجمال ، وهو أن تبقى أواخر الكلمات

ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل . بهذه الطريقة وهى طريقة جميع اللغات الافرنكية واللغة التركية ، يمكن حذف قواعد النصب والجوازم والحال والاشتغال ، بدون أن يترتب عليه اخلال باللغة اذ تبقى مفرداتها كما هى .

« فى اللغات الأخرى يقرأ الانسان ليفهم ، أما فى اللغة العربية فانه يفهم ليقرأ ، فاذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف (ع ل م) يمكنه أن يقرأها عَلِمَ أو عُلِمَ أو عَلَمٌ أو عَلّم أو عِلْم أو عُلَمٍّ . ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق الا بعد أن يفهم معنى الجملة ، فهى التى تعين النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون » [١] .

ولا شك أن قاسما قد أسرف حيث قدر العلاج ، فقد لا يبدو من الغريب أن يدعو الى استعارة المفردات الأجنبية ، أما اذا حاولنا أن نتجاهل الاعراب ، فان لغتنا لن تكون اللغة العربية . ذلك أن اللغة العربية تمتاز بحالات البناء والاعراب ، وتتشكل فيها المعانى حسب حركات الاعراب ، بمعنى أن الفاعل والمفعول يختلفان باختلاف حركة الكلمة ، ولا سبيل الى أمن اللبس الا بتلك الحركات ، لأن من الممكن تأخير المفعول وتقديمه ، وقل مثل ذلك فى حالات الاعراب الأخرى .

واذا كان النحويون قد أسرفوا على أنفسهم بتفريعاتهم الكثيرة وبتخريجاتهم التى جاوزت الحد وأصبح النحو بحاجة

---

(١) كلمات ص ١٢/١٣ .

الى مؤتمرات لتيسيره ، فلم يدعهم الى ذلك الا الافراط فى الدقة .

وفى هذه المرة نسمع أحمد خاكى يعارض قاسما حين يقول :

« اذا نحن وقفنا بالسكون عند آخر كل كلمات اللغة العربية ، فان هذا فى نفسه قتل لروح اللغة . ان هذا معناه أن هذه الألوان التى تروح وتغدو عند كتابة اللغة العربية سوف تنطمس ، فيبدو وجه اللغة حالكا أغبر . زد على ذلك أن منطق اللغة نفسه وهو قائم على حركات الاعراب سوف يتصدع ، بل زد على ذلك أيضا أن ميراثنا من الشعر والحكمة سوف يتزايل ، لأن أساس الشعر العربى هى تلك الأنغام التى تؤلفها حركات الاعراب . وليس هنالك وجه للمقارنة بين اللغة العربية وبين اللغات الأخرى فى هذا الأمر ، لأن هذا الأمر قد اختصت به اللغة العربية وحدها » (١) .

على أن لنا أن نضيف الى ذلك أن اللغة الألمانية ، وهى لغة أوربية حديثة واسعة الانتشار ، فيها تغير أواخر الأسماء بحسب موقعها فى الكلمة بأكثر مما فى اللغة العربية ، ففيها الرفع والنصب والجر بحرف الجر ، وعلامة أخرى للجر بالاضافة . ولم يضق بها أهلها .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد رأينا كيف كان قاسم أمين من أوائل الذين لمسوا حاجتنا الى الاصلاح اللغوى ، وقيام المجمع اللغوى بعد ذلك كان دليلا على حاجتنا تلك ، ولا زالت بعض المشاكل

---

(١) خاكى ص ١٤٦ .

التى أثارها قاسم جديدة بما يثار حولها من مناقشات بين الحين والحين ، ماثلة أمامنا نقرأ ونسمع .

ونخلص من كل هذه الآراء الى أسلوب قاسم نفسه ، فنجد بوادر شخصية أدبية تفننت فى الوصف . وهو فى هذا الوصف يلتفت الى الأجزاء الصغيرة لتتم الصورة الكبيرة . وعلى الرغم من أنه لم يترك الا صورا متناثرة لبعض وجوه الحياة فى مصر ، فقد كانت لديه حساسية نفاذة وقدرة روائية . يقول قاسم : « يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية ، والعاقل يكتفى بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج مجانا على وقائع لم تبلغها مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين » [1] .

وهذه القدرة على التشخيص ترجع الى العين اللاقطة للجزئيات والذهن الذى يحلل هذه الجزئيات ثم يعود فيركبها شأن الكتاب المسرحيين أو القصاصين البارعين . ومن أجل هذا فوصف الشخصيات عنده بصفات يبالغ الكاتب فيها يعد عجزا من الأديب ، لأن التحليل نفسه هو الذى يعطينا الوصف بعد سبر غور الشخصية . وفى ذلك يقول قاسم : « الكاتب المجيد لا يضع صفة بجانب الاسم الا اذا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع ، على أن الاعتماد على ذكر الصفات ، والمبالغة فيها بقصد التأثير ، هو أقل درجات فن الكتابة ، ويفضلها بكثير طريقة الغربيين الذين يعولون فى الوصف على ذكر الوقائع وشرح

---

(١) كلمات ص ٣٠ .

ظروفها وتحليلها تحليلا دقيقا ، أو تشريح الانسان وفتح جوفه وكشف ما خفى من أعصابه وسبر غور أحشائه والتسمع عــلى نفسه ، لادراك ما يدب فيها من النزعات والخواطر والأميــال والحركات ، ويوصف منظر الشيء بهيكله التام بأجزائه كلها ، ليحدث فى نفس القارىء أو السامع صورة كاملة وشعورا تاما وأثرا باقيا » [1] .

كيف كان اذن يرسم شخصياته ؟ وهل طبق هذا المبدأ الذى حدثنا به ؟ وما خصائص أسلوبه ؟ هذه أسئلة لن نستطيع الاجابة عنها قبل أن ننقل رسمه لبعض شخصياته . يقول قاسم : « قبيل الغروب ، وقف بنا وابور النيل الذى كان يحملنا بجانب غيط مزروع ، وكان يشتغل فيه رجلان ، لمح أحدهما ثعبانا غليظا قصيرا فقر وهو يصيح (ثعبان ثعبان) . أما الآخر فتقدم اليه حاملا فأسه وضربه بها عدة ضربات حتى قضى عليه ، ثم تركه فى مكانه وأخذ سلاحه وعاد الى عمله ، ولم يتكلم فى أثناء ذلك بكلمة . وحينئذ تحرك زميله ومشى محترســا على أطراف قدميه شاخصا الى الحيوان ، واقترب منه بطيئا بطيئا ، ولما وصل اليه ، لمسه بطرف الفأس التى كانت فى يده ، وقلّبه مرة ثم مرة أخرى حتى اذا تحقق أنه مات ، صاح (يا ابن الكلب) وطعنه بالفأس طعنة قوية » .

« ولما رأى الثعبان لا يتحرك ، أمسكه من ذنبه وصعد به الى الجسر ، وكان فى هذه الساعة عامرا بالمارة ، فاستوقف الأطفال

---

(١) كلمات ص ٤٠ .

والنساء والرجال ، وصار يقص الواقعة عليهم قائلا : (هجم علينا فقتلناه) وفى آخر الرواية يلقى الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الأطفال ، فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن ، وما زال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعا وهو فى مقدمتهم حاملا فريسته » (١) .

هذا هو وصفه لشخصية الجبان المتظاهر بالشجاعة ، وهناك شخصية الطفيلى النهم التى يرسمها محاولا تشخيصها فيقول :

« دعينا للعشاء وكنا ستة أو سبعة من الأصحاب مسرورين باجتماعنا ، مستعدين للتمتع بمسامرة ودية مجردة عن التكلف ، وبينما نحن متجهون الى قاعة الطعام ، اذ دخل علينا زائر من المشايخ ، فاضطر صاحب المنزل الى أن يدعوه الى الأكل معنا ، فدخل أمامنا واختار لنفسه أحسن مكان ، وكان أول الجالسين . جلس على الكرسى القرفصاء ، فانفتح قفطانه وظهرت سراويله ، ثم برم كم القفطان والقميص الذى تحته برما محكما ، فانكشف الساعد الى المرفق فتمثل لى جالسا فى مكان من الميضأة يستعد للوضوء . اشتغل بالأكل ولم ينطق بكلمة أو يصغ لحديث . ولما كان بعيدا عن المائدة ، كان كلما يتناول شيئا من الطعام يسقط بعضه على ملابسه ، وكان يلقى العظام على مفرش المائدة . فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات الأكل فيقذفها من فيه بقوة ، يمينا وشمالا .

---

(١) كلمات ص ٢٧ .

« وبينما نحن شاخصون الى حركات هذا الشيخ ، صاح أحدنا — آه يا عيني — وقام واضعا يده على عينه فالتففنا حوله وسألناه الخبر ، فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت فى عينه ، فتأملنا فلم نجد فيها أثرا . فضحك وقال انها نفذت فيها ، وخرجت من الجانب الآخر » [1] .

وأول ما نلاحظه هذه الدقة فى الالتفات الى الحركات التى ترسم معالم الصورة وتشخصها حتى كأنها أمامنا ، وتحليل الشخصية من خلال هذه الحركات ، لأن الصفات لا تقوى على نقل الصورة واضحة .

أما الملاحظة الثانية ، فهى سلاسة الأسلوب وتدفقه فى حرية لا تكلف فيها ولا زخارف تعوقها ، أشبه شىء بالتيار الصافى الذى ذهب بكل الشوائب التى تجمعت على مر القرون . ولكننا نلاحظ أخيرا أنه استعمل كلمة وابور بمعنى باخرة وأصلها Vapour أو Vapeur بمعنى سفينة بخارية ، كما استعمل بعض الكلمات الدارجة مثل « غيط ، نكش » ولكنها فى الحقيقة عربية صحيحة . وكذلك استخدم كلمات عربية ولكن فى تركيب دارج مثل « آه يا عينى » وغيرها ، ولا بأس من استخدام الألفاظ العربية فى تلك التراكيب الدارجة فى بعض الأحيان ولدلالة معينة . وبعض النقاد يرون فى مثل ذلك التعبير جلا لأسلوب الحوار فى المسرحية وفى القصة .

---

(١) كلمات ص ٤٢ .

والى جانب فن تصوير الشخصيات فى « كلمات » ، نجد الحكم الموجزة . والحكمة فلسفة الخاصة ، كما أن المثل فلسفة العامة . وقد عرف العرب المثل والحكمة ، جمع الميدانى أمثالهم وتناثرت حكمهم فى صفحات البيان والتبيين للجاحظ والأمالى للقالى والعقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها . وفى الأدب الكلاسيكى الفرنسى اهتم بها « لابروبير» و « لارشفوكو » .

والحكمة خلاصة تجربة مرت بانسان عميق الاحساس كثير التجارب ، فصاغها صياغة أدبية سواء أكانت نثرا أم شعرا . وفى الوقت الذى كان فيه الشاعر يقوم بدور الحكيم ، كان لحكمته أثر بالغ ، ونحن حتى الآن ما زلنا نتمثل بالحكمة فى كثير من مواقف حياتنا ، لاحتوائها على تجربة انسانية عميقة . وهى تؤدى دورها بمجرد التمثل بها ، لأننا نضيفها الى تجاربنا ، ثم يكون لها أثرها فى تعميق مفهومنا للحياة .

ونحن عندما نقرأ قول قاسم : « النفس الضعيفة تنحنى للقوى ، وتنكمش أمام الظالم وتهاب كل صاحب سلطة » أو ننظر الى قوله « لا تكمل أخلاق المرء ، الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه » . أو نسمعه يقول : « يوجد أناس متى رأيتهم أو سمعتهم تشعر بنقص فى خلقهم ، كأنهم صنعوا بغاية السرعة ، فلم ينالوا حظهم من الاتقان المعهود » .

حين نقرأ هذه الأقوال ، نحس حقيقة أنها خلاصة تجارب عاناها فى حياته ، تركزت فى تلك الكلمات . وندرك أن تيارا واحدا يجمع كتابه « كلمات » على تفرقه ، وهو التيار

الأخلاقى الاصلاحى ، ونعلم أن ذلك الكتاب على صغر حجمه قد وعى من الحكم والصور والتجارب والآراء أكبر من حجمه بكثير ، ولكن كل تلك الأشكال ترتد الى نبع واحد يتدفق فى كل الاتجاهات ، وهو الاصلاح الاجتماعى . والواقع أننا اذا حاولنا أن نضع قاسما الأديب بين أدباء عصره ، وجدناه يحتل مكانة مرموقة . فهذه الشخصيات التى رسمها بعناية وحلل نفسياتها ، عجز كثير من القصاصين فى عصره عن رسمها ، وظهرت شخصياتهم باهتة الملامح قريبة الغور . كان المويلحى يحاول كتابة القصة فى ذلك الوقت فى « عيسى بن هشـــام » وبطل هــذه القصة هو « الباشا » الذى أحياه المؤلف بعد موته بنصف قرن فكيف كانت تلك الشخصية الفريدة ؟ يقول (عيسى بن هشام) : « وبينا أنا فى هذه المواعظ والعبر ، وتلك الخواطر والفكر ، أتأمل فى عجائب الحدثان ، وأعجب من تقلب الأزمان ، مستغرقا فى بدائع المقدور ، مستهديا للبحث فى أسرار البعث والنشور ، اذا برجة عنيفة من خلفى ، كادت تقضى بحتفى ، فالتفت التفاتة الخائف المذعور ، فرأيت قبرا انشق من تلك القبور ، وقد خرج منه رجل طويل القامة ، عظيم الهامة ، عليه بهاء المهابة والجلالة ، ورواء الشرف والنبالة ، فصعقت من هول الوهل والوجل ، صعقة موسى يوم دك الجبل ، ولما أفقت من غشيتى ، وانتهيت من دهشتى ، أخذت أسرع فى مشيتى ، فسمعته ينادينى ، وأبصرته يدانينى » [1] .

---

(١) حديث عيسى بن هشام ص ٨ .

واذا استبعدنا الأسلوب المسجوع والشخصيةالاستقراطيةالتى تدور حولها القصة ، وجدنا كل الملامح تقتصر على طول القامة وعظم الهامة . واذا تتبعنا الشخصية الى آخر القصة لم نكد نعثر على تحليل يتعمق بواطن نفسية البطل.

وكان « أحمــد شوقى » فى ذلك الوقت يحاول القصــة والمسرحية الى جانب الشعر الغنائى . ولكن همه فى القصة كان موجها الى الصناعة اللغوية التى كانت سائدة ولذلك لم يكتب لتلك القصص شىء من النجاح . وفى (ورقة الآس) نرى لشوقى هذه الصورة الوصفية :

« أسماء واصفة هند ابنة ملك العرب : ما أعظم حذقك ، وأحسن ذوقك ، وأعرفك بالأجمل من الزى ، والأزين من الحلى . لقد أخرجت الأميرة اليوم لأهل الحضر ، كما تخرج السماء البدر ، أو الرياض بديع الزهر . فلو رفع سابور الطرف ، فرأى هــذا الجمال الفائق ، فى هذا الزى الشائق ، لأتاه هواها قبل أن يرتد طرفه ، ولو نيط باحدى نساء البدو أن تزين الأميرة ، لما زادتها فى حسنها هذا ولا نقصتها منه . تجمع الزينة فى بنات الملوك كما تجمع اللآلى ، وهى فى الحالين كريمة ، لا يزيدها النظام قيمة ، على أن للملك جلالا لابد أن يمثل للناس ، وما مثل عز هذا الملك بأفخر من هذا التاج ، ولا أبهى من هذه الحلة ، وكأنى بسابور قد لمح هذا المثال فى الجمال والجلال ، فافتتن فى الحال » .

فأين هذا الأسلوب الذى يقيده السجع والبديع من أسلوب قاسم المشرق الحــر ؟ واذا استثنينا الأســلوب والشخصيات

الأرستقراطية مرة ثانية لم نجد للملامح ظلا على الاطلاق ولم نجد للشخصية أثرا واضحا . فاذا كان قصاصو العصر يكتبون بهذا الأسلوب وبتلك الطريقة فان قاسما يحتل بشخصياته التى صورها مكانة مرموقة بين أدباء عصره ، وبأسلوبه الرفيع مركزا من مراكز الريادة فى ذلك الوقت .

واذا كان الأدب الحديث لم يعرف المثل والحكمة الا فى الشعر — على الأغلب — فان النثر الحديث مدين لقاسم بتلك الحكم التى كانت عصارة تجارب عميقة ، صاغها هذه الصياغة الفنية ، لتكون امتدادا للحكمة التى صاغها العرب قديما . ولكن حكمة قاسم ثرية بتجارب عصرنا وثقافته ، شديدة القرب الى نفوسنا لأنها مستمدة من البيئة العربية فى مصر الحديثة .

ولا نستطيع ونحن نضع قاسما بين أدباء عصره ، أن نغفل دعواته التقدمية ، حين نادى بترك التقليد لما لا يتلاءم مع ظروف حياتنا ، وضرورة تعبير الأديب عن حياته وحياة مجتمعه الذى يعيش فيه ، وحتمية الالتفات الى واقعنا لا الى الوراء نجتر ميراث أجدادنا البعيدين ومقاييسهم .

والواقع أن هذه الدعوة بدأت تتخذ طريقها الى الصحف مع بداية القرن العشرين ، حين اتصلنا بالثقافة الغربية وبدأت ترجمة نماذج من أشعارهم ، ومن هنا نسمع صيحة أخرى تتجاوب مع صيحة قاسم وتهيب بالأدباء والشعراء أن يفتحوا نوافذهم ليروا شعر الأمم الأخرى ، لأن الشاعر الحق هو من يصف ما يشاهده لا من يعيد وصف ما قرأه : « يظهر أن الشعراء آخر من يفكر فى

خلع القديم الخلق ، والتزين بالجديد ذى الطلاوة ، فمن كل زمرة الشـعراء والمتشاعرين الذين ينظمون الشعر أو يدعون النظم ، لا نكاد نرى واحدا فى المائة ، يحاول مجاراة العصر ونبذ القديم واقتباس الجديد .. كنت أكلم عالما فاضلا ببعض الأمور العلمية والأدبية فورد ذكر الشعر والشعراء عرضا ، فجعلنا نقابل الشعر العربى بالشعر الافرنجى ونبين الفرق بينهما ، فقـال ان السر (ولتر سكوت) الشاعر الانجليزى المشهور كان اذا أراد وصف جدول ماء مثلا ، قصده ليراه بعينه ثم رسمه على قطعة ورق بما على ضفتيه من الحصى والأحجار والأشجار كأنه مصـور لا شاعر ، ثم شرع فى وصفه شعرا . حتى اذا قرأ أحـد ذلك الوصف أمكنه تصور الجدول فى مخيلته تصورا واضحا كأنه يرى صورته الحقيقية أمامه . أما شعراؤنا فقضوا أيامهم فى مدح فلان وذم فلان .. فما أحرى الشاعر المصرى أن يتناسى وجرة وماءها ويتغزل بالنيل ما شاء ، ويعجب به ما شاء ، وهو أبو مصر وروحها وحياتها » (١) .

وبعد سنوات قام العقاد وشكرى والمازنى بدعوتهم التى نادوا فيها بالتعبير عن أحاسيس الشاعر ، وأن يمزج خيالاته بذات نفسه ليكون شاعرا ذاتيا ، لا غيريا يصف المنظر من خارجه كآلة التصوير . فالشعر هو ما أشعرك بعواطف النفس والمعانى الشعرية هى خواطر المرء وتجاربه . ومن ثم بدأ نبع الشعر يتخذ رافدا

---

(١) المقتطف ١٩٠٢ ص ٢٤/٢٦ .

جديدا يغاير الرافد التقليدى الموروث . واذا كنا قد عرضنا لآراء قاسم وأسلوبه وصوره الأدبية لنتمثل المنزلة — الكبيرة — التى يحتلها بين أدباء عصره ، فكيف كان أسلوبه العلمى الذى صاغ به « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » ؟

الى جانب هذا الأسلوب الغنى الذى صاغ به صوره الأدبية ، نجد أسلوبه فى كتابيه الأساسيين وفيه شىء من تلك الخصائص ، ولكنه أسلوب منطقى جدلى . يذكر لنا القضية ويعرضها عرض المحامى الذى يريد أن يكسب قضيته . وقد يذكر لنا سلسلة بأكملها من الحجج لاثبات قضيته ثم ينتهى الى سلسلة أخرى من الأسئلة الانكارية يمعن بها فى اثبات ما يرى ، وما يزال حتى يقنعنا بالحجج التى أوضحها واحدة بعد الأخرى . ومن أجل ذلك يقسم الفكرة الى جزئيات صغيرة يناقش كل واحدة منها من كل وجوهها ، حتى اذا انتهى منها تجمعت الصورة الكلية فى الاطار العام . ففى « تحرير المرأة » عندما يرد على الرأى القائل بامكان الجمع بين زوجتين يقول : « فالجواب عنه من وجهين : الأول أن ما يدعى من رضاء كل منهن بمالها فليس بصحيح الا فى بعض أفراد نادرة لا حكم لها فى تقدير حال أمة ، وان وقائع المنازعات بين النساء وأزواجهن والجنايات التى تقع بينهم مما لا يكاد يحصى . والثانى أن ما يكون من ذلك الرضاء فى القليل النادر فهو ناشىء عن أن المرأة انما تعتبر نفسها متاعا للرجل .. كما كان الرجال عندنا يعتبرون أنفسهم متاعا للحكام

فى عهد ليس بعيدا عنا » [١] وفى « المرأة الجديدة » عندما يتحدث عن الحرية التى يعشقها الرجل وينبغى أن تتمتع بها المرأة ، يرى أن المرء يشعر بثقل الضغط والاجحاف اذ حاولت سلطة الحكومة أن تتدخل فى شئونه الخاصة ، « ولذلك سببان : الأول أن رأى الحاكم اذ طابق هوى شخص ، فقد يخالف أهواء الأغلب لأن الأمزجة مختلفة .. والثانى ما دلت عليه التجارب من أن تداخل الحاكم فى الشئون الخاصة للأفراد يضعف من قواهم » [٢] .

وهكذا نرى أن أسلوبه المنطقى فى كتابيه يشبه فى كثير من النواحى أسلوبه الوصفى ، لأنه فى كليهما يحاول أن يوضح الأجزاء حتى تكمل الصورة الذهنية [٣] . والظاهرة الثانية فى هذا الأسلوب هى الاستشهاد بالقرآن الكريم فى كثير من المواقف ، وذلك يرجع الى ثقافته الدينية التى استمدها من قراءاته لكتب الفقه . وهذه الظاهرة تتضح فى أسلوبه منذ بدأ يكتب مقالاته « أسباب ونتائج » [٤] .

بعد هذا العرض ، نستطيع أن ندرك أن تيار الاصلاح ، امتد منذ بدأ قاسم يفكر فى أمته تفكيرا ايجابيا بعد عودته من أوربا ، حتى نهاية حياته ، وأن فكرة تحرير المرأة قد وضع بذورها منذ بدأ يكتب مقالاته « أسباب ونتائج » ، وأن أسلوبه بما فيه من

---

(١) تحرير المرأة ص ١٢٥ .
(٢) المرأة الجديدة ص ٣٧/٣٨ .
(٣) خاكى ص ١٤٠ .
(٤) راجع أسباب ونتائج ص ٢٠ ، ٢٤ .

خصائص معينة واحد فى كتابيه الرئيسيين « تحــرير المرأة » و « المرأة الجديدة » ، ونستطيع فى سهولة أن نقف موقفا ايجابيا من الفكرة التى شاعت حينا حول أسلوب تحرير المرأة وأفكاره .

وكذلك نستطيع أن ندرك الوحدة الفكرية والأسلوبية فى كل نتاجه الأدبى والفكرى . واذا لم نلحظ تطورا كبيرا فى خصائص أسلوبه من فترة الى فترة ، فما ذلك الا لأن حياته لم تطل حتى يطوّر تلك الخصائص ، على ما فيها من مميزات الكتابة الأدبية الرفيعة فى تلك المرحلة ، وهى بداية القرن العشرين .

الفصل الثانى عشر

معالم الشخصية

عندما توفى الشيخ محمد عبده ، وقف تلميذه قاسم يرثيه ، محاولا أن يحدد جوانب شخصيته قائلا : « بلغت فيه طيبة النفس الى درجة تكاد تكون غير محدودة . كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد ، فيندفع اليه ويسعى الى كل نفع للغير عام أو خاص . كان ملجأ الفقــراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين والمصابين بأى مصيبة .. يبذل اليهم ماله ويسعى لهم عند ولاة الأمور بهمة لا تعرف الملل كأنما كان يسعى لأعز انسان لديه — يسعى مرة ومرتين وثلاثا الى أن يقضى حاجتهم وهم جميعا فى نظره مستحقون — سواء كانوا كذلك فى الحقيقة أم لا . بل كان يسعى الى صاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء اليه وقدح فيه وتحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوما مدة حياته .

« لا يصل الانسان الى هذا الخلق العظيم الا اذا ربى نفسه على أن تتغلب عــلى الغــرائز القبيحة الملازمة للطبيعة البشرية وصارحها كما عليها ، يحاسبها عن كل عمل أو نزعة أو فكرة

أو خاطر مما يرد عليها . كان الأستاذ يرى أن الشر لا فائدة منه مطلقا ، وأن التسامح والعفو عن كل شيء وعن كل شخص هما أحسن ما يعالج به السوء ويفيد في اصلاح فاعله .. من يرى أن الحياة لهو وزين له أن يعيش ليأكل ويشرب ويسافر وينقد أفكار الباحثين وعمل العاملين ، أولئك لا يعلمون أن امام مصر كان محركا بقوة اعتيادية ، وأن عقله كان ملآنا بالفكر الى حد أنه ما كان يسعه كله فكان يفيض منه بالرغم عنه ، وأن قلبه كان ملتهبا بحب وطنه فلا يستريح الا وهو مشـغول به وبسعادته ومستقبله ، وأنه كان مثل جميع نوابغ الرجال لا يبالى بالألم الذى يأتيه بسبب أمنيته التى كان يعزها ، بل كان يجد الألم فيها لذيذا كما يلتذ العاشق بما يقاسيه من العذاب فى هوى من يحبه .

« كم من مرة سمعته يؤكد بأنه صمم على أنه لا يتداخل فى شيء من هذا القبيل ثم رأيته فى الغد منغمسا فيه أكثر مما كان . ذلك لأنه بعكس ما يراه عموم المصريين فى أنفسهم عنده أمل لا يزعزعه شيء فى اصلاح أمته . كان عنده اعتقاد متين فى أن البذرة الطيبة متى ألقيت فى أرض بلادنا الخصبة نبتت وأزهرت وأثمرت . لهذا كان يلقى بملء يديه كل ما جمعه فى حياته من الأفكار الصالحة والعواطف الشريفة والتعاليم المفيدة ، كأنه كان يشعر أن حياته ليست طويلة ، وكان يعجل ببذل جميع ما كان عنده » [1] . وكأنما كان قاسم يصف نفسه حين تحدث عن طيبة

---

(١) تاريخ الشيخ محمد عبده ج ٣ ص ٢٢٦ ــ ٢٢٨ .

القلب ، التى جعلته ميالا الى التسامح دائما ، ونقاء السريرة الذى دفعه الى حب الخير ، وقوة ارادة تجعله لا يبالى بالألم فى سبيل تحقيق أمنيته ، وحبه لوطنه ممثلا فى دفاعه عنه ورغبته الملحة فى اصلاحه . وكان يأخذ نفسه بالجد ، لأن الحياة عنده ليست لهوا وانكبابا على اللذات ، ويلقى بكل ما جمعه فى التربة المصرية ، مثلما فعل أستاذه ، كأنما كان يشعر هو أيضا بأن أيامه فى الحياة قصيرة .

لم يكن قاسم فى حياته العامة ممن تغلب عليهم روح المرح ، ولا حتى فى حياته الخاصة . ولعل ذلك يرجع الى مزاجه العصبى . فأصحاب هذا المزاج قد يتغلبون على ثورتهم الداخلية بمرح ظاهر ولكن انفعالهم الشديد أمام الأحداث يكشف طبيعتهم دائما ، وقد يتغلبون على تلك الثورة الداخلية بهدوء المظهر ، وخصوصا اذا كانوا من ذوى الارادة القوية التى يستطيعون بها أن يضبطوا عواطفهم فى أكثر الأحيان ، وعلى الأخص اذا كانوا من أصحاب الفكر وأصحاب الثقافة الواسعة الذين يغلب عليهم التفكير ، مثل قاسم أمين الذى كان يتحرج من الاسترسال فى الحديث قبل أن يفكر فى كل كلمة يقولها ، خشية أن يجرح احساس أحد سامعيه ولو عن غير قصد . ولعل الشخصية العصبية من أكثر الشخصيات استعدادا للرقى ، لانفعالها الشديد بالأحداث التى قد يمر عليها الانسان العادى دون أن يتأثر بها ، أولئك هم المغامرون بأنفسهم يصطدمون بكل صعوبة ولا ينثنون حتى يذللوها ، يسعدون ويألمون ، وربما كان ألمهم أكبر من سعادتهم ذلك الألم المصفى

للأرواح والملكات ، ومن هنا كان منهم الشعراء والحكماء والمصلحون ، الذين يرسمون عالما مثاليا ، يسعدون به ، فاذا اصطدموا بالحياة ، عاد منهم الشعراء الى عالمهم الخاص يتغنون به ، وعاد المصلحون الى وحدتهم يرسمون خطوات الاصلاح المنشود . « وجدت السآمة غالبا فى الاجتماعات ، وما شعرت بها فى الوحدة . أشتاق الى الناس فاذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما يزهدنى فيهم فأفر منهم ، وأرجع ملتجئا الى نفسى فأجد فيها الراحة والسكون » (١) .

والقلوب الحساسة الشاعرة لابد أن تعجب بالذوق السليم فى كل مظهر من مظاهر الجمال . فى الملابس الأنيقة وفى حب الفنون جميعا ، وفى التنسيق ، وفى الحديث ولو كان الى الأهل والزملاء . « الذوق السليم هو هذا الاحساس الفطرى الذى ينمو ويتهذب بالتربية . هو الشعاع اللطيف الذى يهدى صاحبه الى أن يقول ويفعل ما يناسب المقام ويجتنب ما لا يناسبه » (٢) .

ومن مظاهر هـذه القلوب الودودة ، تقديس الصداقة وتصويرها فى صورة سامية نبيلة . لأن الاحساس بالوحشة يزعجها، ولا يسعدها الا أن تكون عامرة بحب الأصدقاء ، الذين ترتاح اليهم ، وتأنس بلقياهم ، وتنطلق على سجيتها معهم . « أكبر سرور ، السرور الوحيد الذى يخفف عن الانسان حمل الحياة ويرغبه فى بقائها وينسيه الزمن والساعة ، ويجعله يتمنى أن يحكم عليهما

(١) كلمات ص ٢٠ .
(٢) كلمات ص ٢٩ .

بالوقوف ، هو أن يوجد فى بيته صديق عزيز ، ويجلس على كرسى يستريح فيه ، محاطا بأشياء اعتاد أن يراها بنظره ويلمسها بيده ، وفى هذا الجو الذى يشرح صدره ويسكن أعصابه ، يقضى زمنا من الليل فى احراق السجائر وهو ينظر الى الدخان الذى يتصاعد منها الى السقف يتحدث مع أشخاص يحبهم فيخاطبهم ويسمعهم بلا تكليف ولا تحضير ولا حساب ، يفتح قلبه ويفرج احساساته المحبوسة ، ويترك زمام عقله فيسير على هواه يمشى ويرمح وينط فرحا بحريته فى اختلاط الأفكار وائتلاف القلوب ، يجد على هذا الشكل لذة مسكرة لا شبيه لها » (١) .

ولذلك وجدنا ابراهيم الهلباوى يتحدث عن الصديق قاسم أمين حديثا فياضا بالحب ، ووجدنا فتحى زغلول فى كتابه « سر تقدم الانجليز السكسونيين » (٢) يذكر صديقه قاسم أمين مدافعا عن آرائه ، ورأينا قاسما فى « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » يذكر صديقين عزيزين عليه ، هما فتحى زغلول وسعد زغلول . وربما كانت صداقته لسعد أقوى مظاهر هذه العاطفة الفياضة ، فهو يهدى اليه كتابه « المرأة الجديدة » مصورا اخلاص الأصدقاء ووفاءهم ومودتهم ، وجمال الحياة فى ظلال الاخوة بين الأحباب .

وقوة الشخصية لا تقاس بجلجلة الصوت ، ولا بعنف المظهر ، وانما تقاس برجاحة العقل مع القدرة على الاقناع ، والاعتداد بالنفس الذى لا يبلغ حد الغرور الممقوت ، والوقار الذى لا يصل

---

(١) كلمات ص ٥٩ . راجع أيضا تحرير المرأة ص ٣١ ، ٤٦ .
(٢) سر تقدم الانجليز ص ٤٤ .

الى التزمت . وهذه كلها جوانب من شخصية قاسم القوية التى استطاعت أن تفرض نفسها على معاصريه ، وأن توجه المجتمع . « لا تكمل أخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه » . لولا هذه القوة الغلابة ما استطاع أن يواجه الناس بكتابه « المرأة الجديدة » من بعد « تحرير المرأة » فيكسب أنصارا جددا ، يحطمون معه بمعاولهم أسوارا من التقاليد التى لم تعد تتلاءم مع الحياة .

وهذه القوة كثيرا ما يكتسبها المرء من ايمانه العميق ، لأن المؤمن يرعى الله فى كل عمل يقوم به ، ولا يتجه الا الى الله يستمد منه العون ، ولا يرهب الا غضبة خالقه . « ليس الايمان مسألة عقلية أو علمية ، فانا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وانما الايمان مسألة شعور صرف . شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجا اليه الى حد أنه يستحيل عليه أن يعيش بدونه » [1] .

وهذا الشعور الذى كان يملأ فؤاد قاسم هو الذى كان يدفعه الى مقاومة شهوات الحياة ، والترفع عن الماديات الفانية ، والتعلق بالكمال ، وكثيرا ما كان يدفعه هذا الاحساس الى حالة أشبه بحالات المتصوفة ، يذهل فيها عن كل ما يحيط به غير وجه الله ، فيخشع بين يديه طالبا منه الغفران ، راجيا الوصول الى سعادة الدارين بما يقدمه بين يديه من وجد ، ثم يعود أشد قوة

---

(١) كلمات ص ٤ .

بمحبة الله : « وليس فى الحياة وقت أحلى وألذ على النفس من أن الانسان يجرد نفسه سويعة من الزمان من كل ما يحيط به من عالم الكون الذى هو فيه ، ويذهل عما فيه من القبائح والمظالم والمصائب، بل ومن الأفراح التى لا تخـلو دائما من شائبة كدر تمازجها أو تتبعها . تلك الأفراح الكاذبة الغاشة كما تغش التفاحة بهيئتها النضرة ظاهرا ، وقلبها مسكن للديدان ، فاذا جردها كما تقدم وقلّب وجهه فى السماء زمنا خاشعا ساكنا حيرانا راجيا ناسيا كل شيء حتى ذاته ، ثم رجع بعد ذلك الى نفسه وجدها شيئا تافها حقيرا ناقصا ، فتميل روحه اذ ذاك الى الترفع عن الأشياء المادية والتنزه عن الدنايا والشهوات ويرى نفسه ساعتئذ عالقة بمحبة الكمال فى كل شيء » (١) .

ذلك جانب من شخصية قاسم ، أما الجانب الآخر فهو أشد تعقدا . كان حييا ، وكان مع حيائه الجم عيوفا ، فلم يجرب عليه أحد ضعة ولا ضعفا ، ولعل أقدس ما كان يجله من مظاهر الحرية ، حرية الرأى . وتلك ظاهرة كثيرا ما نلقاها من ذوى الحياء ، فهم مع احترامهم لغيرهم ولحريتهم ، ومع مبالغتهم فى هذا الاحترام الى حد يهون معه عليهم أحيانا أن يتحملوا سوء استعمال الناس للحرية الى درجة تضايقهم ، أو الى حد أشبه بالفوضى ، نراهم اذا حاول محاول محاربة رأيهم والتهجم عليه — دون تفنيد علمى — ينتفضون انتفاضة الليث ويذودون عن آرائهم مضحين

---

(١) أسباب ونتائج ص ٥٦ .

فى سبيل ذلك بالجاه وبالحياة نفسها ، وربما كان ذلك سر نجاحهم دائما .

وقاسم ، الرجل المؤمن ، الذى يعزف عن لهو الحياة ، وينسى الدنيا لحظات كل حين من أجل أن تتعاطف روحه مع السماء ، هذا الرجل كان ينظر الى الموت بعين الخائف الوجل ، ويخيل الىّ أنه كان يتمنى لو يصدق الظن ويحشر مع أهل الجنة وينجو بذلك من الفناء المخوف .. ولقد عبر هو نفسه عن هذا الاحساس بكلمة بالغة فى الدقة والابداع قال « أتعس البرية انسان ضاع ايمانه ، يدس الموت بسمه فى حياته فيفسد عليها لذتها وينغص عليها شهوتها » [(١)] . وكان مسلما ، قلبه عامر بحب المسلمين ، لا يقبل أن تمس عقائدهم من غربى عن جهالة ، وكان فى الوقت نفسه يكره من المسلمين استكانتهم الى الرذائل التى ورثوها . وكان وطنيا ساخطا على أوربا ، وكان وطنيا يدعو الى اتباع خطوات أوربا فى نفس الوقت . وهذه كلها مظاهر شخصية متحيرة [(٢)] ، وان كانت غير متناقضة اذا ما فهمت فهما حقيقيا . فما سر هذا الذى يشبه الازدواج فى شخصية قاسم ؟

ان الدارس للحياة الشرقية فى الربع الأخير من القرن الماضى يستطيع أن يضع يده على مفتاح تلك الشخصية ، وأكثر الشخصيات التى عاشت فى تلك الفترة ومرت بما مر به قاسم من تجارب . كانت الحياة تسير بالشرق الاسلامى الذى ورث

---

(١) فى أوقات الفراغ ص ١٢٩ .
(٢) خاكى ص ٢٧ .

تقاليده ، وكان الرافد الغربى الذى بدأ يصل الى الشرق يعمل عمله وئيدا فى أول تلك الفترة ، قويا متدفقا فى آخرها بفعل التدخل الأجنبى والبعثات . واحتكت الحياة الشرقية الاسلامية بالحضارة الغربية احتكاكا قويا كان له أثره فى كل مظهر من مظاهر الحياة عندنا .

تغير كثير من عاداتنا بالنسبة للملابس الشرقية التى خلعها أكثرنا وارتدوا اللباس الغربى ، وتغيرت طريقة تناولنا للأطعمة ، وتبدلت الحياة داخل بيوتنا تبدلا يكاد يغير معالمها . أما الحياة فى الخارج ، فالمبانى الشرقية نفسها قد تطورت تحت تأثير فن العمارة الحديثة ، ووسائل المواصلات السريعة من قطارات وتلغرافات عرفها الشرق لأول مرة فى حياته . كل هذا لابد أن يكون له أثره فى الانسان نفسه . انتشرت الثقافة بصفة عامة عن طريق الصحف والكتب المطبوعة ، وانتشرت دور اللهو البرىء وغير البرىء حتى وصلت الى الريف . وشارك الناس فى الاحتفال بالأعياد الغربية وأقبلوا عليها اقبالهم على أعيادهم الاسلامية .

وقامت الدعوة الى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية ، وكان أصحابها من ذوى الثقافة الغربية الذين جذبتهم مظاهر الحياة الأوربية كما قلنا ، فعاشوا فى بيوتهم حياة أقرب اليها ، وفترت صلاتهم بالحياة الشرقية ، واقترن فى أذهانهم حاضر الشرق الضعيف بتقاليده الموروثة ، فراحوا ينادون بالاقتداء بالغربيين فى مظاهر حضارتهم المزدهرة .

وقد أفزع كل ذلك فريقا من المصلحين ، رأوا أن الانسياق وراء تقليد الغربيين في كل شيء سوف يفقد الأمة احساسها بكيانها ويدفعها الى الفناء فى الحياة الغربية ، فنادوا بأن النهضة لا ينبغى أن تقوم الا على أساس التمسك بتقاليدنا . ويصل هذا الصراع الى كل بيت وينفذ الى كل قلب حتى لنجد الأب أحيانا يرسل أحد ابنيه الى مدرسة أجنبية والآخر الى الأزهر ، ويطبع الحياة العامة حتى لنسمع دعاة الجديد ودعاة القديم . وتلك سنة التقاء الحضارات فى كل عصر (١) .

فمن المتأثرين بالحضارة الأوربية فى دعوتهم عبد القادر حمزة الذى كان يرى أن من أخطر الأشياء على تقدمنا الاستنجاد بالدين فى كل شيء ويضرب المثل بأوربا فى نهضتها قائلا : « هذه بلاد أوربا كان أهلها قبل العصر الذى يسمونه عصر النهضة والاصلاح متمسكين بعرى الدين المسيحى متشيعين لكل ما يأتى من جانبه ، فما زالوا يتغالون ويتطرفون ، حتى انتهت بهم الحال الى حصر الدين برمته فى الكنيسة . ولم تمض على ذلك سنوات حتى أصبحت الكنيسة صاحبة التصرف المطلق فيهم ، توجههم الى الحروب الصليبية .. ثم تقف أمام العلوم مخافة أن يكون فيها ما يخالف الدين . وما زالت على حالها تفتئت كل يوم على الدين باسم الدين ، والناس لا يعرفون الا كلمات تسمى الدين يتفانون فى جهاد الغيرة عليها ، حتى أخذ شعاع العلوم ينفذ الى الأذهان

---

(١) قانون تلاقى المدنيتين (راجع تيــــارات أدبية بين الشرق والغرب لابراهيم سلامة) .

وابتدأ دور النهضة ، فقام القسوس وقعدوا آخذين بتلابيب الأمة بأسرها ينادونها : الدين الدين اطلبى الكمال والرقى والنهضة من جانب الدين » [1]

ويختتم مقاله مطالبا بأن يترك الدين بيننا فى زيه الحقيقى ، ذلك الثوب الأبيض الطاهر ، وأن لا ننفر الناس من الجديد باسم الدين . فالقرآن لم ينزل الا بقواعد عامة ، ولكل آمة أن تتصرف فى مدلولات هذه القواعد بما يناسب زمانها ومكانها .

ويرد عليه رفيق العظم — أحد تلاميذ الأستاذ محمد عبده — فيبين أن نهضتنا الصحيحة لا يمكن أن تقوم الا على أساس الدين ، وأن الذين يطالبون بابعاد الدين عن شئون الحياة ، لا يفرقون بين الدين فى حقيقته وبين العادات الموروثة المقدسة باسم الدين . ثم رد على الذين يزعمون أن سبيل الاصلاح هو اتباع طريق الغربيين دون نظر الى الأصول الدينية فقال : « رب قائل يقول ما أغنى هؤلاء المصلحين عن اصلاح الدين ، وأحراهم بالدعوة الى اصلاح أمر الدنيا ، وبيان وجوه الخير والسعادة ، التى تتم بها سعادة الأمم الراقية التى نبذت الدين ، فالجواب على ذلك أن المرض يزول بزوال سببه . واذا علمنا أن سبب انحطاط المسلمين اتخاذهم البدع والعوائد دينا ، وهى ليست من الدين ، واستسلامهم بسبب ذلك للرضا بما وجدوا عليه آباءهم الأولين ، لزمنا أن نسعى بازالة السبب » [2] . واختتم مقاله بأن النهضة فى أوربا نفسها

---

(١) و (٢) راجع المقالتين فى المقتطف مارس ١٩٠٤ ، مايو ١٩٠٤ .

بدأت بالاصلاح الدينى الذى دعا اليه « لوثر » . والشرقيون الذين عاشروا أهل الغرب فى أوربا ، قد امتازوا دائما بأن لهم شخصيتين . أما الأولى فهى التى تحتفظ بالتقاليد الموروثة وأما الشخصية الثانية فهى التى كونتها البيئة المعنوية الأخرى . والشخصيتان تتنازعان الانسان فتحدثان أزمة حادة لأنه يحاول دائما أن يوفق بين عقائده التى اختلطت بقلبه وبين تفكيره أو عقله . وبين العقل والقلب فجوة لا سبيل الى التئامها فى بعض الأحيان(١).

وهكذا نقرأ لقاسم هجومه على المدنية الغربية ودفاعه عن التقاليد الاسلامية فى رده على « دوق داركور » ثم نقرأ له قسوته على المدنية الاسلامية فى « تحرير المرأة » ودعوته الى نبذ التقاليد البالية ، والسير فى ركاب الحضارة الغربية بالقدر الذى لا يمس جوهر ديننا . وليس فى ذلك تناقض وانما هو صراع بين القلب والعقل فى ذلك الوقت من حياتنا ، الذى مثل فيه القلب الحضارة الشرقية ، ومثل فيه العقل الحضارة الغربية .

وانى لأتمثل هذه الشخصية أمامى ، فأجدها معتدلة البنيان فى رقة ظاهرة ، حتى ليعتبر صاحبها الصحة شذوذا والمرض طبيعة وانظر الى الملامح الحلوة القسمات فى رجولة بادية ، فأجد وداعة وأنسا ينمان عن صفاء نفس وطيبة قلب . أتمثله بأناقته الواضحة فى ملبسه يجلس الى زوجته مفكرا وهى تحادثه ، ناظرا الى لوحاته التى تزين بيته المنسق فلا يحس الجمال شاخصا أمامه بنفس القوة

---

(١) خاكى ص ٣٠ .

التى أحسها أول مرة نظر اليها فيهمس بينه وبين نفسه : « صنف الطعام الذى أعجبك أو قطعة الغناء التى أطربتك أو ليلة الأنس التى راقتك مع محبوبتك ، أو غروب الشمس البديع الذى خفق لاجله قلبك ، اذا قصدت تكراره فانك لا تستطيع أن تجدد السرور الذى شعرت به لأول مرة ، فلا تحاول أن تنال ذلك فى اعادته » [1] . وأتمثله يجلس الى مكتبه وأمامه عشرات من الكتب قارئا ، ذاهلا عما حوله ، هادئا حينا ، منفعلا فى أكثر الأحيان ، مثلما كان يجلس الى منصة القضاء بادى الهدوء وبالنفس انفعالات شتى مما يسمع .

ثم أجده أمامى بعد حين يجلس مسترخيا فى بيت صديق ، وسيجارته لا تفارق يده ، يتكلم حينا ، ويسمع أحيانا ، مملوءا بنشاط غريب ، وعلى وجهه سعادة ظاهرة قلما نراها فى غير هذه الجلسة . ولكنه يشغل عن نفسه وعما حوله لحظات بما يدور فى خواطره . كان كما يقول عنه صديقه ابراهيم الهلباوى « يملى ونحن نكتب ، يفكر ونحن نتحدث » ، فلا أجد لهذه الشخصية صورة أقرب من الصورة المعروفة لراهب الفكر .

ويخرج راهب الفكر ليلقى الناس فنجده هاشا متواضعا يحاول بقدر ما يستطيع أن يذيب قلبه ليدخل السرور على قلب محتاج . وقد يلقى منهم أحيانا فنونا من المضايقات فيتسامح ويعفو ، ويعود اليهم ناسيا كل شىء الا الرغبة فى الخير لهم

---

(١) كلمات ص ٢٧ .

دائما . » زارنى أحد أصحابى وكان يرافقه شاب من أقاربه أتم فى هذه السنة دروسه ، وطلب منى أن أتوسط له ليحصل على وظيفة فمددت يدى الى هذا الشاب مسرورا ، فوضع فيها يدا فاترة ثم سحبها بسرعة . أشرت عليه بالجلوس على كرسى فاستحسن أن يجلس على (الكنبة) التى أردت أن أخص قريبه بها ، وقبل أن يجلس شمر بنطلونه بعد أن تحقق من انتظام ثناياه ، ثم قعد ووضع رجلا على الأخرى . سألته عن الوظيفة التى يرغبها فعلمت أنه يريد أن يعين فى وظيفة مرتبها خمسة وعشرون جنيها فى الشهر ، فأفهمته أنه يطلب المحال وأن لوائح الحكومة لا تجيز هـذا الطلب فلم يقتنع ، وأخذ يقيم الأدلة على أن الحكومة اذا شاءت يمكنها أن تعينه بطريقة استثنائية . فقلت له : ولكن ما هى المسوغات التى تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذى تطلب أن تتمتع به . فقال : كفاءتى . فقطعت عليه الكلام وكررت له أن طلبه غير مقبول ، فحول وجهه عنى وأخذ يفتل شاربه بحركة عصبية ثم التفت الىّ وقال : (ممنون نهارك سعيد) وخرج وتبعه قريبه بعد أن اعتذر لى بكلمتين . فلما خرجا سرح فكرى فيما سمعت ورأيت وتأملت فى حال هذا الشاب ووردت على خاطرى أحوال أخرى وقعت من أمثاله معى ومع غيرى . أحوال تنذر بوجود حالة أدبية سيئة عند الكثير من شبابنا تجعلهم صنفا خاصا لا يشبهون معها شبيبة الجيل الماضى التى عاشرت كثيرا من أفرادها ولا الشبيبة التى عرفتها فى البلاد الأوربية واختلطت بها زمنا . هذه الواقعة حركت فى نفسى حياتى الماضية ومثلت فى

ذاكرتى صورة شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياء والتواضع والانقياد ، وكانوا مع ذلك لا ينقصون من جهة المعارف عما يتحصله الشاب فى هذه الأيام ، وانما الفارق هو أن الشىء القليل الذى يتعلمه الشاب فى هذا الزمن يتورم فى مخه حتى يسد فراغه ويجعله يتخيل أنه يحمل كنوز السموات والأرض » [١] .

ولكن هؤلاء الناس هم أبناء الوطن الذى نشأ على أرضه وشرب من مائه ونعم بخيراته وأشرقت عليه شمسه . هم أبنـاء هذا الوطن الذى قاده جمال الدين ومحمد عبده وعبد الله النديم ومصطفى كامل فليتحمل اذن كل ألم فى سبيله ، ما دامت الظروف قد هيأت له أن يزور الغرب ويتعرف الى أسباب تقدمه ويقارن بينه وبين الشرق ويعرف أسباب ضعف بلده . وليكن قوة عاملة فى سبيل اصلاحه وتوجيهه الى الخير والنهوض به ليلحق بركب الدنيا . وقد يفنى المرء ولكن الخلود مهيأ لمن وهب نفسه من أجل غيره ، من أجل مبدأ ، مثلما وهب نفوسهم أعلام تتابع صورهم أمام ذاكراته فى سلسلة طويلة تزاحم الصورة الأخيرة فيها التى قبلها حتى تغيب أعلام تحل محلها أخرى تحمل نفس الرسالة وتسير على نفس الطريق .

(١) كلمات ص ٥١ .

خاتمة

ودع قاسم أساتذته وزملاءه فى الكفاح . مات جمال الدين ومحمد عبـده ، وودع النديم مصر التى عشقها وداعا أبديا . وها هو ذا اليـوم يودع مصطفى كامـل الذى لحق بالركب . « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل » ، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى . رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا مخنـوقا ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول . ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة وهيئة بائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة . ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس لم يجد سبيلا يخرج منه فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان .

« أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء ، فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر . هـذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها هو الأمل الذى يبتسـم فى وجوهنـا

البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل » [1] .

لقد أدى كل واحد من هؤلاء المصلحين رسالة ، فهل أدى قاسم الرسالة ؟ انه ينظر الى ابنتيه فيجدهما سافرتين مثقفتين مليئتين بالأمل ، كانت كبراهما فى الثالثة عشرة والصغرى لم تتجاوز الحادية عشرة ولكنهما تبدوان أكبر من سنهما حيوية ورجاحة عقل . ان بذور الاصلاح التى ألقاها هو وأحبابه قد نبتت ولم يعد من سبيل الى اقتلاع النبت الجديد ، لأن جذوره قوية تضرب فى الأرض فيصعد فوقها ثم يصعد ويصعد مزهرا .

ويعود قاسم ذات ليلة من « نادى المعلمين » بعد أن ألقى خطابه هناك ، يعود مشرق الوجه بساما محتضنا الحياة كلها . كان ذلك ليلة الثالث والعشرين من شهر ابريل عام ١٩٠٨ نفس العام الذى مات فيه مصطفى كامل . ويشعر قاسم بألم وارهاق ، فيطلب من زوجته كوبا من الشاى ، وتعود به زوجته لتجده قد ودع الحياة التى أحبها ، ورحل الى موكب الخالدين . وفى خلال شهرين ودعت مصر علمين من أعلامها ، فكانت جنازة كل منهما زفرة من قلب مصر الذى خفق بحب أبنائه الأبرار . وترك مصطفى كامل محمد فريد يؤدى رسالته ، وترك قاسم باحثة البـادية وهدى شعراوى تحملان الشعلة التى أضاءت حياة ما عرفت النور منذ قرون ، وفتحت قلب كل فتاة للنهضة الحقة التى يتطلبها الوطن من رجاله ونسائه على السواء .

---

(١) كلمات ص ٥٥ .

أهم مراجـــع البحث

١ ـ الاتجاهات الفكرية فى بلاد الشام لجميل صليبا القاهرة ـ ١٩٥٨
٢ ـ الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر لمحمد حسين القاهرة ـ ١٩٥٤
٣ ـ الأدب المصرى لروفائيل بطى القاهرة ـ ١٩٢٣
٤ ـ أسباب ونتائج لقاسم أمين الاسكندرية ـ ١٩١٣
٥ ـ الاسلام بين العلم والمدنية لمحمد عبده القاهرة ـ ١٩٦٠
٦ ـ الاسلام والتجديد لتشارلتن ترجمة عباس محمود القاهرة ـ ١٩٣٥
٧ ـ أعمالى بعد مذكراتى لأحمد شفيق القاهرة ـ ١٩٤١
٨ ـ تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى القاهرة ـ ٢٩/١٩٣٠
٩ ـ تاريخ الشيخ محمد عبده لمحمد رشيد رضا القاهرة : ٢٥/١٩٣١
١٠ ـ تاريخ المسألة المصرية لتشارلتن ترجمة عبد الحميد العبادى ومحمد بدران القاهرة ـ ١٩٣٦
١١ ـ تحرير المرأة لقاسم أمين القاهرة ـ ١٨٩٩
١٢ ـ تخليص الابريز لرفاعة الطهطاوى القاهرة ـ ١٩٠٥
١٣ ـ تراجم مصرية وغربية لمحمد حسين هيكل القاهرة ـ ١٩٢٩
١٤ ـ تراجم مشاهير الشرق لجورجى زيدان القاهرة ـ ١٩٢٢
١٥ ـ تربية المرأة والحجاب لمحمد طلعت حرب القاهرة ـ ١٨٩٩
١٦ ـ تطور الصحافة لابراهيم عبده القاهرة ـ ١٩٤٤
١٧ ـ تطور النهضة النسائية لابراهيم عبده ودرية شفيق القاهرة ـ ١٩٤٥
١٨ ـ تيارات أدبية بين الشرق والغرب لابراهيم سلامة القاهرة ـ ١٩٥٢
١٩ ـ حاضر العالم الاسلامى للوثروب ستودارد ترجمة عجاج نويهض القاهرة ـ ١٣٤٣ هـ

٢٠ ـ الخطط التوفيقية لعلى مبارك القاهرة ـ ١٣٠٥ ـ ١٣٠٦ هـ
٢١ ـ الدرر لأديب اسحق الاسكندرية ـ ١٨٨٦
٢٢ ـ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث لأحمد أمين القاهرة ـ ١٩٤٨
٢٣ ـ السبب اليقين المانع لاتحاد المسلمين لمحمد كاظم الاسكندرية ـ ١٩٠٢ ميلادى
٢٤ ـ سر تقدم الانجليز لمحمد فتحى زغلول القاهرة ـ ١٩٠٠
٢٥ ـ سعد زغلول للعقاد القاهرة ـ ١٩٣٦
٢٦ ـ سعد زغلول من أقضيته لمحمد عبده عزام القاهرة ـ ١٩٣٦
٢٧ ـ الصحائف السود لولى الدين يكن القاهرة ـ ١٩١٠
٢٨ ـ عبد الله النديم لعلى الحديدى القاهرة ـ ١٩٦٢
٢٩ ـ فى أوقات الفراغ لهيكل القاهرة ـ دون تاريخ
٣٠ ـ قاسم أمين لأحمد خاكى القاهرة ـ ١٩٤٤
٣١ ـ الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية القاهرة ـ ١٩٠٨
٣٢ ـ كلمات لقاسم أمين بعبدا ـ ١٩٠٦
٣٣ ـ مجالس الغرر ليوسف صغير القاهرة ـ ١٩٦٢
٣٤ ـ محمد عبده لعباس العقاد القاهرة ـ ١٩٢٨
٣٥ ـ المرأة الجديدة لقاسم امين القاهرة ـ ١٩٣٦
٣٦ ـ مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق القاهرة ـ ١٩٣٦
٣٧ ـ مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعى القاهرة ـ ١٩٤٥

مراجع أوربية

1 - Modern Egypt The Earl of Cromer (London, 1908)
2 - L'Egypte et Les Egyptiens Par Le Duc d'Harcourt (Paris, 1893)
3 - Les Egyptiens Par Quasim Amin (Le Caire , 1894)

(لم تذكر الدوريات ضمن مراجع البحث لعدم الاختلاف فى طبعاتها)

فهـــرس



أعلام العرب

الكتاب القادم

شكيب أرسلان

تأليف

أحمد الشرباصي

يصدر فى ٧ سبتمبر ١٩٦٣



مطبعة مصر